آثار المدينة المنورة

عبدالقدوس الأنصاري



الطبعة الخامسة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

إهـــــــداء2005

دار المنهل

المملكة العربية السعودية

آثار المدينة المنورة

تأليف

عبدالقدوس الأنصاري

الطبعة الخامسة

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م

جدة ـ المملكة العربية السعودية
ص.ب ٢٩٢٥/هاتف ٦٤٣٢١٢٤

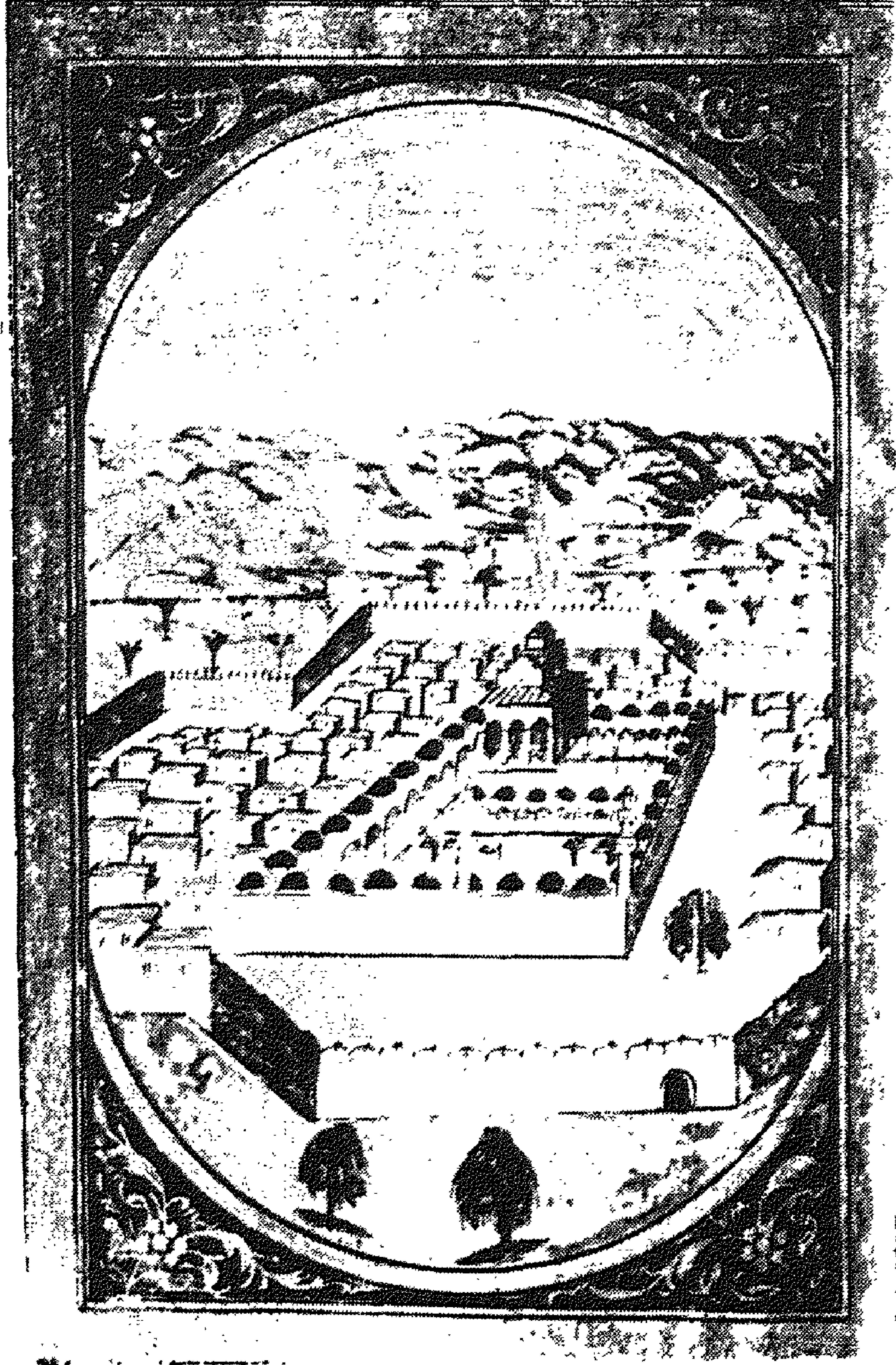
الطبعة الأولى فى سنة ١٣٥٣هـ
على نفقة المكتبة العلمية التجارية «الأولى» بالمدينة المنورة

الطبعة الثانية فى سنة ١٣٧٨هـ
على نفقة المكتبة العلمية التجارية «الثانية» بالمدينة المنورة

الطبعة الثالثة فى سنة ١٣٩٣هـ مزيدة ومنقحة
على نفقة المكتبة السلفية التجارية بالمدينة المنورة

الطبعة الرابعة فى سنة ١٤٠٦هـ منقحة
على نفقة المكتبة العلمية التجارية بالمدينة المنورة

الطبعة الخامسة فى سنة ١٤٢٠هـ
"كتاب المنهل"



المدينة المنورة في سنة ١٢٠٤ هـ



صحن المسجد النبوى الشريف من الداخل عام ١٩٠٨م، يحده من أعلى القبة الخضراء التى تقع فوق الروضة الشريفة وجزء من الأروقة التى شيدت من الحجر الأحمر، وغطيت بطبقة من الرخام المزخرف بماء الذهب .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الخامسة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا الكتاب (آثار المدينة المنورة) لمؤلفه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، أصبح من أمهات مصادر الباحثين والدارسين والمنقبين في آثار (المدينة المنورة).

وتتابعت طبعاته لتغطية هذه الحاجة العلمية الملحَّة .. إذ كان تاريخ الطبعة الرابعة منه في ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م. وقد نفدت هذه الطبعة منذ زمن بعيد.


واستجابة للإقبال المتزايد على هذا الكتاب من قِبَل الباحثين والمشتغلين بالجوانب التاريخية والأثرية، ونظراً لمرجعية هذا الكتاب في بابه، وإثراءً للمعرفة، فإنه يسعدنا إصدار (الطبعة الخامسة).

وإنه لمن دواعي السرور والغبطة أن يعاد طبع هذا الكتاب (آثار المدينة المنورة) وقد مضي على أول طباعة منه نصف قرن من الزمان ويزيد.

سائلين الله – سبحانه – أن يكون مصدر إشعاع فيما ورد في ثناياه من معلومات .

سائلين الله – جلت قدرته – أن يجعله في ميزان حسنات مؤلفه (الأستاذ عبد القدوس الأنصاري) فقد بذل من الجهد في تحقيق الآثار الواردة فيه ما تنقطع دونه أنفاس الرجال.

نبيه بن عبد القدوس الأنصاري



منارات المسجد النبوى الشريف عام ١٩٣٨م، استحدثها لأول مرة الوليد بن عبد الملك فى زيادته عام ٨٨ - ٩١هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﴿ﷺ﴾. أما بعد فنظراً لنفاد الطبعة الثالثة من هذا الكتاب (آثار المدينة المنورة) التي يرجع تاريخها الى عام ١٣٩٢هـ - ١٩٨٢م واستجابة للاقبال المتكرر من قبل كثير من المهتمين والمشتغلين بالجوانب التاريخية والأثرية. ونظراً لأهمية هذا الكتاب المرجعية فيما طرق من ابواب وسجل من آثار تاريخية لها مكانتها في قلوب المسلمين فانه من دواعي إثراء المعرفة إصدار هذه الطبعة. راجين أن يكون إسهاماً علميا محققاً في بابه إذ لم تسبقه مطبوعة فيما تناول. هذا اضافة الى جهد مؤلفه (عليه رحمة الله) الشخصي في الوقوف على تلك الآثار وتوثيق معلوماتها والتحقيق والتدقيق في تفرعاتها.

وتجدر الاشارة الى أن هذه الطبعة منقحة من الاخطاء التي وردت في الطبعة السابقة بعد تصحيحها وتصويبها..

وانه لمن دواعي السرور والغبطة ان يعاد طبع كتاب مضى عليه من العمر نصف قرن ويزيد. سائلين الله سبحانه أن يكون مصدر اشعاع فيما ورد في ثناياه من معلومات وتحقيق آثار وتسجيل تاريخ ينبغي ان يظل حيّا دائما.

نبيه بن عبد القدوس الانصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

للطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه هيَ الطبعةُ الثالثةُ لكتاب « آثار المدينة المنورة » تبرز في أواخر القرن الهجريّ الرابع عشر ، وكانت طبعتُه الأولى صدرت بمطبعة التّرَقّي الدمشقية بسنة ١٣٥٣هـ — ١٩٣٥ م ..

وكانت تلك الطبعة على نفقة « المكتبة العلمية التجارية » (الأولى) بالمدينة .

ثم كانت طبعته الثانية بمصر في سنة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٧ م أيْ بعد صدور الطبعة الأولى بِرُبْعِ قَرْنٍ .

وكان صدوره في طبعته (الثانية) على نفقة المكتبة العلمية التجارية (الثانية) بالمدينة أيضاً .

أمّا طبعته (الثالثة) هذه فقد تمت على نفقة « المكتبة السلفية » التجارية بالمدينة المنورة لصاحبها الأخ محمد عبد المحسن .

وهكذا يَبْدُو أن ثلاثَ طَبَعَاتٍ هذا الكتاب تمت كُلّهُنَّ على نفقة مكتبات علمية ، تجارية بالمدينة المنورة .. وكل طبعة منها تصدر بعد أن تكون الطبعة السابقة قد نَفِدَت من الأسواق .

ونحمد الله فإن هذا الكتاب على صغر حجمه قد تلقاهُ القراء وتلقته الأوساط العلمية والتاريخية والأثرية بالقبول والإقبال واتخذه كثير من الباحثين عن آثار هذه البلاد وتاريخها مرجعاً ومستنداً لهم .. ومن هؤلاء : المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (في منزل الوحي) . والدكتور محمد حميد الله في كتابه المطبوع باللغة الأردية (عهد نبوى كي ميدان جنك) [1] والأستاذ عثمان رفقي رُسْتم في كتابه الذي ترجمه من اللغة الإنكليزية إلى العربية المرحومُ السيد أحمد بن السيد صالح شطا ونَشَرَت التَرجَمةَ مُسْتَقِلَةً – مَجلَةُ المَنْهَلِ . واسم الكتاب : (النقوش والآثار في صخور الحجاز) [2] . وغير هؤلاء كثيرون . نذكر منهم الأستاذ محمد العروسي المَطْوِيّ سفير تونس سابقاً في المملكة العربية السعودية . وأحد أركان الثقافة والأدب في تونس اليوم .. فقد استند على كتاب (آثار المدينة المنورة) في تعليقاته وتصحيحاته لكتاب (تُحفَة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمَدَنِيّينَ من الأنساب) لعبد الرحمن الأنصاريّ – الذي طُبِعَ طَبْعاً عِلْمِياً متقناً في تونس بتحقيق الأستاذ محمد العَرُوسيّ المَطْوِيّ .

وقد تلقيتُ رسائل كثيرة من علماء وأدباء ومفكرين في داخل المملكة

---

١ ترجمة هذا الاسم باللغة العربية : « الغزوات النبوية » والكتاب مطبوع سنة ١٣٦٤هـ – ١٩٤٥م بحيدر آباد

٢ Rock Inscription in Hijaz

العربية السعودية وفي خارجها ، يُقَرِّظُون فيها كتاب آثار المدينة المنورة .. كما قَرَّظَتْه عدةُ صُحُفٍ ومجلات في طليعتها مجلة نور الإسلام في عددها الصادر في جمادى الأولى ١٣٥٤ هـ ، وقام رئيس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدي صاحب « دائرة معارف القرن العشرين » بذلك التقريظ ، وأضاف إليه تلخيصَ بَعْضِ فُصُولِ الكتاب .

وقد اتَّخَذَ هذا الكتابَ مرجعاً عن آثار المدينة المنورة كثيرٌ من الباحثين من عرب وغير عرب ، وورد ذِكْرُه والتعريفُ به في فهارس الكُتُبِ المطبوعة وغيرها من الكتب المنشورة .

والكتاب هو فاتحةُ البُحوثِ الأثرية بهذه المملكة .. صَدَرَ في وقتٍ مُبَكِّرٍ قبل انتشار الوعي الأثريّ .. فكان بذلك رائداً في هذا الميدان لكلّ من طرقوه لدينا . ويقول عنه علماء التاريخ والآثار : إنه يمتاز بالتركيز الواضح في بحوثه وتعريفاته واستعراضه للآثار التي تَحَدَّثَ عنها .. جاء ذلك نَصّاً في رسالة الدكتور محمد حسين هيكل المنشورة في هذه الطبعة ، في فصل : (آراء رجال العلم والتاريخ والأدب في الكتاب) . ومن ميزاته أنه عُنِيَ بتطبيق ما في كتاب السّيرة النبوية . والتاريخ على المُشاهَد من واقع الآثار من طريق الفحص الشخصيّ للأثر وموقعه وواقعه ، أثناءَ المشاهدة المُتَأَمِّلَةِ الواعية . ولما كان الأخ الأستاذ محمد النمنكانيّ صاحب المكتبة العلمية التجارية الثانية بالمدينة قد طلب مني أن آذن له في طبعه للمرة الثانية بعد نفاد طبعته الأولى على ما ستأتي الإشارة إليه ـ فقد طَلَبَ مني أخيراً ، الأخ السيد محمد عبد المحسن صاحبُ المكتبة السلفية بالمدينة أن آذن له في إعادة طبعه للمرة الثالثة فقط ، بعد أن نَفِدَتْ طبعتُه الثانية من الأسواق ، واشتد عليه الطلب ، فاستجبت لرغبته بشروط علمية وطباعية متفقٍ عليها بَيْننا .. في طليعتها إبرازُه في حُلَّةٍ علمية أنيقة في المظهر والمخبر بعد إعادتي النظر في هيكله جميعه ، نظراً لما سبقت الإشارة

إليه ، من ملاحظاتي على طبعته الثانية ، ولِقِدَمِ طبعتِه الأولى ، ولِتَجَدُّدِ العمران وتطوره في المدينة مما أدّى إلى تَغيير كبير ، في كثير من معالم الآثار وإزالة بعض مبانيها في أخريات النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري الحاليّ ، وما إلى ذلك ، كمثل الفصل المزيد في هذه الطبعة الثالثة عن تحقيقٍ أجْرَيْتُهُ لأحَدِ قُصُورِ وادي العقيق ، وتحديدِ معالمه ، وتحقيقِ معالم السّدّ الذي بناه صاحبُه ، لِسُقياه وسُقيا مزارعه . وصاحبُ القصرِ والسّدّ معاً هو (عاصمٌ) الأمويّ أحد أحفاد عثمان بن عفان رضي الله عنه .. وموضوعُ هذا القصر يتفق في كيانه . وفي كل شيء مع موضوعِ الكتاب وأهْدَافِه .

وقد أبْقَيْتُ في هذه الطبعة الثالثة ، بعض ما كان في الطبعة الثانية ، وذلك كمقدمة الأستاذ عبد السلام هاشم حافظ ، وكخريطة المسجد النبويّ في تطور عمرانه ، وتوسعاته عبر مراحل التاريخ ، حتى العمارةِ السعودية الأخيرة .

كما رأيت إبقاء القصيدة « النونية » التي تَطَوّع بنظم عقْدِها مشكوراً الأستاذ أحمد عُبيْد الدمشقي صاحب المكتبة المشهورة بدمشق الشام بجانب السّوق الحميديّة ، حفظه الله . وَزيّنَ بها صَدْرَ الكتاب بمناسبة صدور طبعته الأولى التي كان أشرف عليها الصدّيق المرحوم الأستاذ محمود الحِمْصيّ مدير المدرسة الابتدائية بالمدينة سابقاً — رأيتُ إبقاء هذه القصيدة في مكانها الأول بصدر هذا الكتاب ، في طبعته الحالية ، لأنها قصيدة رفيعة العماد ، مُعَبّرَةٌ أجْمَلَتْ في أسْلُوب شعْريّ أخّاذ مشرق ، محتويات الكتاب ، ولأنها أصبحتْ جُزْءاً لا يتَجزّأ من الكتاب .

وجدير بالإشارة أن الطبعة الثانية التي أصدرتها المكتبة العلمية الثانية بالمدينة المنورة صَدَرتْ وأنا في ظروف رسمية لا تُمكّنُني من إعادة النظر فيها ، ولم يراجعني ناشر الكتاب في ذلك أيضاً ، مما فَوّتَ فرصة

مراجعته وإبرازه في طبعته الثانية في المستوى الملائم . وحينما هيئ لي أن أراجع الكتاب تمهيداً لصدور الطبعة الثالثة هذه عثرتُ في طبعته الثانية على جملة أغلاط مطبعية وغير مطبعية وبعض تحريفات لعبارات وردت صحيحة في الطبعة الأولى . وتعريفات بعضها لا يفي بيانها بالمرام المنشود . كما انتزعت منها الخريطة الأثرية التقريبية التي وضعتها وصدرت في الطبعة الأولى . ولكون هذه الخريطة ذات أهمية كبيرة في التعريف الشامل لكل ما ورد في الكتاب من آثار المدينة فقد أعدتها إلى مكانها من الكتاب في هذه الطبعة ..

ومما يدلنا على أهمية الخريطة المشار إليها أن الدكتور محمد حسين هيكل قد نقلها كما هي ، في كتابنا ، إلى كتابه : (في منزل الوحي) ونشرت الخريطة في كافة طبعات هذا الكتاب الصادرة فيما بعد .

ومن ميزات هذه الطبعة الثالثة تعريفات أثرية ولغوية وعرفية زدتها . وتشكيل مشكل الحروف ، ووضع فهرست عام للأعلام والأماكن . حتى يكون الكتاب مفتوحاً للمستفيدين . ويضاف إلى ذلك تعديل بعض عبارات وردت في طبعته الأولى حيث انها كتبت في طلائع الوعي الثقافي والأدبي بالمدينة . ولم تبلغ إلى المستوى الذي وصل إليه الأسلوب الكتابي عندنا وعند العالم العربي فيما بعد .

كما تمكنتُ على ضوء الخبرة الطباعية التي تحصلتُ عليها ، وتوصلتُ إليها ، بعد ممارسة طبع الصحافة والكتب لمدة تربو على ثلث قرن من الزمان .. أي منذ أصدرتُ في عام ١٣٥٥ هـ – ١٩٣٧ م أول عدد من مجلة المنهل ، ومنذ رأستُ تحرير جريدة أم القرى الحكومية فيما بعدُ من سنة ١٣٥٩ هـ إلى سنة ١٣٦١ هـ .. وهكذا يبرز إن شاء الله تعالى ، كتاب « آثار المدينة المنورة » في حلة أبهى من تلك الحلة التي صدر بها في طبعتيه الأولى والثانية وفي حجم أضخم .

وإني أسأل الله جل وعزّ أن ينفع به ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يمنحنا المعونة والرشاد والتوفيق في سائر أعمالنا وأقوالنا .. إنه سميع الدعاء .

المدينة المنورة ، في ٢٧ شعبان سنة ١٣٩٢ هـ
٥ اكتوبر ١٩٧٢ م

عبد القدوس الأنصاري

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

للطبعـــة الأولى

نحمد الله على توفيقه ، ونصلي ونسلم على صفوة أنبيائه ، وآله وصحبه الكرام . أمّا بعد . فهذه دراسات عِلْميّةٌ أثمرتها أبحـاثٌ ودراساتٌ ومشاهداتٌ شخصية ، لآثار المدينة المنورة ، أضَعُها بين أيدي القُرّاءِ كما شاهدتُها وكما حققتُها .

بَدَأتُ في هذه الدراسات منذ ثمانية أعوام . فطوراً تراني جائلاً في شوارع المدينة وأزقّتِها متأمّلاً ، وطوراً تجدُني سائراً في ضواحيها مستكشفاً ، أعلُو الآكام . وأستبطِنُ الوهاد ، وأصعد إلى قِمَمِ الجبال ، وأهبطُ إلى قرارات الأوديةِ .

وكانتْ لوافِحُ السَّمُوم لا تكبح من جماح هِمّتي ، ولواذِعُ القرّ لا تفلّ من حَدِّ عزيمتي ، لِمَا أشعرُ به من متعة روحية في مهمّتي . وطالما اشتقتُ إلى أنْ أوفّقَ لإيداعِ معلوماتي ، ومشاهداتي ، ونتائـج

دراساتي ، في سفر يكون جامعاً لأشتاتها . وبخاصة ان للبحوث الأثرية أهمية خاصة في عالم التاريخ . حتى أراد الله ذلك الآن .

والمدينة حافلة بالآثار ، إن لم تكن كلها آثاراً فهي من أقدم بلاد الله على وجه البسيطة ، فبانوها هم العمالقة ، وقد عرفت العمالقة ، وأنهم كانوا فيما قبل التاريخ . .

وقد تعاقب عليها السكان حتى جمعت أخيراً بين الخزرج والأوس اليمانين العريقين في التمدن ، الذين عرفوا بمزاولة الزراعة ، وبناء الآطام [١] ، والدور ، وهي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ، فآثاره بها مشرقة منيرة منتشرة وفيرة .

وهي مهد الإسلام وعاصمته الأولى التي كانت تجبى إليها خزائن الأرض فتصرف وارداتها في أراضيها عمارات وبنايات .

وكانت قبلة الشعوب الإسلامية من شتى الأقطار ، ومصب وابل خيراتهم إذا نزحت بهم الديار !

كل هذا وذاك من طبيعته أن يجعل المدينة بلد آثار بحق ، وما هي الآثار إن لم تكن مخلفات الأولين من عمارات وكتابات وصناعات وما إلى ذلك ؟

وتعميقاً للفائدة وتنويراً لجوانب الموضوع قد حلينا الكتاب بخريطة أثرية تقريبية للمدينة المنورة ، أخذنا تخطيطها من مصادر التاريخ . ولهذه الخريطة التقريبية فوائد جمة ، فهي تدل القارىء على مواقع الآثار وتحددها له ، بصورة واضحة . وفي الكتاب رسوم اكتشفنا بعضها لأول مرة في تاريخ المدينة فأحببنا تسجيل هذا الاكتشاف وتخليده ، بأخذ صورها

---

١ الآطام جمع أطم وهو الحصن .

لأول مرة في التاريخ أيضاً .

هذا ومهما أكنْ توخيتُ التحقيق ، فلا آمن من زَلْقَة الفكر ، وزَلّة القَدَمِ ، لأنّ هذا الموضوع الذي طَرَقْتُهُ يكاد يكون بِكْراً في المؤلفات العربية الإسلامية من حيثُ التدوينُ الخاصّ بآثار هذه البلدة الطيبةِ الكريمة باللغة العربية .

وإنّي لأرجو ممن يَطّلعُ على هفوة أنْ يرشدني إليها مشكوراً ، لإصْلاحِهَا في الطّبَعَاتِ القادمة إذا وفق الله .

وأمَلي وطيدٌ في أن أكون قد قمتُ ببعض الواجب في سبيل إحياءِ كثيرٍ مما انطمَس من آثار هذه البلدة الطاهرة حتّى أصْبَحَ مَجْهول الاسمَ ، أو مَجْهُولَ الحقيقةِ ، أو غير مَعْرُوفها معاً . والله وليّ التوفيق .

المدينة المنورة — **عبد القدوس الأنصاري**

مقدمة الطبعة الثانية

هذا الكتاب التاريخي الأدبي: «آثار المدينة المنورة» كان قد صدر في طبعته الأولى عام ١٣٥٣هـ - ١٩٣٥م ونفدت نسخه من عدة سنوات، وقد لاقى شهرة واسعة فازداد عليه الطلب من كل جانب لما حواه من موجز واف لتاريخ هذا البلد الطاهر الذي تتجه إليه الأنظار، وتهفو إليه القلوب من كل أقطار المعمورة.. لهذا تقدم ناشره بطبعته الجديدة الثانية هذه لعشاقه ومحبي اقتنائه الذين يقتنون فيه صفحات من حياة تاريخية لطيبة الطيبة على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم.

ومؤلف هذا الكتاب الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أديب مخضرم معروف وكاتب فذ، له مؤلفات أدبية هادفة طبع بعضها.. وإن مجلته «المنهل» الأدبية التي يصدرها منذ قرابة ربع قرن تؤرخ عمله الفكري المتواصل وجهوده الأدبية الموفقة.

وقبل ذلك العهد وهو يتنقل في الوظائف الحكومية حتى أصبح الآن عضواً في مجلس الشورى وسكرتيراً في ديوان مجلس الوزراء بجدة.

المدينة المنورة

ربيع الثاني ١٣٧٨هـ

عبد السلام هاشم حافظ

---

١ لم يسبق أن كان المؤلف عضواً بمجلس الشورى ولا سكرتيراً بديوان مجلس الوزراء بجدة. وقد تقلب في عدة وظائف بديوان رئاسة مجلس الوزراء بالمملكة العربية السعودية وآخر وظيفة شغلها هي وظيفة مدير الشؤون المالية العامة بالديوان المذكور وقد كان قبل ذلك سكرتيراً لمجلس الوكلاء الذي حل محله فيما بعد مجلس الوزراء كان ذلك في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله.. وحينما كان الديوان المشار إليه يسمى بديوان النيابة العامة وكان النائب العام لجلالة الملك عبد العزيز هو سمو الأمير فيصل (جلالة الملك حالياً) كان المؤلف يشغل وظيفة مراقب في الديوان فمدير لشؤون الأنظمة والمشروعات الخ.

قسم الدُّور

تمهيد

افتتحنا هذا القسم من الكتاب بِدَارَيْ كُلْثُومِ بن الْهِدْم وسَعْدِ ابن خَيْثَمَةَ الأنصارِيَّيْن ، لما لهما من ميزة بارزة هي نزول رسول الله صلى الله عليه وسلم بهما أول مرة حين وصوله إلى قباء مُهَاجِراً من مكة إلى المدينة .

ودُورُ المدينة المأثورةُ كثيرة. غير ان الدّور اللاتي أوردتُها فيما يلي هي اللّواتي دَرَسْتُها ، وأستطيع أن أقولَ : إنّ أثريتَها قد تحققت لديّ ، كما ثبتَتْ لَدَيّ مواضِعُها .

(١)

دارا كلثوم بن الهدم ، وسعد بن خيثمة

هاتان الداران — مع كونهما مأثورتَيْن — قد انطمست ذكراهما اليوم . فلا تكاد تجد أحداً يعرف موضعهما بالضبط والتحقيق ، بل لا تكاد تصادف من يدري أن بقرب مسجد قباء دارين متجاورتين كانتا منزل الرسول عليه الصلاة والسلام[1] . هذا مع اتفاق المؤرخين وكُتّاب السّيرة النبوية على نزول النبي صلى الله عليه وسلم بالدارين المشار إليهما حين قدومه إلى قباء فبهما قضى المدة التّي قضاها في هذه القرية الجميلة ذات الجوّ البديع الصّافي ، والنسيم اللطيف الشّافي .

وعلى هذا فبناؤهما الأول كان في الجاهلية . وقد كانتا موجودتين ومعروفتين في عصر المطري (القرن الثامن الهجري) وفي زمن السّمهودي أيضاً (القرن التاسع الهجري) .

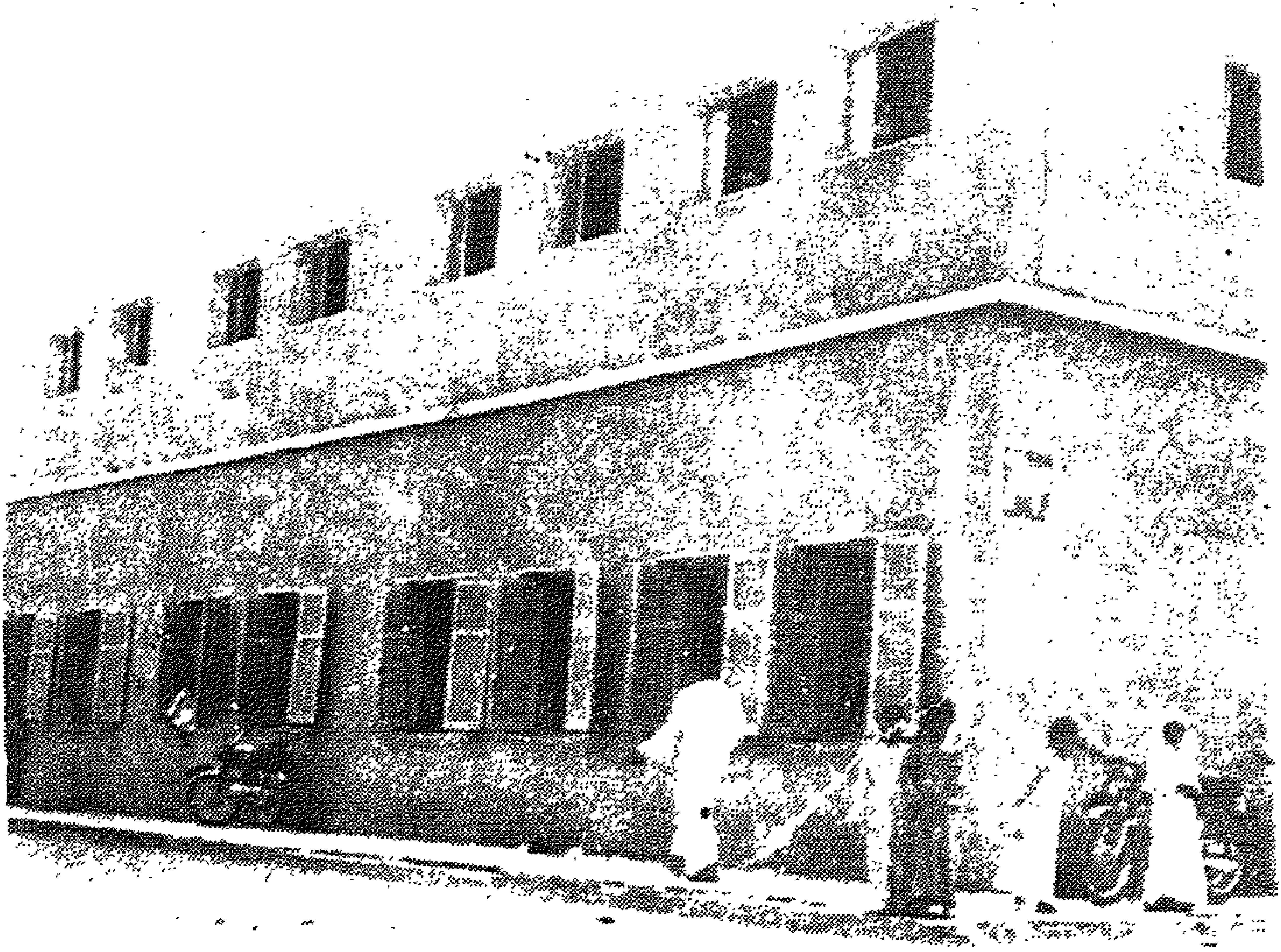
أمّا رَأيُنا في موقعهما بعد أن اندرستا ، فنورده لك فيما يلي :

---

١ اتخذ النبي صلى الله عليه وسلم دار كلثوم لإقامته ، ودار سعد لمجلسه مع الناس (سيرة ابن هشام ج ٢ ص ١٠) .

روي السّمهوديّ أنهما واقعتان بالجهة الجنوبية لمسجد قباء ، وحكى أن دار سَعْدِ بن خَيْثَمَةَ تلي مسجد قباء من قِبلته ، (أي تلي دار كلثوم إلى مسجد قباء) .. فنرى من هذا النص ، ومن تصريح كاتبه أيضاً ، أنّ الناس كانوا يَصِلونَ الدارْين بعد زيارتهم لمسجد قباء أنه في إمكاننا أنْ نؤكد أنهما كانتا واقعتَيْنِ بمكان هاتين القبتين البيضاوين القائمتين اليوم بجنوبيّ مسجد قباء بنحو ١٢ متراً ، لانطباق الأوصاف المذكورة عليهما ، وعلى موقعهما كذلك .. وإذنْ فدارُ كُلْثُوم بن الهِدْمِ هي بموضع القبة المعروفة الآن بمقام العمرة ، ودارُ سعد بن خيثمة بمكان القبة التي تليها إلى مسجد قباء الملاصقة لها والمعروفة ببيت فاطمة [1] .

١ هدمت القبتان وبقي مكانهما سوحا فترة من الزمن . وأخيراً بني في مكانهما المدرسة الابتدائية للبنين في قباء وهي تابعة لوزارة المعارف السعودية .



مدرسة قباء الابتدائية في مكان داري كلثوم بن الهِدم
وسعد بن خيثمة الأنصاريَّيْن

(٢)

دار أبي أيوب الانصاري رضي الله عنه

أبُو أيوب صاحبُ هذه الدار هو أحدُ بني النجّار من الخزرَجِ أخوالِ عبد المطلب جدّ الرسول صلى الله عليه وسلم . وفي دارِ أبي أيوب هذه كان نزولُ الرسول أولَ مقدمه إلى داخل المدينة من قباء .. وقد أقام فيها مُدّةً تتراوح بين سبعة أشهر واثنَيْ عشر شهراً . وكان مَنْزِلُهُ من الدار بِسُفْلِهَا على ما رواه ابن هشام . وفي صحيح مسلم أنه انتقل بعد ذلك إلى عُلْوِها وتاريخُ بناءِ هذا الدار مجهولٌ لدينا . وهناك روايةٌ تقول : إنّ بَانِيَهَا الأولَ هو تُبَّعٌ أبو كرِب حين قدومه إلى المدينة .

وتقع في الناحية الجنوبية الشرقية للمسجد النبويّ . ويَحُدّها شَمَالاً : الزقاقُ الضيقُ النافذ المعروفُ بزقاق الحَبَشَةِ [١] . وجَنُوباً دارُ جعفرِ

---

١ لعل أصل هذه التسمية ما رواه أبو داود من لعب الحبشة بحرابهم ، فرحاً بقدومه صلى الله عليه وسلم . وكان وقت لعبهم – على ما يفهم من فحوى كلام السمهودي عند نزوله (ص) بدار أبي أيوب . فمن الممكن – والحالة هذه – أن يكون محل لعبهم بمدخل هذا الزقاق ، ولذلك عرف بهم .

الصادق المعروفةُ اليوم بدار نائب المحرم. وغرباً الطريقُ. وشرقاً ما وراءها من بيت البالِي .

وقد انتابت هذه الدار تطوراتٌ ، فقد ذكر السّهَيْلِيّ في كتاب الرّوْضِ الأنُف : أنها آلت بعد صاحبها أبي أيوب ، إلى مولاه أفلح ، وأنّ أفلحَ هذا لم يُفْلِحْ ، إذْ باعَها بعد ما خربت ، للمغيرة بن عبد الرحمن بألف دينار ، وهذا قام بترميمها ، وتَصَدّقَ بها بعد ذلك على أهل بيت من فقراء المدينة ، ثمّ لَجّ تاريخُها في الغُموض ، حتّى أصبحت عَرْصَةً فاشتراها الملك شهابُ الدين غازي بنُ الملك العادل ، وبناها مدرسة سُمّيَتْ بالمدرسة الشّهابيّة ، نسبةً إليه . ثم تعطلت . وفي أواخر القرن الثالث عشر الهجريّ أعيدَ بناؤها بشكل مسجدٍ مقبب ذي محراب ، ولا تزال إلى الآن بهذا الشكل ، في القسم الجنوبيّ الغربيّ من دار آل البالِي .. وعلى جدارها الخارجيّ حَجَرٌ مَنْقُوش فيه بحروف بارزة مذهبة ما نصه : (هذا بيت أبي أيوب الأنصاري موفد النبي عليه الصلاة والسلام في ٧ سنة ١٢٩١) هـ .

وفي تعليقات المرحوم إبراهيم فقيه على « خلاصة الوفاء » أنها عُرِفَتْ باسم زاوية الجُنَيْد .

(٣)

دار عبد الله بن عمر رضي الله عنه

ذكر المطريّ في كتابه : (التعريف بما أنِسَت الهجرة من معالم دار الهجرة) أن البناء المعروف بدار العشرة [١] المنقوش على بابه ذلك قبل فتح الشارع الجديد بجنوبيّ المسجد النبويّ هو دار آل عمر بن الخطاب. وفي « وفاء الوفا » نَصّ بأن الدار المشار إليها هي دار عبد الله بن عمر ابن الخطاب ورِثَها من أخته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما ، وهي أخذتها تعويضاً عن حُجْرَتِها التي أدْخِلَتْ في بناية المسجد النبويّ . وكان لهذه الدار نَفَقٌ من جنوب المسجد يُوصِلُ إليها . وفي عام ٨٨٨ هـ سُدّ ورُدِمَ بالتراب .

وقد دَخَلْتُ هذه الدار في عام — ١٣٥٣ هـ — فإذا هي عبارة عن شِبْهِ مدرسةٍ واسعةٍ تقوم في وسطها شَجَرَةُ (سيسبان) عظيمةٌ ، زاهية الاخضرار عطرية الأريج .. وبجانب هذه الشجرة بِرْكَةٌ صغيرةٌ ،

---

١ أدخلت هذه الدار في الشارع الجديد الذي فتح في جنوب المسجد النبوي مباشرة في توسعته السعودية .

وبئر معطلة . وبأطراف المبنى غُرَفٌ بعضها جُعِلَ مخزناً لأشياء المسجد النبويّ . ولهذه المدرسة نافذة تُطِلّ على المواجهة الشريفة .

ولا نعلم هل كانت في وقت من الأوقات مأهُولَةً بالسكّان ، أمْ على هذا الوضع كانت من الأصلْ [1] ؟

---

١ بعد كتابة ما تقدم ، عثرت في « وفاء الوفا » (ج ١ ص ٤٦٢) على أنها مدرسة لم تعمر قط بالسكان . ولعل ذلك كان لقربها من المواجهة الشريفة .

(٤)

دار جعفر الصادق رضي الله عنه

تقع في الجنوب الشرقي للمسجد النبوي ، تلاصق دار أبي أيوب من جانب هذه الجنوبي . وتعرف اليوم بدار نائب الحرم[١]. وكان هذا النائب يقيم فيها إلى عهد قريب ، فلما أُلْغِيَتْ وظيفةُ « نائب الحرم » من موازنة دائرة الأوقاف أصبحت الدار معروضة للإيجار ، ومُؤجرها هو القائم بإدارة أوقاف الحرم النبوي .

وكانت الدار في أول عهدها لحارثة بن النعمان الأنصاري ، ثم انتقلت لجعفر الصادق .

وفي القرن التاسع كانت عرصة فاشتراها من مُلاكِها الأشرافِ « المنايفة » الشجاعي شاهين الجمالي شيخُ الحرم النبوي إذ ذاك ، وابتناها مسكناً لنفسه . ولا ندري مراحلَ تاريخها بعد ذلك ؟ وهي اليوم من أوقاف المسجد النبوي . ولا نعلم كيف انتقلت من دَوْرِ المِلْكِيَّةِ إلى دَوْرِ الوَقْفِيَّةِ ؟ كما أننا نجهل واقفها ! ويحتملُ أن يكونَ الشجاعي

---

١ هي اليوم مسكن إمام وخطيب المسجد النبوي .

شاهين نفسه ، هو واقفها على المسجد النبوي بعد وفاته ، لأنه كان شيخاً له .. وإثبات هذا يحتاج إلى الاطلاع على سجلات دائرة الأوقاف القديمة بالمدينة المنورة . وهل يوجد فيها الآن سجلات ترتقي في القدم إلى القرن التاسع الهجري ؟[1] .

[1] كانت دائرة الأوقاف تعرف في عهد حكومتي بني عثمان والأشراف بالخزينة الجليلة ، وفي عهد الحكومة السعودية عرفت باسمي « دائرة الأوقاف » و« مديرية الأوقاف » . وقد سألت السيد حسين طه مدير الأوقاف رحمه الله عن أقدم سجل بدائرة الأوقاف ، فأخبرني بأنه سجل عام ١٢٥٥ هـ .

(٥)

دارا عثمان بن عفان رضي الله عنه

يُفهَمُ من تواريخ المدينة أنه كان لعثمان بن عفان داران متصلتان ببعضهما تقعان في الناحية الشرقية للمسجد النبويّ .

إحداهما : الدار الصغرى ، والثانية : الدار الكبرى [1] .. وكلتاهما بُنيَتْ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد نص صاحب « وفاء الوفا » على أن الدار الأولى قد حل محلها الرباط المعروف برباط سيدنا عثمان ، وذكر أنّ هذا الرباط للمغاربة ..

وبهذا التنصيص كفانا مؤونة البحث والتنقيب .. فرباط سيدنا عثمان موجود بعينه إلى ما قبل التوسعة السعودية للمسجد النبويّ . وكان هذا الرباط من أوقاف المغاربة ، وكانت به مكتبة تحوي كتب الفقه المالكي وغيره . وأكثرها خطي ، وكانت في خزائن خشبية عتيقة،أخبرني بعض

١ كانت الدار الكبرى بمحل الرباط المشهور برباط العجم ، وقد أدخل جزء منها في الشارع الجديد الواقع بشرقي المسجد النبوي والدار الصغرى أدخل بعضها في الاستراحة الملكية المملوكة الآن للأمير عبد الله بن عبد الرحمن ، وبعضها في الرحبة الواقعة أمام باب جبريل .

نظّار الرباط [1] بأنها أخرجَتْ من الحجرة النبوية ، وأنّها من مصنوعات الدولة العباسية ومما أهدته إلى الحجرة النبوية الشريفة .

وهياكلُ هذه الخزائن ونقوشُها وحلقاتُها – تؤيد كلها قول الناظر المشار إليه . وقد أفادنا السّمهوديّ بأن قَتَلَةَ عثمان رضي الله عنه تسوروا عليه من هذه الدار الصغرى إلى داره الكبرى التي كان يقطنها يومئذ وهو خليفة . ويقول لنا إن دار عثمان الكبرى يقع في محلها رباط الأصفهانيّ وتُرْبَةُ [2] أسد الدين شيركوه عم السلطان **صلاح الدين بن أيوب** ومعه فيها والد صلاح الدين أيضاً ، وفي محل الدار الكبرى أيضاً دار مشايخ الخُدّام وبعدها جنوباً الطريق خمسة أذرع أو نحو ذلك ثم منزل أبي أيوب الأنصاريّ .

ونحن نقول تمهيداً لتحديد هذه الدار تحديداً علمياً : إننا نرى أن رِباطَ الأصفهانيّ الذي ذكره السّمهوديّ ، وقال عنه إنه جزء من الدار : هو الرباط المعروف اليوم برباط العجم ، لِمَا وَرَدَ في « وفاء الوفا » من كون بانيه وقفه على فقراء العجم [3] ولانْطِبَاقِ ما حكاه من أنّ الواقف جعل لنفسه قبراً ذا شُبّاك مُقَابلاً للقبر الشريف – على الرباط المذكور ، حيث إنّ فيه لليوم شُبّاكاً هذا وَصْفُه [4] .

كما أننا نَرْتئي أن الدار التي ذكر أنها دارُ مشايخ الخُدّامِ : هي المعروفة الآن بدار مشيخة الحرم النبويّ ، وكانت مخصصة لإقامة شيخ الحرم النبويّ في عهد الحكومة العثمانية .. وشيخُ الحرم النبويّ هو شيخ

---

[1] هو المرحوم الحاج علي الصّبّاحيّ المغربي صديق القاسم بن محمد الأنصاري الخزرجي والد المؤلف .

[2] أي قبره .

[3] يبدو أن المراد بالعجم هنا هم الإيرانيون .

[4] كان ذلك قبل التوسعة السعودية للمسجد النبوي .

الْخُدّام بعينه في الاصطلاح القديم [1] .

والطريق الذي ذَكَرَ أنه في جنوب الدار لا يزال موجوداً ، وهو زقاق الحبشة الذي أصبح عَرْضُهُ اليوم مرتين .

* * *

بعد هذا التمهيد في وسعنا أن نقدم للقراء ، صورة حقيقية لدار عثمان الكبرى التي استشهد في بعض غُرَفِها ، بِزَاويتِها الجنوبية ، فنقول : يحد هذه الدارَ شرقاً دارُهُ الصغرى (رباطُ سيدنا عثمان اليوم) ، وغرباً موضعُ الجنائز (فَرْشُ الْحَجَر [2])، وشمالاً طريقُ البقيع ، وجنوباً زقاقُ الْحَبَشَة . ويُفْهَمُ من قول ابن جُبَيْرٍ في رحلته : « ويقابل بابَ جبريل عليه السلام دارَ عثمان رضي الله عنه ، وهي التي استُشْهِدَ فيها » أنها كانت موجودة معروفة بهذا الاسم إلى أواخر القرن السادس الهجريَ ولا بد أن عدة تجديدات وترميمات قد أجْرِيَتْ بها فيما بعد .

---

١ في صبح الأعشى (ج ١٢ ص ٢٦٠ و ٢٦١) فصل خاص بهذه الوظيفة . والذي يهمنا من هذا الفصل ما فيه من الدلالة الصريحة على أن مشيخة الحرم النبوي ومشيخة الخدام لفظان مترادفان لوظيفة واحدة .

٢ في توسعة المسجد النبوي أزيل فرش الحجر ، وكان من المرمر الأبيض من نوع (الأربسكاتو)

(٦)

دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه

يؤخذ من « وفاء الوفا » أنّ دار أبي بكر[١] التي اقتطعها له الرَّسُول عليه الصلاة والسلام كانت شرقيّ المسجد النبويّ ، قُبالَةَ دارِ عثمان الصغرى ، وأنّها في الطَّرَفِ الشّماليّ من هذا الطريق المعروف بطريق البقيع ، وأنّها تنتهي إلى ما يُحاذي رباطَ سيدنا عثمان .. هذا حَدّها الشرقيّ .. أما الغربيّ فالمدرسة المقابلةُ لباب النساء : (زاويةُ السّمّان اليوم) . وحَدّها الجَنوبيّ طريقُ البقيع ، والشماليّ غير معروف لدينا .

ومما يجدر بالذكر أنه بهذه الدار كانت وفاةُ صاحبها أبي بكر الصديق أوّلِ خليفةٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، على ما روته ابنتُه عائشة رضي الله عنها .

ويمكننا (بناءً على ما مر من التحديد) أن نقول : إنّ دار أبي بكر هذه ، تتكون في الأصل من مجموع كُلٍ من بيت السّمّان[٢] الآن ، والدارِ المُلاصِقةِ له غرباً ، إلى طرف المدرسة المقابلة لباب النساء المعروفة بزاوية السّمّان .

---

١ لأبي بكر رضي الله عنه دار أخرى بالسنح ، في عالية المدينة ، بينها وبين المسجد النبوي ميل .

٢ هذه الدار أدخلت في الرحبة الواقعة بشرقي المسجد مقابل باب النساء . وقد أزيلت معالمها تماماً .

(٧)

دار ريطة

رَيْطَةُ هي ابنةُ أبي العباس السفّاحِ . وتقول « دائرة المعارف الإسلامية » التي يقوم بترجمتها بعضُ كُتّابِ مصر : إن هذا الاسمَ يُطْلَقُ على أمّ السفاح أيضاً .

ودار ريطةَ ابنتهِ هي المُقَابلَةُ لباب النساءِ أحد أبواب المسجد النبويّ ، وكان هذا البابَ يُعْرَفُ بها فيقال له : (بَابُ رَيْطَة) ونرى بناء على ما لريطة هذه من مكانة اجتماعية ممتازة أن لدارها ميزةً عمرانية تتناسب مع مكانة صاحبتها ، ولهذا نُسِبَ إليها أحدُ أبوابِ المسجد النبويّ في عصرٍ من العصور الغابرة .

ودَارُ رَيْطَةَ هي زاويةُ السمّان اليوم [1] وهي واسعة فخمة ، وعَقْدُ بابها المُواجِهُ لباب النساء رفيعٌ متسع ، ومصراعاه جميلان كبيران مصبوغان بدهن أخضر قاتم قديم ، ومزخرفان بزخرفة القرون الإسلامية الأولى . وقد تأملت ملياً في هذه الزخرفة البديعة ، وأخيراً أدركتُ أن

---

١ أدخل موضع هذه الدار أو هذه الزاوية ، في الشارع الشرقي للمسجد النبوي .

أكثرها مُكَوّن من كتابةٍ كوفية من النوع المُشَجّر ، فحاولتُ قراءتها .
وهذا نصّ ما على كل مصراع . منقوشٌ على المصراع الجنوبيّ :
« بَرَكَةٌ كاملة ونعمة شاملة بركة كاملة ونعمة شاملة الملك لله الملك لله » .

ومنقوشٌ على المصراع الشماليّ مثلُ ذلك ، وكتابةٌ أخرى لم أستطِعْ حلّهـــا .

ونعتقد تأسيساً على ما ذكره المطريّ من أن يازكوح أحد أمراءِ الشام بَنى هذه الدار من جديد ، وعَملها مدرسة للحنفية ، وجعل له فيها مشهداً (مدفناً) نقل إليه من الشام — نعتقد تأسيساً على هذا أن هذا الباب من آثار تلك البناية نظراً لشكلِه العتيق ، وشكلِ زخرفته النفيس .

ويرى المطريّ أن هذه الدار هي دار أبي بكر الصّديق التي توفي فيها ، وينتقدُ السمهوديّ هذا الرأيَ ، ويُثْبِتُ أن دارَ أبي بكر إنما تقع خلف دار رَيْطةَ في جهة المشرق ، مُسْتَدِلاً بما قاله ابْنُ شَبّةَ من كون دار أبي بكر هي في زقاق البقيع قُبالَةَ دار عثمان الصغرى .
ونميل إلى تأييد هذا الرأي ، لأنّه هو الذي تؤيده القرائن .

وبمؤخّرِ الزاوية اليوم مكان صغير يُرْوى أنه بيت الصّدّيق . وقد يكون كذلك ، وقد يكون مَدْفنَ يازكوح من دار ريطة . وكونُهُ مَدْفن يازكوح هو الذي نميل إليه .

هذا وقد اختلط الأمر على صاحب مرآة الحرمين إذ يقول :

« وكان في مقابلة هذا الباب (بابِ النساء) دارُ ريطة ابنةِ أبي العباس . وفي شرقيها دار أبي بكر رضي الله عنه التي في موضعها الآن

زاوية الشيخ عبد القادر الجيلاني أو زاوية السّمّان » .

أولاً ترى أنه جعل زاوية السمان دار أبي بكر التي بشرقي دار ريطة ؟ وهذا هو محل الخلط الواضح .



مصراعا دار ريطة ، التي أصبحت زاوية السّمّان

(٨)

دار خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما

حقاً إن رب الدار أدرى بما فيها .. فَبِمُقَدَّمِ هذا الرباط المعروف برباط خالد بن الوليد ، الملاصق لدار ربطة من جانبها الشمالي – كانت تقوم دار خالد بن الوليد[١] . وكنت لا أقضي الْعَجَبَ من تسمية هذا الرباط بهذا الاسم .. ألخالِدِ بن الوليدِ بَطَلِ الإسلام رَباط ؟ أم هو يا تُرى خالدٌ آخر ؟ أم إن هذه التسمية خرافة مخترعة ؟

الحق يقال : إنّ هذه الخواطر كلها كانت تتوارد على ذهني كلما طرق سمعي اسْمُ « رباطِ خالد بن الوليد » [٢] .

وأخيراً اتضح لي أنّ لهذه التسمية ظلاً وارفاً من الحقيقة .. فكما أسلفنا إن بِمُقَدَّمِ هذا الرباط الذي كان معروفاً في القرن التاسع الهجريّ برباط السبيل – كانت تقع دار خالد بن الوليد التي اشتكى إلى النبيّ

---

١ أزيلت هذه الدار في توسعة الشارع الشرقي للمسجد النبوي .

٢ معنى الرباط هنا اصطلاحي قديم أي منزل موقوف على الفقراء ابتغاء وجه الله تعالى .. والأصل في صيغة الرباط هو : مكان مرابطة الجند الإسلامي وهو الثغور البحرية لصد غزوات المعتدين من الغزاة . منه كان أخذ اسم مدينة الرباط بالمغرب .

صلى الله عليه وسلم من شدة ضيقها ، فقال له : « ارْفَعِ البِنَاءَ في السَّماءِ وسَلِ اللهَ السَّعَةَ » .

وفي رأينا أن القُبَّةَ الصغيرةَ ، المبنيةَ بالطوب والطين ، الواقعة بمقدم الرباط مُلاصِقَةً لزاوية السمان — هي بموضع دار خالد بن الوليد ، لانطباق الوصف المَرْوِيّ بشأن ضيق الدار المذكورة على هذه القبة ، فمُحيطُها صغير ، وهي بمقدم الرباط .

ورباط خالد بن الوليد كما يُسَمَّى قبل إزالته وقف من أوقاف طائفة الأغوات [1] وقد هدم أعاليَهُ فخري باشا [2] إبان الحرب العالمية الأولى ما عدا القبة المشار إليها آنفاً فقد حفظت من عادية الهدم ، ثم أزيل أخيراً في مشروع توسعة المسجد النبويّ السعودية .

وبمُؤخَّرِ هذا الرباط كانت تقع دارُ عمْرِو بن العاص فاتِح مصر وبطل اجنادين .

أمَّا انتقال دار خالد هذه من المِلْكِيَّةِ إلى الوقفية فقد تم لأول مرة في عهد صاحبها إذ قد رَوَى الواقديّ أنه كان حَبَّسَها (أي وقفها) فلا تباع ولا تُوهَب ، ثم انتقلت لأولاده . وبانقراضهم انتقلت لأيّوب ابنِ سلمة ، بطريق الإرث ، ولذريته من بعده .

وفي أوائل القرن الثاني عشر الهجريّ كانت قِسْماً من هذا الرباط المنسوب لصاحبها الأول: خالد بن الوليد . والرِّباطُ هو من أوقاف الأغوات منذ ذلك التاريخ إلى اليوم بموجب الحجة المخرجة من محكمة المدينة الشرعية بتاريخ ١١ ربيع الثاني سنة ١١١١ هـ .

---

١ الأغوات هنا هم طائفة خدام المسجد النبوي من المجبوبين المستوردين أو الواردين أو المرسلين من خارج جزيرة العرب ، وفي الأغلب من أرض الحبشة والسودان ولهؤلاء زي معروف خاص بهم .

٢ فخري باشا اسمه الكامل : عمر فخري باشا آخر حاكم للمدينة المنورة في عهد آل عثمان الأخير .

(٩)

دار مروان بن الحكم

لمروان بن الحكم أمير المدينة في أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجريّ صفحةٌ ناصعةٌ في عُمْرانِ المدينة ، فهو مُبَلِّطُ أطراف المسجد النبويّ بالحجارة . وهو مُجْري عينِ الأزرق أو العين الزرقاء . وباني هذه الدار الفخمة التي ظلت بعده (مَقَرّ) أمراءِ المدينةِ إلى أمد مجهولٍ لدينا تاريخهُ الآن .

كانت دار مروان في موضع المدرسة البَشيريّة [1] الملاصقة للمسجد النبويّ قبل إزالتها من جهته الجنوبية الغربية شرقيّ باب السلام . وقد سبق أن سُمّيَ هذا الباب من أبواب المسجد النبويّ بباب مروان لملاصقةِ دارِهِ هذه ، له ، وكان في موضع المدرسة البشيريّة (مِيضَأةُ قلاوونَ) التي أنشأها بموضع دار مروان ، سنة ٦٨٦ هـ .

إذن فدار مروان إنما اعتورها طيلة ثلاثة عشر قرناً تَغَيّرانِ ليس غير .

---

١ هدمت هذه المدرسة وأدخل بعض أرضها في الشارع الجديد جنوبي المسجد وأدخل بعض أرضها الآخر في بناء المحكمة الشرعية الكبرى الحالي وذلك أثناء التوسعة السعودية للمسجد النبوي .

قسم القصور

تمهيد

ما أكثر القصورَ التي شُيِّدَتْ بالمدينة المنورة وضواحيها في سالف الأزمان وما أقلَّ الباقيَ منها إلى اليوم .. فالقصرُ الوحيدُ الذي ما زالت أطلاله شاخصة للعيان دون سواه — هو قصر سعيد بن العاص .

وفيما يلي وَصْفٌ لهذا القصر الأثريّ العتيق :

(١)

قصر سعيد بن العاص

وصفه

يقوم هذا القصر[١] في وسط العرصة الصغرى من العقيق ، وبشرقيه على مسافة قريبة منه بستان . وطوله نحو ٣٦ متراً ، وعرضه نحو ٢٧ متراً وارتفاع أطلاله الباقية نحو ٩ أمتار ، وسمك جدرانه ٧٦ سنتمتراً وطوله وعرضه المذكوران إنما هما بِضَمّ الأقسام المتساقطة منه إليه . وبناؤه بالحجارة المتوسطة الحجم وبالجص . وحجارته غير منحوتة ، ولا أثر فيها للكتابة وإنما توجد في بعض أروقته ونوافذه نقوش على الجص وزخرفة بالطوب المُجَصّصِ ، وقد عبث البَدْوُ بناحيته الجنوبية الشرقية إذ استحدثوا بها بناء مسقفاً لإيواءِ حيوانهم .

والقصرُ مطليّ بالجص من داخله وخارجه . ولمتانة بنائه وتجصيصه

---

١ هذا القصر لا تزال أطلاله شاخصة للعيان في وادي العقيق وقد أدخل في حوش القصر الملكي المشيد هنالك والذي حول فيما بعد إلى دار الضيافة .

بالصفة المذكورة تأثير كبير في بقائه إلى هذا اليوم ، مع اندثار ما بالعقيق من سائر القصور .

وفي جنوب القصر مصطبة (دَكّةٌ) متداعية لعلها كانت مُعَدّةً للجلوس والسمر ، في ليالي القمر . وفي العشيات والبُكَر [1] .



طلل قصر سعيد بن العاص

وبمقربة منه جنوباً وشَمَالاً تُرى سلسلةَ أكوام يعلوها رمل الوادي الأحمر ، وهي آثارُ دُورٍ ، قد تكون الدّورَ المسماةَ بالقرائن التي كانت لبني سعيد على ما رواه صاحب الأغاني .

---

١ يبدو ان بناء مثل هذه المصطبة بفناء القصور في العهد الأموي كان طرازاً تقليدياً متبعاً في عمارة القصور المماثلة . ونحن نرى مثل هذه المصطبة شاخصة، حتى اليوم ، للمتأمل في الجنوب الشرقي لقصر عاصم بن عمر بن عثمان بن عفان .

جهته بالنسبة للمدينة ومسافة بُعْدِهِ عنها وطريقُه منها

يقع القصرُ في ضاحية المدينة الشمالية الغربية ، ويبعد عنها نحو ساعة بالسير المتوسط[1] . والطريق الموصل منها إليه هو هذا :

البابُ الشاميّ — ثنيةُ الوداع — طريقُ بئر رُومَة — عطفةٌ إلى الغرب — طريقُ القصر — القصرُ .

نبذةٌ من تاريخه

جاء في «وفاء الوفا» للسمهوديّ : « ابتنى سعيدٌ بالعَرْصَةِ قَصْراً في سُرَّتِها » وفيه : « أنّ القصر بالعرصة الصغرى » . وفي « مرآة الحرمين » إيضاحٌ لموقع هذه العَرْصَة إذ ورد فيها ما تلخيصه : « القسم المقارب للمدينة من العقيق الغربيّ يُسمى « العقيق الكبير » وفيه بئر عُرْوَةَ . والقسمُ الشماليّ يسمى « العقيق الصغير » وفيه بئر رُومَة . وبهذا العقيق الصغير عَرْصَتانِ : « كبرى » وهي التي تَلي بئر رومة ، وصغرى تقع جنوبي الكبرى » .

وسعيدٌ باني هذا القصر هو أحد أمراء المدينة في خلافة معاوية رضي الله عنه ، وهو من مشاهير أجواد بني أمية ، وقد كان مُعْجَباً بقصره هذا كلَ الإعجاب ، ولذا خصصه للنزهة ، مما يدلنا على مبلغ عنايته بتشييده وتأنيقه .

---

١ حين ألف وطبع هذا الكتاب لأول مرة بسنة ١٣٥٣ هـ — ١٩٣٥ م لم تكن السيارات متوافرة بالمدينة ، لذلك قاس المؤلف المسافات بسير الأقدام العادي وهو قياس تقريبي ونسبي .

قال البتنونيّ في رحلته : « وكان هذا القصر في أيام صاحبه آيةً في جماله وفخامته ، بل كان آيةً من آيات القرن الأول الهجريّ وأعجوبةً من أعاجيبه ، حتى فَضّلهُ الشاعرُ على أبواب جَيْرُون (دمشق) التي كانت في ذلك العهد عاصِمةَ الخلافة ، ومكان فخامتها وأبّهتِها » .

والشاعر الذي يشير إليه البتنوني هو أبو قَطِيفَةَ إذ يقول :

القَصرُ فالنّخلُ فالجَمّاءُ بينَهُما   أشْهى إلى النّفْسِ من أبوابِ جَيرُونِ

(٢)

قصر عاصم وسده

١ – السَّدّ

بدأتُ بالسد[1] لبقاء أطلاله حتى اليوم. وقد أقيمَ هذا السَّدّ كسائر السدود القديمة في هذه البلاد . ليمنع فيضان المياه عقب هطول الأمطار الغزيرة إلى الخلاء أو إلى المنازل ، وليحجزَ الماءَ فيه لسقيا صاحب القصر ، وربما لمن كانوا بجواره ، وربما لحديقتِه ، وحدائقهم ، بقرب بطن وادي العقيق إذا كانوا أصحاب حدائق .

وهذا السَّدّ مَبْنيٌّ بحجر أسود غير منحوت (دبش) . وهـو مُجَصَّصٌ وسميك يبلغ سمكه نحو مترين ونصف المتر . وطوله نحو ٣٦ متراً . وتعريض الجُدْران كان طرازاً تقليدياً آنذاك . وقد أقيمَ السَّدّ بين فَتْحَتَيْ جبل تُضارُع المنفرجتين ، ليستقبل ما يهبط أثناء

---

١ لقصر عاصم هذا ذكر في الفصل المعقود لأودية المدينة المنورة ص ٢٢٣ وقد أفردنا له هذا الفصل ورسمنا له وللسدخريطة تقريبية للتعريف بهما كأنموذجين لقصور ذلك العهد وسدوده وقصر عاصم يشبه زميله الذي سبقه في البناء والتقسيمات .

الأمطار وبعدها من مياه متدفقة . وليحتفظ بها أطول مدة ممكنة .. ولا بد أنّ للسّدّ فَتْحَةً أزالها كَرّ السنين . وما تبقى من أطلاله متهرىء وإن كان شاخصاً للعيان كما كان . وهو مستقيم يمتد من ناحية الجنوب إلى الشمال ، ويليه إلى جِهَةِ الجبلِ : الجهة القريبةِ من السد — أساس مبنيٌ لا أدري هل كان دَكّةً أو مُنْزَلَقاً لمياه الأمطار أو غير ذلك . وأرَجّحُ أنّه كان دَكّةً للسّمَر ، كدكّةِ قصرِ سعيد بن العاص . وما تبَقّى أو ما هو ظاهر — على أدقّ تعبير — من هذا المبْنَى يتمثل في أسُسِ ثلاثةِ جُدْرانٍ وقد بُنِيَتْ هذه الأسُسُ بالحجارة السّود غير المنحوتة المأخوذة من الجبل ذاته ، وبالجصّ . وأحَدُ هذه الجدران يتجه من الشرق إلى الغرب ، والآخر من الجَنوب إلى الشّمال . وهذا الجزء من السّدّ قد اخترقه السيلُ وأتلفه . أمّا الجدارُ الثالث فيتجه من الغرب إلى الشرق ويبدو شبه سليم .

وقد لاحظتُ في غرب السّدّ من حيث يأتيه السّيل المنحدر إليه من الجبل أنه قد مُهّدَ لهذا السّيل بمجْرىً له خاصّ ليسهل عليه النزول إلى السد ، أو ليصل إليه ماءُ المطر من الأعالي صافياً بقدر الإمكان . وبابُ مياه السد الذي تنحدر منه عند اللزوم لا بد أنه يقع في الناحية الجنوبية من السّدّ ، لأن ذلك أمر طبيعيّ بالنسبة لقصر عاصم .. وبالنسبة لهذا الأخْدُودِ الذي شقته السيول فيما بعدُ وحتى الآن، والذي ربما كان هو مجرى السيول القديم،ذلك لأنّ الجهة الشّمالية من السد لا يمكن أن ينحدر منها الماء لاعتلاء ما يليها إلى الجنوب .

وقد بقي هذا السد حتى يومنا هذا بهيكله العام يقارع السيول والزمن ، ويقاوم عوامل الطبيعة القاسية . ولا يبدو لي أنهُ رمم كثيراً عَقِبَ أو بَعْدَ عهدِ ازدهار العقيق — مما يدلنا على متانة بنائه ، ودقة هندسته ... ويتراءى لي أنه لو أعيد تعميره بِشَدّ أجزائه المتآكلة إلى بعضٍ بجص أو

بإسمنت لكانت من ذلك فائدة طيبة في الاحتفاظ بكثير من المياه التي تهبط من هذه الجبال . في مواسم الامطار .. وهذه الفائــدة هي التي توخاها مَن بنَاه .

هذا وقد أخذْتُ لهذا السّدّ بعض الصّور . كما صورتُ في الوقت ذاته بيوم ٩ ذي الحجة ١٣٨٧ هـ — ١٩٦٨ م جبَلَ تُضَارُعَ الذي يُشْرِف على السّد . والذي تهبط مياه الأمطار منه إليه .

٢ — القصر

بعد أنْ فرَغْتُ من دراسة السّدّ الْعَاصِمِيّ . وأخْذِ صُوَرِهِ ، اتجهتُ إلى قصر عاصِم بن عمْرو بن عمر بن عثمان بن عفان صاحب السد المجاور له من كَثَب ، وقُمْتُ بدراسة ما تبقى من أطلال أسُسِ هذا القصر ، وَوضعِ بنائه ، وزمن بنائه ، وشيءٍ من تاريخه وطراز بنائه .

يقوم القصر إلى ناحية الجنوب ببعض انحرافٍ إلى الشّمال بالنسبة للسد وبينهما نحو ٨٠ متراً .

أما طُولُ بناءِ القصر **فهو نحو ثلاثين متراً** . وعرضه نحو ثلاثين متراً أيضاً . فهو مربع تماماً وطِرَازُ تقسيماته عربيّ عاديّ غُرَفٌ متجاورة ما بينْ صغيرة وكبيرة ، وما يبدو لي أنه مطبخ أو غرفة الخدم . وهناك دَكّةٌ للسمر لا تزال أطلالُها ماثِلةً للعيان ، وهي مربعة الشّكْلِ تقريباً وعالية عن الأرض حتى اليوم ، وهي مماثلةُ لِدَكّةِ قصر سعيد بن العاص في الوضع والشكل والموضع . فكلتاهما تَقعُ في جنوب القصر العائدة إليه . وأمامَ دكة قصر عاصم ما يشبه غرفتين . وبجانب هاتين الغرفتين رَبْوَة مستديرة يُخَيّلُ إليّ أنها طَلَلٌ باقٍ من مبنىً ، لعله كان ملحقاً بالقصر كإصْطَبْلٍ للخيل وما أشبه ..

أما البابُ أيْ بابُ القصر على ما يتراءى لي ، فهو واقع في ناحية الشّمال منه ، ليكون بِمَنْأىً عن مجرى السيل الواقع في جنوب القصر . ويسترعي النّظَرَ أنّ غُرَفَ القصر غير متساوية في المساحة .. بَعْضُها كبير مستطيل ، وبعضُها صغير مربّع . لقد بُنِيَتْ حسب حاجة صاحب القصر ، وجدار كل غرف القصر الواقعة في غربيّه هو سور القصرِ نفسه .. وأما الغُرَفُ القائمة بناحية الشّمالِ والْجَنُوبِ والشّرق فجُدْرانُها منفصلة تماماً عن سُورِ القصر الذي لا تزال أطلاله شاخصة للعيان بشكل واضح . وآيةُ وجودِ هذا الحائط المحيط بسائر أجزاء القصر هي بقايا أطلاله المركومة فوق بعض، والمنهارة،محيطة بسائر أجزاء القصر من كل ناحية .

وقد أجْرَيْتُ بُحُوثاً ودراساتٍ على الطبيعة في ناحية ما سَمّيْتُهُ المطبخ ، آملاً في أنْ أجِدَ بعض قطع من الأدوات التي كانت تُستعمل في القصر ، لأن المطبخ دائماً هو محل استهلاك الأدوات المنزلية القابلة بقاياها للبقاء والإلقاء إلى خارجِه ، مثل قُلَلِ الماء وكؤوسه وأزْيارِه وأواني الزّجاجِ والْفَخّار وما أشبه .. وفعلاً بعد البحث وَجَدْتُ أشياء من كل هذا بخارج القصر .. فهذه قطعةُ زُجاجَة (إسلاميةٌ) زَرْقاءُ اللّون باهتة بفعل القرون .. وهذه قطعةُ زُجاجةٍ أخرى بيضاء من زجاج أبيض شفيف باهتٍ بفعل مئات السنين .. وهذه قطعةُ الزجاجة الثالثة وَجَدْتُ عليها صُورَةَ نَجْمَة إخالُها خُماسيّةً ، وهذه قِطَعٌ مكسرة واضحة المعالم من بقايا الأزيار والقُلَلِ الملقاة بجانب المطبخ ، وهي ملونة ، وغير ملونة .

وهذه قطع زرق مصبوغة بصبغ ثابت وربما تكون من بعض زهريات الزينة في القصر .. ثم أخذتُ صورة لكل من السد والقصر .. في جميع أبعادها ، كما أخذتُ صورة من زوايا متعددة لجبل جماء تضارع الذي

بُنِيَ كل من السّدّ والقصر في سفحه الشرقي على ما رواه مؤرخو المدينة المنورة وما لا يزال مشاهداً كذلك .

وقصرُ عاصم في تقسيماته الداخلية والخارجية مثل قصر سعيد بن العاص فقد بُنيا في هذه المنطقة في عصر متقارب وفي أفياء الدولة الأموية ، وكلاهما أمويان .. والقصران معاً يعطياننا فكرة محددة عن طراز بناءِ قصور ذلك العهد بصفة عامة وعن طراز بناء قصور العقيق في عهدهما بصفة خاصة . ومن أجل إثبات هذه النظرية عُنيتُ بوضع المخطط التقريبي لهذا القصر . ولا يخرج قصر سعيد بن العاص عن مخطط بناء قصر عاصم .

كما أن بناء السّدّ العاصمي يعطينا أيضاً أنموذجاً واقعياً منظوراً لهندسة السدود التي كانت تُبْنَى إذ ذاك لتحفظ أكبر كميات من المطر النازل من الأعالي في أطول مدة ممكنة للاستعمال المنزليّ ، وللاستعمال الزراعيّ معاً في ذلك الظرف . ومن أجل هذا كله صَوّرْتُ السّدّ في مختلف أنحائه .. وصَوّرْتُ ما حوله أيضاً ليكون المُصَوّرُ مِثالاً مُشَاهَداً لهندسة بناء السدود في تلك الحقبة من الدهر .

ولأثريّة جماءِ تُضَارُعَ الشاخصة على العقيق من هذه الناحيةِ عُنيتُ برسمها أيضاً هنا تكملة لإطار الصورة الشاملة للقصر والسد وموقعهما . ثم اكتفيت بنشر المخطط التقريبي للقصر والسد وجماء تضارع .

أمّا وقد انتهينا من شرح ما قمنا به إزاء هذا الأثر النموذجي الذي هو قصر عاصم بن عَمْرو بن عُمَرَ بن عثمان بن عفان ، فلا بأس من الاستئناس بما أورده مؤرخو المدينة المنورة عن هذا القصر وصاحبه :

يُعَرّفنا التاريخ بأن قصر عاصم هذا كان معروفاً ومشهوراً في وقته فقد نَصّ السمهوديّ في كتابه (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) على أنه : في قُبُلِ الجَمّاء : (تُضَارُعَ) المشرفةِ على قصر عروة ، وعلى

وادي العقيق . وأنّه يواجه بئر عروة بن الزبير كما أفادنا بأن جماء تضارع تسيل على قصر عاصم وعلى بئر عروة .. وهذا نص صريح على أن السّيْلَ الهابط من جبل جمّاء تضارع يسيل على قصر عاصم كما نراه مُشاهَداً اليوم . ولربما كان ذلك بتعديل خفيف .

فهنا إلى جنوب القصر غير بعيد عنه الأخْدُودُ الذي أحدثه تكرار مرور السيل عَبْرَ القرون الحوالي بهذا المكان القريب جدّاً من القصر ..

كما حدّثنا السّمهوديّ بأن سيل هذه الجماء . كما يسيل على قصر عاصم يسيل على بئر عروة بن الزبير . وهذه فائدة تاريخية وأثرية وعُمْرانية كذلك .

* * *

وقد تعرض هذا القصر لهجاء بعض شعراء المدينة وَنَقْدِهِمْ في حياة صاحبه وبانيه . وتدلنا الأبيات التي تَعَاوَنَ على نظمها عبدُ الله الجعفريّ وعمرُ بن عبد الله بن عروة على أن هذا القصر كان بناؤه في مكان يضايق مرور الناس على طرف من الطريق العام حينذاك . كما تدلنا تلك الأبيات على أن القصر كان مُشْرِفاً وعالياً وواضحاً وغير خَفِيّ . كما يدلنا ذلك الشعرُ على أن صاحبَ القصر — عاصماً — لم يكن من مشاهير الأجواد . على غناه ، وثروته ، وعلى مكانته الاجتماعية . وهذا مع أن القصر كان دائماً محل طَهْيٍ وطَبْخٍ وشِوَاءٍ خاص ؛ وربما لم يكن يتجاوز تَنَاوُلُ ما يُطْهى به من أنواعْ المأكولاتْ الشهية واللحوم الطازجة صَاحِبَ القصر وعيَالَهُ وصَحْبَهُ الخاصّينَ دون سواهم . فهو — أي عاصم — مُنْطَوٍ في قصره على نفسه وعياله وصَدِيقِهِ .. ويُقَدّمُ لنا ذلك الشعرُ نَصّاً مُهِمّاً حيال موضع إقامة هذا القصر .. فهو مَشِيدٌ على مكان حَزْنٍ من الحجارة . ولم يُبْنَ على مكان سَهْلٍ لَيّنٍ .. كما تدلنا الأبيات على

أن القصر لم يُبْنَ لأوّل عهده بالحجارة والجص .. شأنَ روائع قصور العقيق .. بل بُني بالطين .. لأوّل مرة ، مما يدلنا على الروح الاقتصادية المسيطرة على صاحبه حتى فيما يتباهى برونقة أقرَانُهُ ... ثم إن صاحب القصر اضطُرّ من أجل إصلاح مَعَالِمِه وتحسين منظره في أنظار المجتمع حينئذ إلى شراء « قَصَّة » فَطَرّهُ بها . وقد غرم في ذلك أَلْفَيْ دِرْهَمٍ .. وفيما يلي أبياتُ هجاءِ القصر أو نقده ونقد بانيه . وقد نظمها الشاعران السّريّان : عبد الله الجعفري ، وعُمَر بنُ عبد الله بن عروة .. ويلاحظُ أن الأخير هو حفيد عروة بن الزبير .. فلا بد أن عامل التنافس كان له أثره في نظم هذا الهجاء أو النقد التحليلي المؤثّر لقصر عاصمٍ ، ولعاصمٍ نفسه . قال الشاعران :

ألا يَا قَصْرَ عَاصِمَ لَوْ تُبِينُ ... فَتَسْتَعْدِي أَمِيرَ الْمُؤمِنِينِ
فَتَذْكُرَ مَا لَقِيتَ مِنَ الْبَلَايا ... فَقَدْ لاقَيْتَ حُزْناً بَعْدَ حِينِ
بُنِيتَ عَلَى طَرِيقِ النَّاسِ طُرّاً ... يَسُبُّكَ كُلُّ ذِي حَسَبٍ ودِينِ
وَلَمْ تُوضَعْ عَلَى غَمْضٍ فتخفى ... وَلَمْ توضَعْ عَلَى سهْلٍ وَلِينِ
يُرَى فِيهِ الدّخَانُ لِغَيْرِ شَيءٍ ... فَقَدْ سُوِّيتَ خَدّاعَ الْعُيُونِ
قَبِيحُ الوَجْهِ مُنْعَقِدُ الأواسِي ... خَبِيثُ الْخَلْقِ مَطْرُورٌ بِطِينِ

ويتراءى لي أن المنافسة الاجتماعية في رفعة البناء وفي الكرم كانت شديدة وقتئذ بين أصحاب قصور العقيق عامّة وبخاصة بين أصحاب قَصْرَ عاصم وسَدّه . وأصحاب قصر عروة وبئره .. ولذلك نرى عاصماً لا يستطيع أن يكبت ألَمَهُ أو يَحْتَجِن [1] همه ، مما ناله في هجاء قصره المنيف أو نقدِه ، من مكروه ومن سوء السمعة وغَمْطِ الحقوق ونُكْران المزايا ..

---

[1] من معاني « احتجن » لغة : ضم واحتوى .

ولا غرو أن نرى عاصماً إذَنْ يتصدى بشعره للدفاع عن قصره العالي بين قصور العقيق ، فيما يتعلق باختيار موقعه بالنسبة لمواقع القصور التي كانت تُبْنَى في جنبات العقيق ، وبأعْلَى قِمِم جباله ، أو على أرضه القَرار ، كما فعل صاحبُ قصرِ عاصم بقصره حينما اختار لإقامته مكاناً سوياً شتوياً في غير ذُرَى الجبال المرهقة لقاصد قصورها ، وللمقيم فيها في كل من الطلوع والهبوط . وقد افتخر عاصم بقصره على قصورِ معاصريه ومنافسيه ، بوادي العقيق وجَنَبَاته — بأنّ قصره كان شامخاً وعالياً بخلاف القصور الأخرى ، فهي إما واطئة أو قائمة على رؤوس الجبال ، بُعْداً بِهِمَا عن مراكز اقتناص المجد بالكرم وبذل الضيافة السخية للوافدين والطارقين معاً .

فقصره لقربه من الناس في مَقَارِّهِمْ وفي غدواتهم ورَوَحاتِهم مع سعته وعلوه هو مثابة كرم وفير منه للقاصدين والوافدين ، يطعمون في أبهائه ما لذّ وطاب ، ويبيتون في غُرَفِهِ الواسعة خير مبيت ، بخلاف قصور أولئك المنافسين غير الكرماء . وبهذا دحض عاصمٌ — شِعْراً — ما رماه به الشاعران من البخل وما نَقَدَا به قصره ، من سوء الموقع ، وقصدِ البُعْدِ به عن منازل الكرم والضيافة ...

قال عاصم يدافع عن نفسه وعن قصرِه ، ويمدحه ويبرز فضائله ومزاياه الجَمّةَ على غيره من القصور المجاورة المعاصرة :

بَنَوْا وَبَنَيْتُ واتّخذوا قُصُوراً ... فَمَا سَاوَوْا بذَلِكَ ما بَنَيْتُ
بَنَيْتُ عَلَى الْقَرَارِ وَجَانَبُوهُ ... إلى رَأسِ الشّوَاهِقِ وَاسْتَوَيْتُ
عَلَى أفْعَالِهِمْ وعَلَى بُنَاهُمْ ... عَلَوْتُ وكانَ مجداً قَدْ حَوَيْتُ

ويشعر القارىء بحرارة العاطفة وصدق الشعور في هذه الأبيات الثلاثة الدفاعية المنسجمة. وقد أمعن عاصم وابنه (زيد) في إبراز مزايا قصرهم



قصر عاصم وسده « خريطة تقريبية »

الاقتصادية والذاتية والكرمية . على ما عداه من سائر قصور العقيق في قوله :

وَتِلْكَ صَلاَصِلٌ قَدْ فَلَسْتَهُمْ وَذَلِكَ وَدْيُهُمْ[1] فيهَا يَمُوتُ
فَلَيْسَ لِعَامِلٍ فِيهَا طَعَامٌ وَلَيْسَ لِضَيْفِهِمْ فيهَا مَبِيتُ

وصَلاَصِلُ أرضٌ كانت لِعُرْوَةَ بِحَرَّةِ وادي بُطْحَانَ[2] ، ثم آلت لابنه (يحيى) فوقفها في بنيه . وكان يقال لها (المقتربة) ويدلنا بيتٌ لأبي معروف أخي بني عمرو بن تميم على أنها كانت في واد قال :

إلى وَادِي صَلاَصِلَ فَالمُصَلّى إلى أكْنَافِ عِذْقٍ ذِي وَشِيعِ

هذا وكان لأرض صَلاصِلَ هذه مزايا في نظر عروة بن الزبير ، ولم تكن ذات أية مزايا في نظر عاصم بعده . ولعل عامل التنافس على المَجْدِ يؤدّي إلى اختلاف وجهات النظر بين عاصم وورثة صلاصل في مثل هذه الأمور ..

يشيدُ عروة بمزايا صَلاَصِلَ التي هجاها عاصم فيما بعد ، فيقول :

مَآثِرُ أخْوَالي عَدِيٍّ وَمَازِنٍ تَخَيَّرْتُها وَاللهُ يُعْطِي الرَّغائبا
فمن قال فيها قيل صدقٍ فلم يقُلْ ومن قال فيها غيره كان كاذبا

وإذنْ فصَلاصِلُ هذه كانت موضع مناقشة مادية مستفيضة ، في ذلك العصر فيما يتعلق بمزاياها الانتاجية وضدها .. صاحبُها عروةُ يمدحُها ويفتخر بها ويعتز ويرى أنها من الذخائر لأنه تخيرها بنفسه بين الأرضين الخصبة .. وعاصم يذمها كل الذم ويرى أنها جلبت الإفلاس لأصحابها ...

فتلك (وديهم) أي بنات نخلهم (تموت) فيها إما لقلة الماء ، وإما

---

١ الودي : صغار النخل .
٢ وفاء الوفا ج ٢ ص ٣٣٦ .

لأنّ أرضها سبخة مجدبة .

هذا وقد تكون « صلاصل » أيام اشتراها عروة بن الزبير قد عانى في استصلاحها وغَرْسِ مُلائمِ النخيل بها . فبدت جيّدةَ التربة وفيرة الإنتاج فيما يُغْرَسُ فيها من نخيل وأشجار فاكهة ، ثم ساءت حالتها وقلّتْ غلّتُها بعض الشيء أو كله بعد وفاة هذا المزارع الكبير الماهِدِ ، وفي أيام أحفاده بسبب الإهمال أو لقلة المال فكانت على بعض ما وصفها به عاصم في زمنه المتأخر عن زمن مُنْشِئِها : عروة بن الزبير .

ويدلنا على أن لعاصم بعض الحق في وصفه لِصَلاصِل عُرْوَةِ المغلقة في نظره بالملوحة وقلة الغَنَاء ، ما رواه السّمهوديّ من أنّ ابن أبي البداح (وكان أعلم الناس بالنخيل) مرّ على عروة وهو يغرسُ أرض صلاصل هذه « ألواناً » فقال له :

« إن كنت ولا بد غارساً فعليك بِعِذْقِ ابْنِ عامرٍ فإنه ليس عذْقٌ أحسن للتنزه ولا أصبرَ على المالح منه » [1] .

---

[1] وفاء الوفا للسمهودي ج ٢ ص ١٩٥ و ١٩٦ طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣٢٦ هـ .

قسم الحصون والآطام

تمهيد

فيما قُبَيْلَ الإسلام كان سكّان المدينة يتنافسون في بناء الحصون وتشييد الآطام . وهدفُهُمْ من ذلك هو الالتجاء إلى هذا النوع من البناء العاصم لهم من مخاطرِ هُجُوم أعدائهم ، إذا نَشِبَتْ حَرْبٌ أهلية أو قَبَلِيَّةٌ بين مختلف الطوائف كما هو دائم الحصول في أيام الجاهلية .

والآطامُ . وإن تكن من نوع الحصون بالمعنى العامّ إلا أن لها وَضْعاً خاصاً في طراز العمارة ، فهي تُشَادُ بالحجارة المختلفة الأحجام يوضع فيما بينها حشو الطّين ، ولها مَسَاطبُ عالية تُشْرف على ما حولها ويتَنَزّه من فوقها . أما الحصون فبناؤها بالحجارة الضخمة الهائلة المربعة ولا حشو بينها وقد تكونُ الآبار بداخلها . هذا ما استنتجناه من واقع الحصن والأطم العتيقة الشاخصة أطْلالُها . إلى اليوم .

وكان المُرَجّى أن تُبْقِيَ لنا يدُ الأيام طائفة من الحصون والآطام الكثيرة ، ولكنها لم تبق سوى ثلاثة هي : حصن كعبِ بن الأشرف ، وأطمُ الضحيان . وأطمُ أبي دُجَانة بن سِمَاك. وفيما يلي وصف حصن كعب بن الأشرف فأطم الضحيان ، فأطم أبي دجانة :

(١)

حصن كعب بن الأشرف النبهاني(١)

وصفه . تحقيق عنه . عقبة علمية وحلها . جهته بالنسبة للمدينة . مسافة بعده عنها . طريقه منها .

وصفه

يقوم على هضبة من الحَرّةِ الجنوبية الشرقية للمدينة وطوله ٣٣ متراً في عرض ٣٣ متراً . وارتفاع ما بقي من جدرانه ٤ أمتار وسُمْكُها متر ، وله باب واحد في الجهة الغربية وثمانية أبراج ضخام بناؤها من حجارة ضخمة ملتصقٍ بعضُها ببعض مباشرة ، وطولُ بعضِها ١٤٠ سنتمتراً وعرضُها ٨٠ سنتمتراً وسُمْكُها ٤٠ سنتمتراً . ولا أثر فيه للنقوش ولا للزخرفة — بناء حربيٌ محض . وبوسطِه رحبة واسعة مربعة تبلغ مساحتها ألف متر مربع . وهي غير مرصوفة ولا مُبَلّطة .

---

١ ليس كعب بن الأشرف يهودي النسب ولكنه عربي نبهاني طائي مستخول في بني النضير وكانت له منزلة عالية بينهم لما لأخواله من المكانة في اليهود ، كما أن له منزلة بين العرب .. لذلك ولشعره . وبهذا الشعر طالما ألب المشركين على محاربة المسلمين وطالما ولغ في أعراض المسلمين بشعره فكفاً لإذايته بهذا العمل لله ولرسوله وللمؤمنين دعا النبي صلىاللهعليهوسلم بعض الصحابة لقتله ، فبادر بعضهم لتنفيذ رغبته العالية ، فذهبوا إليه في حصنه ليلاً واحتالوا عليه حتى أخرجوه وذهبوا به إلى شرقي المدينة فقتلوه هناك .

فالصخور الحَرّيّة ناتئة فيها وبينها انخفاضات وارتفاعات . وبجوانب الحصن من الداخل ١٠ غرف مختلفة الأقيسة ، وأعاليه مهدمة. ولما جاء في كتب التفسير والحديث والسِّيرةِ من كون بني النضير لَمّا غُلبوا في محاصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لهم ، واستسلموا عام ٣ أو ٤ هـ وحصل الاتفاق على إجلائهم من المدينة مع حمل ما يستطيعون حمله من أمتعتهم غير السلاح ، ومن ذلك أخشابُ سُقوف حُصُونهم ونجفُ أبوابها الجميلة المزخرفة – نقول : نظراً لما ذكرَ نرى أن سقوف هذا الحصن وعُقودَهُ خربت من ذلك العهد ، ونُقِلَتْ أخشابُها فيما نُقِلَ يومئذ .

ويُعْطينا هذا الحصن الهائل ذو الحجارة الكبار السّود ، والأبراجِ العظيمة – يُعْطينا صورةً ناطقة عن كيفية بناءِ الحصون هنا قُبيْل الإسلام .

تَحْقيقٌ عنه

بَقيَ علينا : هل هوَذا حِصْنُ كعب بن الأشرف بعينه أم هو حصن آخر ؟ وقبل الإجابة عن هذا السؤال أمَهّدُ للقارىء بما رواه المؤرخون عن موقع الحصن ومنازل بني النضير التي هو من جملتها ..

في « وفاء الوفا » أنه لما هتف أبو نائلة بكعب بن الأشرف ، وهو في حصنه ببني النّضير ليلة قتله ، نَزَلَ له .

وفي سيرة ابن هشام والكامل لابن الأثير ذِكرٌ لِحصنِ كعبٍ ، ولكن بدون تعرّضٍ منهما لموقعه .

بَحَثْتُ عن منازل بني النّضر التي فيها الحصنُ فعثرتُ في « وفاء الوفا » و « مجلة الزهراء » على أنها تقع بِحَرّةِ زُهْرَةَ : « الحرةِ التي بطرف العالية » وبأطراف وادي مُذَيْنيبٍ . وبالنّواعمِ وما والاها

إلى الحرّة .. وفي هذا الصدد يحكي السمهودي مُشاهَدَاتِه فيقول : « ورأيتُ بالحَرَّةِ في شرقيّ النواعمِ آثارَ حُصُونٍ وقَرْيَةٍ بقرب مذينيب يظهر أنها من جملة منازلهم » أي منازل بني النضير .

بعد هذا التمهيد أقول : إنّ ما قُمْتُ به من بَحْثٍ وتتبّعٍ عَمَليّ عَقِبَ البحث العلمي الآنِفِ ذِكْرُهُ أكّدَ في نظري تأكيداً جازماً أنّ الحصن الموصوف هو حصن كعب بن الأشرف بعينه .. وإليك الدليل :

يقولُ المثلُ السائر : « أهْلُ مكّةَ أدْرَى بِشِعابها » . ولذا اهْتممتُ بالوصول إلى حقيقة هذا الحصن من طريق الاستخبار من أهل هذه القرية بالذات ثم المقارنة بين الخبر وما دونته كتب التاريخ . ثم التأمل والفَحص الشامل لكلا الاثنين ..

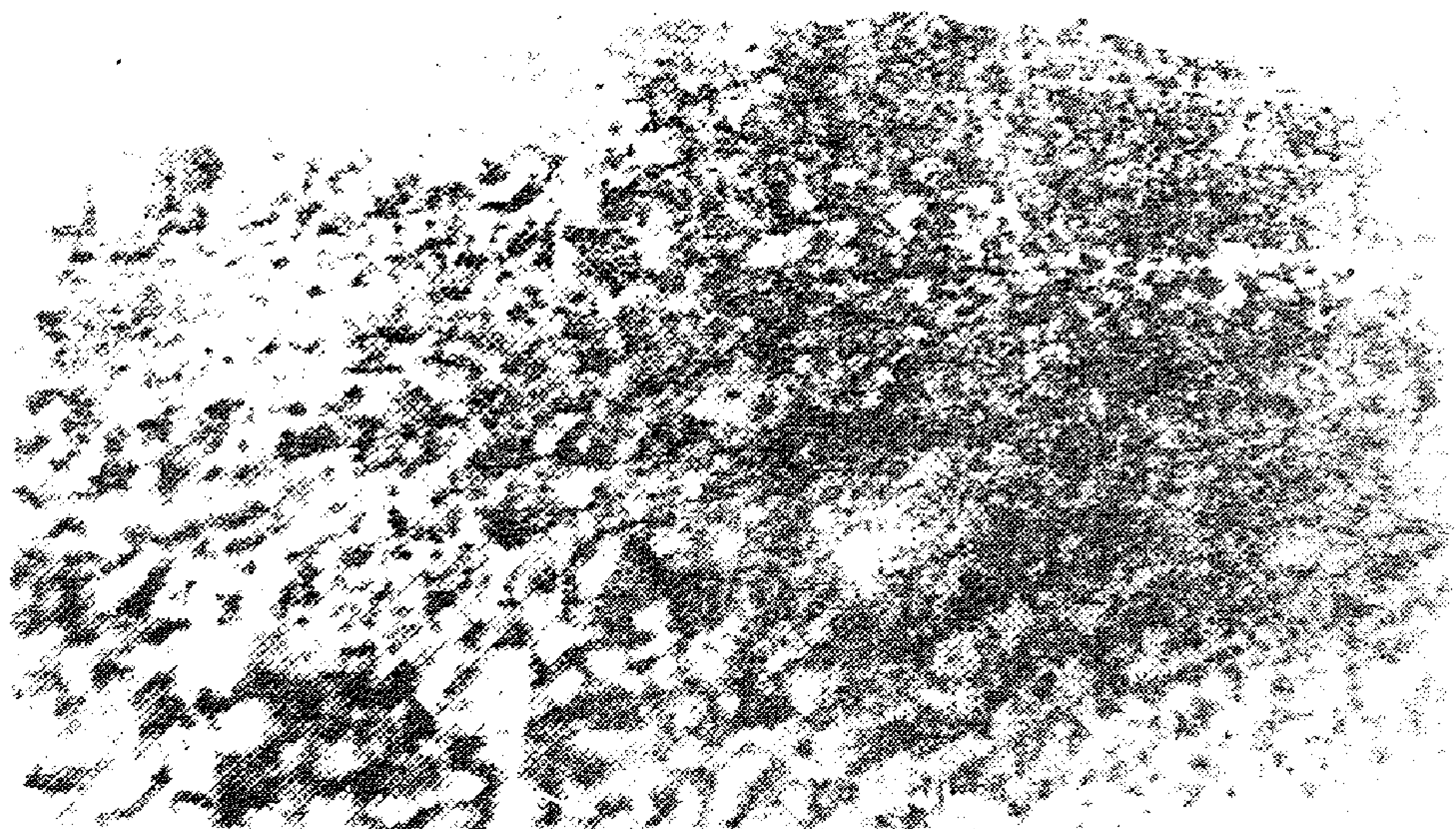
كان جوابُ أحدهم لمّا سألتُه عن الحصن ، ولِمَنْ هو في الأصل ؟ هذا حصن النّصارَى ! فبادر زميلٌ له بجانبه لتصحيح افادته ، وقال : هذا حصن النّصرانيّ ، وسكت ، وصَمَتّ أنا مفكراً في جَوَابَيْهِما المُتّحِدَيْنِ في المآل : حِصْنُ النصارى أو النصرانيّ .. عجيبٌ هذا القولُ ! وغريبٌ هذا الفهمُ ! فالنّصارى لم يستوطنوا هنا قط . فأنّى لهم بتشييد حِصْنٍ ضَخْمٍ كهذا ؟ ! إذَنْ لمن الحصن ؟ .. لا غرو أن البَدْوَ الأميين يجهلون الحقائق التاريخية ، وإنما مبلغهم من العلم أخْبارٌ وأساطير . وروايات يتلقفونها شَفَوِيّاً من آبائهم عن أجدادهم ، يتناقلونها خَلَفٌ من سلفٍ ويتطرق إليها التحريفُ والالتواءُ والتغيير .

وبالتالي فالبَدْوُ هنا لا يميزون بين اليهود والنصارى .. كُلّ ما سِوى المسلمين عندهم نصارى ، والنّصارى يهودُ ، واليهودُ نصارى ، وإذن ماذا استفدنا من قول الرجلين ؟

كلّ ما استفدناه منهما أنهما متفقان على أن الحصن قديم لغير المسلمين ..

وغَيّرُ المسلمين هنا قديماً هم اليهودُ . وكعبُ بن الأشرف وإن كان نبهانياً من بني طيىء فإنه بِحُكْم الخؤولة والجوار أصبح يعتبر واحداً من اليهود . هم يؤيدونه وهو يناصرهم .

لا بأس . هذه فائدة علمية لها أهميتها في الموضوع وإنْ تكن مبتورة فَلْنَمْضِ في بحثنا قُدُماً . فالحقيقة بنت البحث .



حصن كعب بن الأشرف

في أثناء ذهابي مرة أخرى للحصن عام ١٣٤٧ هـ صادَفْتُ رَجُلاً قَزماً بالقُربِ من الحصن ، اسمه عَلِيٌّ يعرفني بقدر ما أجهله . وله بستانٌ جميل في أمّ عُشَرٍ ، وهو من سكّان هذه الناحية . وعندما شاهدني مُقْبِلاً على الحصن نهض إليّ واستقبلني هاشّاً باشّاً مُرَحِّباً وقال : « أنت مقصدك أن تتفرج على الحصن ؟ » فقلت له : « نعم » فقال :

«تفضل ! هذا الحصن مِلْكُنا من قديمٍ وكان ...» وهنا قاطَعْتُه قائلاً : « إذَنْ لمن هو في الأصل ؟ » فأجابني بسرعة : « هذا هو حصن كعب ابن الأشرف » وتَقَدَّمني مُرْشداً ، وأراني مَواطنَ الخراب الحادث به من قِبَلِ فخري باشا ، فشكرتُه وهممتُ بالانصراف من عنده ، فأسرع إليّ يتابعني . ولما حاذينا باب بستانه أقسم لأدْخُلَنّه ولأقيلَنّ عنده بياض يومي . ولِظَمئي دخلتُ معه البستان. فلما شربت استأذنته في الانصراف معتذراً . فَقَبِلَ بعد إلحاح مِنّي .

عقَبَةٌ عِلْمِيّةٌ وَحلّها

بعد الوصول إلى النتائج السابقة قامت في ذهني عَقَبَةٌ علميّةٌ جديدة حالت دون اقتناعي تماماً بأن هذا هو حصن كعب بن الأشرف برغم قيام الدلائل الموضّحة سابقاً لذلك .

وتلك العقبةُ هي : أنه إذا كان هذا هو حِصْنَ كَعْبِ بن الأشرف وهو مُعَدّ للإقامةِ والحربِ والحصار ، فمِنْ أين يشرب سُكّانُه إذا نَفِدَ ما أتوا به من ماء من الخارج ؟ لا جرم من وجود بئر بداخله ، ليتحقق لنا أنه هو ، وإلاّ فَلاَ .. وفي فكري أني لم أعثر على بئر بداخله ، أثناءَ جولاتي في رَحَبَتِهِ وأنحائه الداخلية .

قد يقول قائل : كثير من الحصون لا آبار فيها .. فأقول له : نعم ! ولكن ليست كلها سواء..فَمِثْلُ حِصْنِ كعبٍ المُعَدّ للإقامة والطوارىء معاً في موقع كموقعه ، ومكانة كمكانة صاحبه . لا بد أن تكون فيه بئرٌ داخلية [1] سَدّاً لثغرة الاحتياج إلى الخارج في ألزم شيءٍ لحياة

---

[1] يؤيد هذه النظرية ما ورد في سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ١٩٥) من حصار النبي صلى الله عليه وسلم لبني قريظة فجأة في حصونهم ٢٥ يوماً . فلولا أن بداخلها آباراً ما استطاعوا الصمود في داخل حصونهم طيلة هذه المدة التي تقرب من شهر .

الإنسان . وهو الماء إذا اشتد الأمرُ وحُوصِرَ مَنْ بداخل الحصن مدة طويلة كما هو متوقع . في الحق إنّ مشكلة عدم عثوري على بئر بداخل الحصن شُغِلَ بها فكري أمداً مديداً وفكرتُ فيها شهوراً وحادثْتُ عنها بعض الرِّفاق .. حتى كان عام ١٣٥١ هـ ، فذهبتُ في أحد شهوره معهم إلى الحصن فوَجدْنا – مصادفة – صاحبي « عَلِيّاً » وبعد التحيات والترحيبات والتعريفات أعاد كلمته الأولى : «أنتم مقصدكم أن تتفرجوا على الحصن ؟ » .. فقلنا « نعم » فتَقَدّمنا يقفز أمامنا بخفة فوق حجارة الحَرّة المسنونة كأنيـــاب أغوال ... كما فعل في المرة الأولى ، وصار يَدُلّنا ويحكي لنا حكايات عن الحصن ويقول : إنه ورثه من أجداده وإنه .. وإنه .. ففاجأتُهُ بسؤالٍ مستوضحاً ومُخْتَبِراً :

« يا أخي عليّ ! أين البئر ؟ لا بد أن تكون بداخل الحصن .. » .

وحالاً أفاض الأخ علي بما طيّبَ الخاطِرَ وحلّ عقدة الإشكال قال : تَعَالَوْا لأريكُمُ البئر . ها هي ذي : (في الجهة الجنوبية خارج الحصن ملاصقة له ، وقد انهارت بطول الزمن) فقلت له : « إذا كانت بئر الحصن هي هذه على ما تقول فالمستقون منها لم يَنْجوا بعدُ من خطر الأعداء لأنها خارجة عن الحصن ، فكيف هذا ؟ » .

قال : « لا ! .. إن مدخل البئر من داخل الحصن هنا – (وأشار إلى مكانٍ بداخل الحصن مُنَاوِح للبئر الخارجية) ذي سلم حجريّ ينزل المستقون منه ، من تحت هذا البرج وقد طمّ التراب والحجارة المدخل والسلّمَ أولا ترى هذا البرج ؟ » .

قلت : « بلى ، أراه ! » .

قال : « بعد أن يهبط الواردون إلى البئر من السلّم الذي أشرت لك به ، يقف الرجال حاملي السلاح في هذا البرج لحراسة الهابطين إلى البئر ، إذا أحوج الحال » .

وبهذه المحاورة التي دلت على رجحان عقل صاحبنا (عليّ) وفهمه ، وبمقارنة بياناته مع ما مرّ ذكره من ذكر المؤرخين أن حصن كعب بن الأشرف يقع في منازل بني النّضير ، وأنّ منازلهم تقع بأطراف هذه الحَرّة [1] التي فيها الحصن المبحوث عنه .

من كل ذلك يتضح لنا أن هذا الحصن هو حصن كعب بن الأشرف بعينه . وهو بضاحية المدينة الجنوبية الشرقية وبينه وبينها نحو ساعتين ونصف ساعة [2] والطريق الموصل إليه منها هو هكذا : « باب العوالي — طريق قُرْبان — أمّ عَشرَ — أم أرْبُع — جزء صغير من الحَرّة — الحصن » .

---

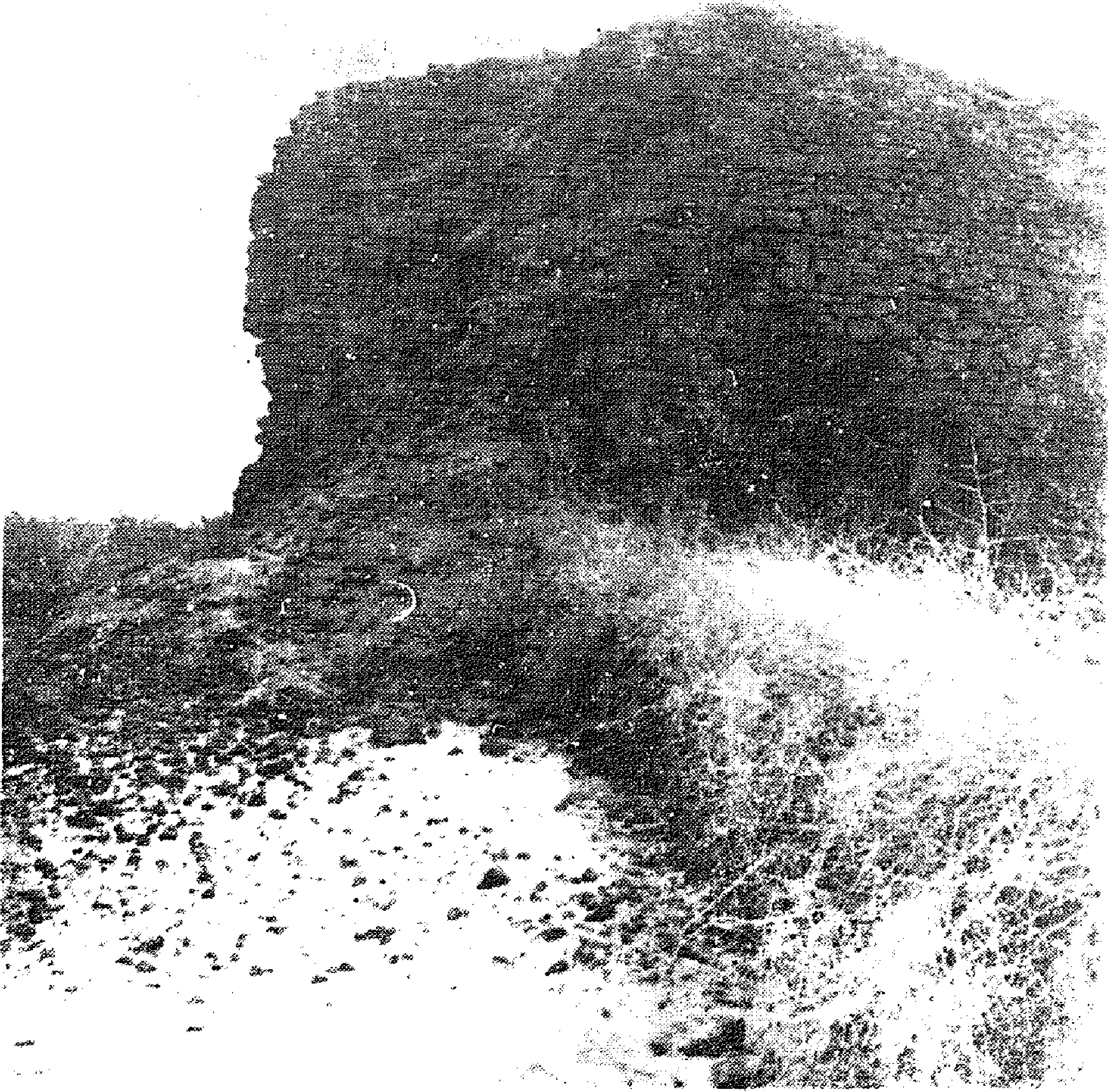
١ الحرة بفتح الحاء المهملة بعدها راء مفتوحة مشددة فتاء مربوطة — حجارة سود محترقة سببتها ثورة بركان في ذلك المكان في عصر سابق أو لاحق .

٢ أي يسير الإنسان على قدميه سيراً عادياً لا بطيئاً ولا سريعاً .. وكما قلنا من قبل فان السبب الملجىء إلى هذا التحديد للمسافة دون الأميال أو الكيلومترات نزارة السيارات حين تأليف هذا الكتاب بالمدينة المنورة .

(٢)

أطم الضُحيان

أطُم[١] عظيم مَشيد بحجارة الحرّة السود . طوله نحو ٢٧ متراً في



أطُمُ الضّحْيان

١ الأطم : الحصن . ومعنى « الضحيان » لغة هو : البارز للشمس ، من صيغة (ضحا) بمعنى برز للشمس .

عرض ١٢ متراً . وارتفاعه نحو ٨ أمتار . وقد تساقط قسمه الجنوبيّ حتى ليكاد يَمّحِي أثرُه .

أمّا القسم الشماليّ منه فلا يزال متماسكاً عالياً مع تناثُرِ كثيرٍ من حجارته العلوية . ولضخامته لم يظهر أثرٌ كبيرٌ لهذا التناثر . ويبدو من الصورة التالية بعضُ حجارته المتناثرة ، وبعضُها الذي استُعْمِلَ في بناء سور الحديقة الملاصقةِ له .

وهوَ واقعٌ بالعَرْصَةِ الكائنةِ غربيّ بئرِ شُمَيْلَةَ وشَمَاليّ العُصْبَةِ .

* * *

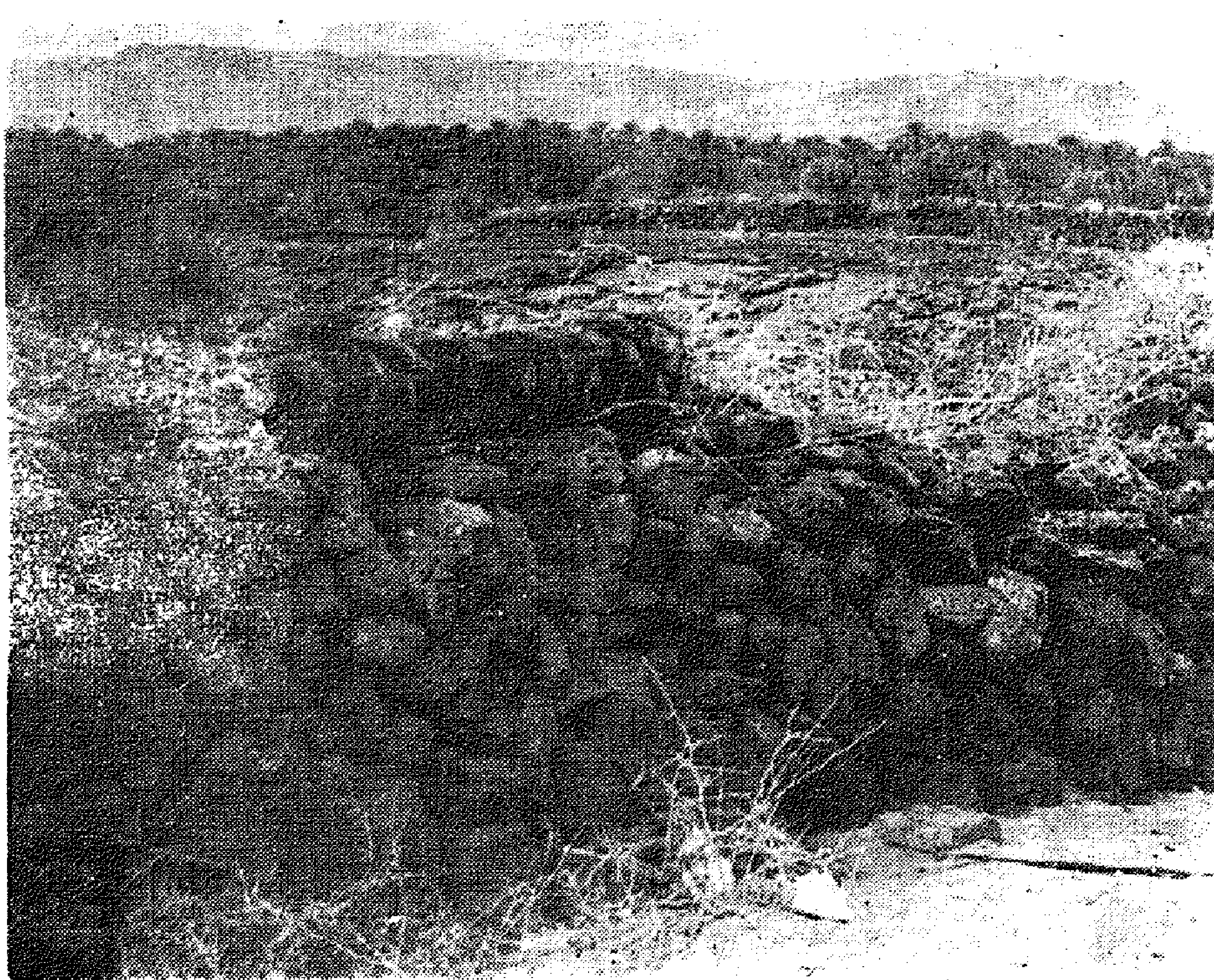
طالما وقفتُ مبهوتاً أمام هذا الأطُمِ العظيم الشامخ ؛ وقد كُنْتُ إخالُ أنه من آطام اليهود حتى عثرتُ في «وفاء الوفا» على ما كَشَفَ لي عن حقيقته . قال السمهوديّ في مَعْرِضِ بحثه عن منازل الأنصار : « وابتَنَى أحَيْحَةُ بنُ الجُلاح بالعُصْبَةِ أطماً يُقال له الضَّحْيَانُ ، وهو الأطم الأسود الذي بالعُصْبَة » .

والعُصْبَةُ (على ما يُفهم من مجموع أقوال مؤرخي المدينة) هي جميع هذه البساتين الواقعة غربيّ مسجد قباء التي يفيض فيها وادي رانوناء ، كما أن السَّيْحَ أو السَّيْحِي هو مجموع البساتين التي تقع بغربيّ مسجد الفتح في ضاحية المدينة الشمالية الغربيةِ حسب العُرف القديم . وأطُمُ الضّحيان جاهليٌّ كأغلب آطام المدينة [1] .

---

١ في وفاء الوفا ص ١٤٧ و ١٤٨ ما يدل على أن جميع آطام المدينة جاهلية البناء ، ما عدا أطم بني ساعدة . فقد قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة وهو يبنى.

ومما لاحَظْتُه أثناء وقوفي ، في ٢٦ شعبان ١٣٩٢ ﻫ على هذا الأطم أنّ كثيراً من حجارته السّود قد تَدَحْرَجَ أوْ دُحْرِجَ من أعاليه وجوانبه ، وبُنِيَ بها سورُ الحديقةالمجاورة لهفي القسم الشمالي‌حسب ما سبقت الإشارة إليه آنفاً .. كما لاحَظْتُ أن الأطم مَشيدٌ على نُشُزٍ من الحَرّةِ مما جعله بارزاً وعالياً فطابق اسْمُهُ مُسَمّاه . ولا بد أنه كان أكثر ارتفاعاً من بقايا طَلَلِهِ الموجود الآن .



حجارة متناثرة من أطم الضّحيانِ سقطت قريباً منه ، وسور الحديقة الملاصقة له المبنيّ من حجارة الأطم . وترى قِمة جبلِ عَيْرٍ بعد الحديقة من بعيد

(٣)

أطم أبي دجانة الساعدي الأنصاري

عرّفَ السمهوديّ في كتابه : « وفاء الوفا » هذا الأطم فقال عنه أولاً : « فابتَنَوْا أطُماً يقال له المعرض ... وأطماً في دار أبي دُجانة الصّغرى التي عند بئر بضاعة[1] » .

وقال عنه ثانياً : قال (المطريّ) : وشماليّ البئر اليوم إلى جهة المغرب بقيةُ أطم من آطام المدينة نُقِلَ أنه في دار أبي دُجانة الصغرى التي عند بئر بُضَاعَةَ .. وأبُو دُجانة من بني ساعدة [2] .

وقد نَقَلَ هذا القولَ عن المطريّ أحمدُ بنُ عبد الحميد العباسيّ صاحب كتاب (عمدة الأخبار في مدينة المختار) [3] . وهذا القول المنقول عن المطريّ لا يوصل إلى معرفة حقيقة هذا الأطم الذي لا تزال بقيةٌ منه موجودةً ، حتى كتابة هذه السطور في ٢٨ شعبان ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

وإذا أخذْنا بالتعريف والتحديد اللذين نَصّ عليهما السمهودي

---

١ وفاء الوفا ص ١٤٨ ج ١ الطبعة الأولى .

٢ المصدر السابق ص ٦١ ج ٢ من الطبعة ذاتها .

٣ ص ١٧٠ الطبعة الثالثة لناشر الكتاب في طبعاته الثلاث : السيد أسعد طرابزوني .

فيمكننا أن نقول : إن الطَّلَلَ الباقيَ من هذا البناء الْمُصْمَتِ الشبيهِ في شكله واستدارته بأطُم الضّحيان ، والموجودِ في الناحية الشمالية من الحائط المربع في وهدة من الأرض قرب الزقاق الموصل إلى فندق آل المدني الذي أصبح مدرسة للبنات .. والذي يقع فعلاً في الشمال الغربيّ من بئر بضاعة ، هو بقية أطم أبي دُجَانَةَ الأنصاري الساعديّ ، وقلنا إنه بقية هذا الأطم لثلاثة أسباب :

الأول — ما أشرنا إليه آنفاً من أنه مستدير البناء كبناء زميله في جنوب المدينة الغربيّ : أطم الضّحْيان تماماً .

والثاني : أن حجارته سُودٌ ودَبَش كبارٌ وصغار متلاصقة بمونة من التراب السَّبَخيّ الشديد التماسك كالاسمنت إذا عُجن وخُلط بعضهُ ببعض .

والثالث : انطباق وصف مؤرخي المدينة الثلاثة : المطريّ والسمهودي والعباسيّ على وصفه بأنه أطمٌ ، واتفاقُ المؤرّخيْنِ الأوّليْنِ منهم : المطريّ والسمهوديّ على أنه بقية أطم أبي دجانة الأنصاري .

ويقول السمهوديّ نقلاً عن المطريّ إنه بقية أطم أبي دجانة الواقع في داره الصغرى .. ولربما كان هذا محل استشكال مبدئي .. إذْ كيف يكون الأطم الضّخمُ البارز كالقلاع المحصنة في دار أبي دجانة الصغرى ؟ المعقول إما أن يكون الأطم بجانب هذه الدار أو في داخل سُورها ، لا أن يكون في داخلها .. ويزول هذا الإشكال بمجرد أن نعرف أن الدار تشمل لُغَةً جملة مساكن متجاورة يجمع بينها حائط واحد ، مهما يتسع هذا الحائط .

وعلى هذا المعنى يصحّ أن يكون أطمُ أبي دُجانة في داره أيّ بمحل إقامته العامّ الأصغر في بيوته وسُورِه من داره الكبرى أي مكان إقامته

الآخر الذي هو أكبر من الأصغر المذكور في كثرة المنازل واتساع الحائط المحيط بها أو ما أشبه .



طللُ أطم أبي دُجَانَـــةَ

وبقية أطم أبي دُجانة الموصوف في الطرف الشمالي الغربي في داخل الحوش الكبير الواطىء .. هو من أملاك الأخوين : السيد عُبَيْد والسيد أمين مدني. ونرجو أن يُعْمَلَ الترتيبُ المناسبُ من قبل دائرة الآثار السعودية لحفظ ما تبقى من هذا الأطم وفق نظام الآثار الذي صدرت الموافقة الملكية عليه في العام ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م .

* * *

وأبو دُجانة صاحبَ هذا الأطم فيما نرى – هو سِماكُ بن خرشة – أو أوس بن خرشة بن لوذان بن عَبْدِ وُدّ بن ثعلبة الأنصاري الساعديّ ابن كعب بن الخزرج ، شهد بدراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بُهْمَةً من البُهْمِ – أي بطلاً عظيماً من الأبطال – دافَعَ عن رسول الله يوم أحُد هو ومصعب بن عُمَيْرٍ ، فكثرت فيه الجراحة ، واستُشْهِدَ يومَ اليمامة ، واشترك مع عبد الله بن زيد بن عاصم ، ووحشيّ ابن حرب في قتل مسيلمة الكذاب . وقد آخى الرسولُ بينه وبين عتبة ابن غزوان [1] .

١ الإصابة في تمييز أسماء الصحابة لابن حجر العسقلاني ج ٤ ص ٥٨ و ٥٩ والاستيعاب بهامشه لابن عبد البر ، نفس الجزء والصفحتين .

قسم المساجد

تمهيد

المدينةُ بلدُ المساجد . وأوّلُ مسجدٍ بُنِيَ على وجه الأرض كان بناؤه بالمدينة ، في ضاحية قباء الجنوبية الموالية لمكة والمُفْعَمَةِ بالحدائق .

وهذا المسجدُ الأوّلُ بناءً هو مسجد قباء الذي قال الله تعالى فيه مخاطباً رسوله الكريم : « لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ » . ولأنّ موضوع كتابنا محصور في الآثار فقد اكتفينا بإيراد المأثور من المساجد بالمدينة . وليس كلّ المساجد المأثورة ذكرْنا بل المشهور منها ، وما تحققناه من المغمور . وقد راعينا في هذين النّوعين أن يستجمعا شرطين :

١ ــ ثبوت علاقة المسجد بالرسول عليه الصلاة والسلام أو ببعض أصحابه .

٢ ــ تَحَقّقُ مَوْضِعِ المسجد المشار إليه .

هذا ومما تجدرُ ملاحظته أنه لم يبق إلى اليوم مسجد من المساجد المأثورة على بنايته الأولى بِعَيْنِها ، فقد حصل في جميعها التجديدُ ، وذلك لثلاثة أمور :

١ ــ عنايةُ المسلمين بها .

٢ ــ وضعُ عماراتِها وتأثّرُها بالعوامل الطّبيعيّةِ من حرّ وبَرْدٍ ورياح وأمطار .

٣ ــ وجودُ السّبخةِ في بعض تراب المدينة مما يسبب تداعيَ العمارات بَعْدَ أمدٍ يقصر أو يطول حسب قوة المَبْنَى وتحمّله .

وفيما يلي وصفٌ للمساجد المأثورة :

(١)

مسجد قباء

جهته بالنسبة للمدينة ، ووصفه ، ومسافة بعده عنها ، وطريقه منها ، وتاريخ عماراته .

جِهَتُهُ بالنسبة للمدينة وَوَصْفُهُ

يقع مسجد قباء في الجنوب الغربي للمدينة . وشكله مربع ، وضلعه ٤٠ متراً ، وعدة أساطينه ٢٩ . وفيه محراب ومنبرٌ رُخَامِيّ عتيق . كان الأشْرَفُ قايتباي أهداه للمسجد النبويّ لِيُوضَعَ في مكان المنبر المحترق ، وذلك في سنة ٨٨٨ هـ. وبعد أن بعث السلطان مراد العُثْمانيّ بالمنبر الحاليّ إلى المسجد النبويّ نُقِلَ هذا المنبرُ إلى مسجد قباء .

ولمسجد قباء مئذنة ، وفيه رَحبة مُحَصَّبَة فيها قبة يقال إن بها مبرك ناقة [١] النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفي الرحبة بئر [١] . وبجدار المسجد القِبْليّ في شرقيه محراب يقال له : (طاقة الكشف) [١] . وفيه يقول صاحب مرآة الحرمين :

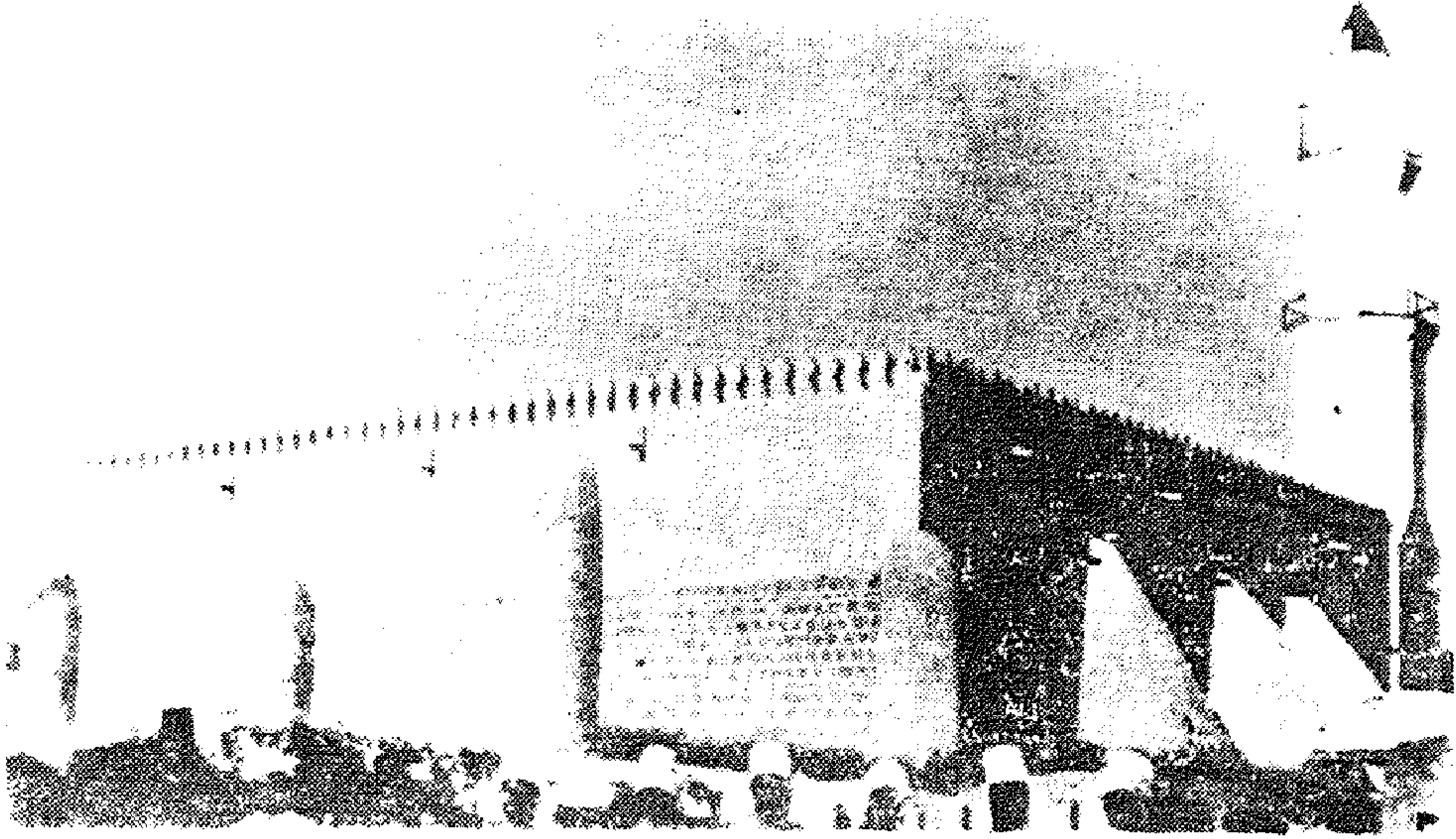
---

١ أزيلت العلامة التي وضعت لهذا المبرك ، كما أن البئر التي كانت بالرحبة قد طمرت ، كما أزيل ما يسمى بطاقة الكشف ، في الترميم والإصلاح اللذين أجريا قبل الترميم الأخير لمسجد قباء .

« ولا أدري كَشَفَ أيّ شيء ؟ » .

ومما يسترعي الانتباه من آثار هذا المسجد . هذا الحجرُ المنقوش بالخط الكوفيّ القديم فإنه ينطق بعمارة المسجد من قِبَلِ أحد الأشراف عام ٤٣٥ هـ . وكأنه نُقِل في بعض تَعْميرات المسجد ، مِن بَابِه . إلى هذا المحراب . وهذا نصّ ما عليها [1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم : إنّما يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ (الآية) أمر بعمارة مسجد قباء الشريف أبو يعلى أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن رضي الله عنه ابتغاء ثواب الله وجزيل عطائه ... على يد الشريف حسن المسلم ... ابن عبد الله بن مساك في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة » .



مسجدُ قُباء كما كان قبل الإصلاح الأخير سنة ١٣٨٨ هـ

١ معَ ما لهذا الحجر من أهمية أثرية وتاريخية معاً لم يتعرض له مؤرخو المدينة الذين اطلعت على تواريخهم .

وللقسم المسقّف من المسجد قباب . وعدة أروقته ستة . وفي الرواقين اللذين بمُؤَخَّرِهِ غرفة لوضع أمتعته وفُرُشِه . وله دعائم خارجية في جَنُوبِه وشَمَالِه وشَرْقِه ، لتقوية جدرانه من هذه الجهات نظراً لانخفاض ما يجاورها من الأرض .

مسافة بُعْدِه عن المدينة

يبعد عنها نحو (٤٠) دقيقة بالمشي المعتدل [١] باعتبار مبدأ السير من باب قباء .

طريقه منها :

كان لمسجد قباء طريق ضيق معوج شديد الأعوجاج يتجه بعد باب قباء إلى الجَنُوبِ الغربيّ ، ثم ينعطف إلى الشرق ، ثم يعود إلى الجَنُوب ، وهكذا .. حتى يصل إلى المسجد ، وهو مع هذا مملوء بالحُفَرِ والشّقوق وعلى طرفيه الصّيران — (النخل الصغير النابت من النَوَى رأساً) — التي يُضَايِق سعفُها المارّين .

وفي عام ١٣٣٦هـ شَقّ فَخْري باشا طريقاً مستقيماً واسعاً إلى مسجد قباء . وغَرَسَ بجوانبه الوَدِيّ (صغار النخل) والأَثْلَ . لتظليـــل السائرين . وظلت هذه الجادّةُ مسلوكةً طيلة مدة الحكومة الهاشمية ، وزمناً من عهد الحكومة السعودية . فلما أصدرت هذه الحكومةُ الإذْنَ لأصْحَابِ البساتين باستعادة ما اقْتُطِعَ منها للجادّةِ الحديثة حجز كل واحد منهم ما يخصه ، وبذلك بدأ دَوْرُ انقطاعها حتى وصل الأمر أخيراً إلى إغلاقها ، فعاد المشيُ من الطريقِ القديمِ المُلْتَوِي .

---

١ تقدير هذه المسافة بسير الإنسان العادي على قدميه هو أمر اقتضته ندرة السيارات حين ألف الكتاب.

وفي عام ١٣٥١ هـ جدَّدَ فتحَ هذا الطريق وكيلُ أمير المدينة المنورة عبدُ العزيز بنُ ابراهيم رحمه الله . حيث قام بشراء ست عشرة قطعة من الأراضي الواقعة فيه بمالِه ، وجعلها وقفاً لله تعالى من لدنه ، كما تنطق به الحجة المخرجة من محكمة المدينة الشرعية الكبرى المؤرخة في ١٩ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ والمقيدةُ في سجلِّ هذه المحكمة بالعدد ١٠٧ والمجلد ١ . وقد أزال الأمير ابنُ إبراهيم . الحواجزَ ، وأعاد فتح الطريق كما كانت تقريباً من جديد ، وبنى بجانبها أعلاماً للتحديد ، فرجع السير فيها كما كان .

والطريق الجديدة تبتدىء من باب قباء ، وتتجه إلى الجنوب ، فإذا حاذت بستان الجزع [1] . انحرفت إلى الشرق ثم إلى الجنوب حتى تبلغ مسجد قباء .

هذا وتطل على طريق قباء : القديم والجديد ، قلعة قباء الشامخة الأثرية وترى صورتها في ختام هذا الفصل .

تاريخ عماراته :

أسس هذا المسجد المبارك على يد النبي صلى الله عليه وسلم لأول مرة وذلك حين قدومه إلى قباء من مكة في الهجرة وهو أول مسجد أسّس في المدينة بل على وجه الأرض . « وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يَعْمَلُ فيه بنفسه » .

ثم لما اعتراه الخراب في خلافة عثمان بن عفان جدَّدَهُ وزاد فيه .

ومن بعده جدَّدَهُ عمرُ بن عبد العزيز إبّان إمارته على المدينة للوليد بن عبد الملك الأموي (٨٧ – ٩٣هـ) . وقد بالغ عمر في تنميقه

---

١ اقتطع جزء من هذا البستان ، وأدخل في شارع قباء الذي هو موضع الحديث ، وذلك فيما بعد .

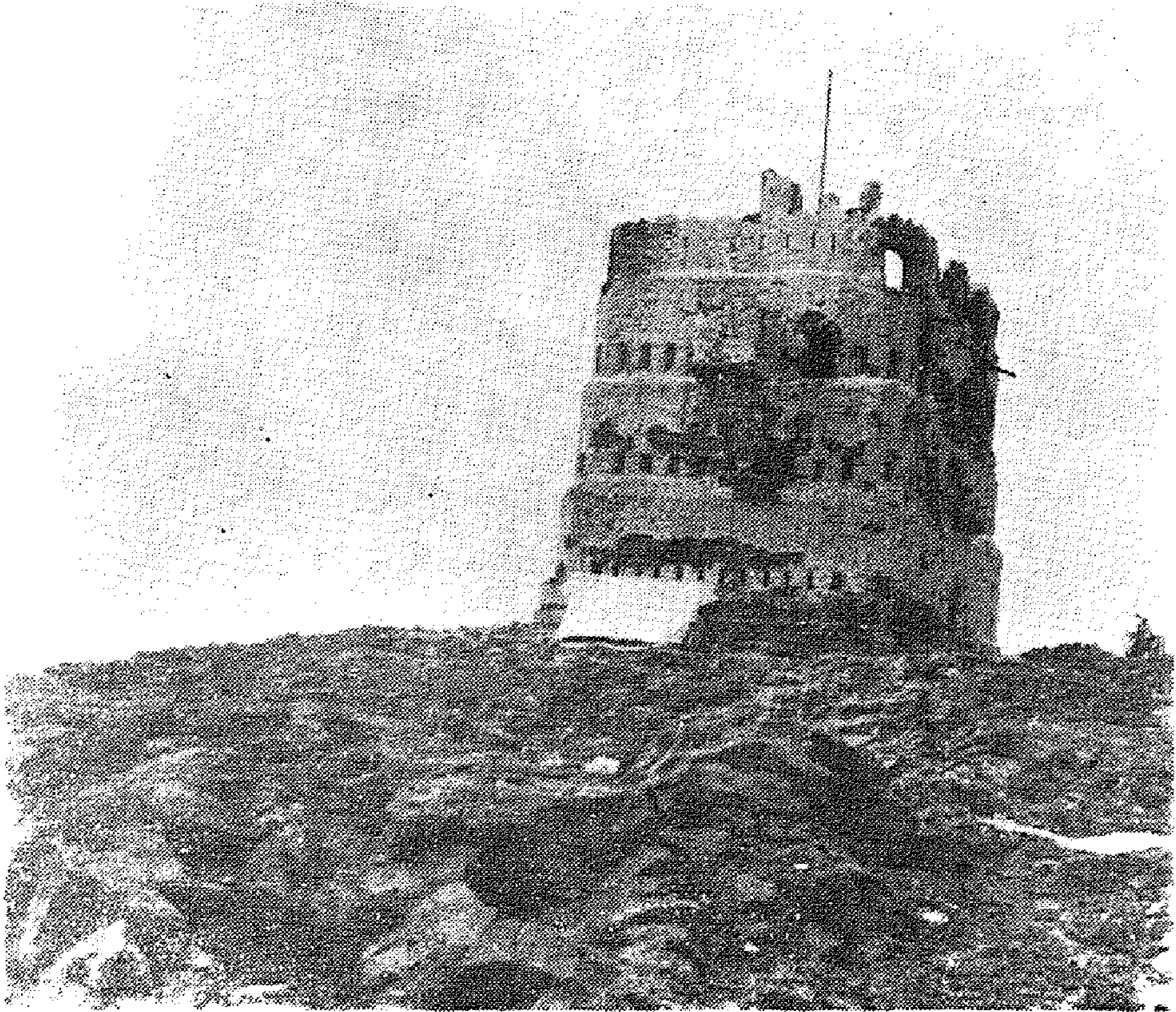
وتوسعته ، وهو أول من عمل له مِئذَنَةً ، وَجَعَل له رَحبةً وأرْوِقَةً .

وفي سنة ٤٣٥ هـ عمره أبو يعلى الحسيني كما ينطق به الحجرُ الأثري الموضوعُ على المحراب المعروف بطاقة الكشف .



مسجد قباء بعد الإصلاح السعودي

وفي سنة ٥٥٥ جدده جمال الدين الأصفهاني باني رباط العجم قُرب باب جبريل . وجُدِّدَ في سنة ٦٧١ هـ . وفي عام ٧٣٣ هـ . وعام ٨٤٠ هـ ، وعام ٨٨١ هـ .



قلعة قُبَاء المشرفة على طريق قباء

وفي زمن الدولة العثمانية عُمِّرَ عدة مرات ، وآخرُها عمارات حدثَتْ في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٥ هـ ، وابْنِهِ السلطانِ عبدِ المجيد .

وآخر ترميمٍ وتجديدٍ لهذا المسجد الذي كان براعة استهلال لتعمير

المساجد في سائر أنحاء الدنيا . كان بأمر جلالة الملك فيْصَل بن عبد العزيز في سنة ١٣٨٨ هـ وقد جُدّدَ في هذه العمارة تجديداً قيّماً ، وبخاصة في جدرانه الخارجية وفي وضعه العام عموماً ، وَزِيدَ فيه من ناحيته الشمالية الموالية للمدينة المنورة ، وقد كلّفَ هذا الترميم ، قرابة ٨٠٠ ألف ريال عربيّ سعوديّ [١] . وقامت به وزارة الحج والأوقاف .

١ عن السيد حبيب محمود أحمد رئيس مجلس ادارة أوقاف المدينة وعضو مجلس الأوقاف الأعلى ومن مدونات لدي مخطوطة أيضاً .

(٢)

مسجد الجمعة

قال أحمد بن عبد الحميد العباسي : « اسمه الغُبَيْب كزبير [١] . وفي «وفاء الوفا» أنه بناه عبد الصمد ، وأن مكانه هو الذي يسمى الغبيب [٢] » ويقع هذا المسجد في بطن وادي رانُوناءَ بشرق الطريق المستحدث إلى مسجد قباء ، ويراه سالك هذا الطريق من المدينة إلى قباء عن يساره في وَهْدَة من الأرض وذلك قُبيل بستان الجِزْع العائد لآل الرفاعي . وكان في القرن العاشر الهجري يقع على يمين السالك إلى مسجد قباء .

وطول مسجد الجمعة ٨ أمتار في عرض ٤ أمتار و ٥٠ سنتيمتراً ، وارتفاعه ٥ أمتار و ٥٠ سنتيمتراً وهو مبني بالحجارة المطابقة بناء جيداً ، وله قبة واحدة مبنية بالطوب الأحمر وبالجير . في داخلها من العلو أربع فتحات ترسل إليه النور والهواء ، وله حظيرة في شماله طولها ٨ أمتار وفي عرض ٦ أمتار وارتفاع جدارها متران .

---

١ عمدة الأخبار في مدينة المختار ص ١٧٠ .

٢ ص ٣٣ المجلد الثاني الطبعة الأولى ، وعبد الصمد هذا ولي المدينة لأبي جعفر المنصور وعزله منها المهدي سنة ١٥٩ هـ وهو عباسي أيضاً .

وعلى جَنَبَتَيْ باب المسجد – الذي هو عبارة عن عقد مفتوح بغير مصراعين – حجران من الرخام الابيض مستطيلان مثبتان في الجدار وهما منقوشان بخط متداخل جداً ، قرأت منه : « أمر ببناء هذا المسجد المبارك الجمعة مولانا أمير المؤمنين السلطان الملك المظفر السلطان بايزيد بتاريخ شوال سنة ... » .

والسلطان بايزيد هذا من سلاطين آل عثمان ، وتولى السلطنة ما بين عامي ٨٨٦ هـ – ٩١٨ هـ وإذَنْ فبنايةُ مسجد الجمعة الحاليّة لها الآن نحو أربعة قرون ونصف قرن ، وتعتبر من هذه الناحية أثرية علاوة على أن المسجد نفسه مأثور ،ويكفيه مكانة أنه أول مسجد صلّى فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أوّلَ جمعة بالناس وذلك حينما أقبل من قباء إلى باطن المدينة إبّان الهجرة من مكة .

وكان موقع المسجد في الأصل بمنازل بني سالم من الأنصار ، أما اليوم فهو في وسط صفصف خالٍ بشرقيه شُجَيْرَاتُ الطَّرْفاء الباهتة المعوجة ، وبغربيه قطعة أرض جرداء ، وبجنوبه بستان وبشماله بستان [1] وكان يُعْرَف بثلاثة أسماء : مسجد الجمعة ومسجد الوادي ومسجد عاتكة [2]. ولما في الاسم الأول من قوة ودلالة على المسمى غلب إطلاقه على المسجد وبهِ يُعْرَف إلى اليوم .

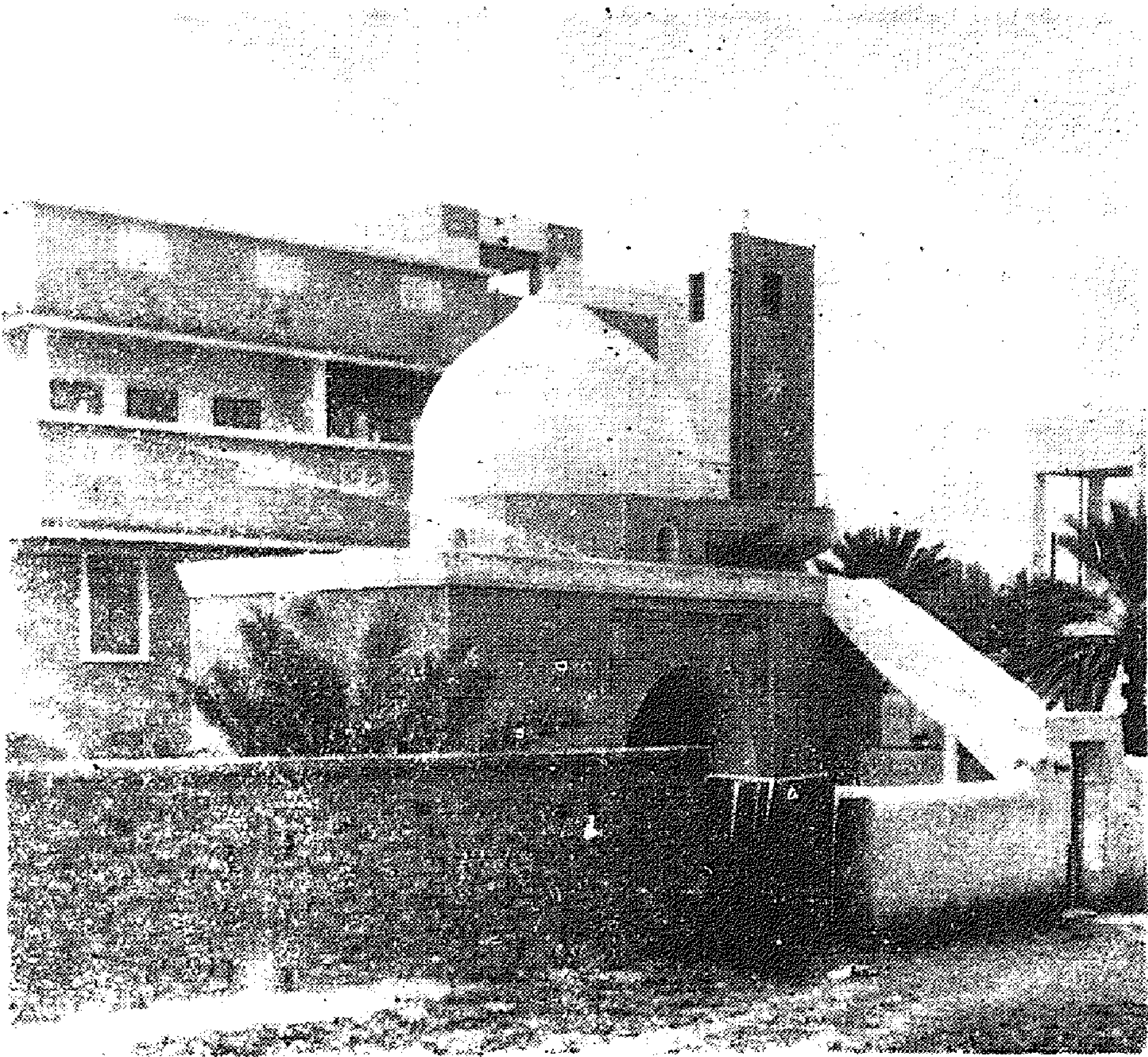
وقد ذَهَبْتُ إلى هذا المسجد يوم الثلاثاء الموافق ٢٤ شعبان ١٣٩٢ هـ فوجدتُ الزّقاقَ النافذَ إليه ، من طريق قُباء اليوم ، المُسْفلَتَ أخيراً

---

١ كان هذا الوصف حين تأليف الكتاب .. أما اليوم فقد تغير الوصف تماماً كما سيأتي بيانه في السطور التالية لما ذكر .

٢ وزاد العباسي انه كان يعرف بمسجد الغبيب كما سبق بيانه في أول هذا الفصل .

وجَدْتُهُ مُغْلَقاً بعمارة حديثة تطوقه من ثلاث جهاته .. فجدارُه الغربي من الخارج لا يمكن الوصول إليه .



مسجد الجمعة والعمارات تطوقه من ثلاث جهاته

لا يمكن الوصول إلى جانبه الخارجيّ إلا من طريق السور الذي يحيط بالعمارة المشار إليها .. وقد تمكنتُ من الوصول إلى المسجد من زُقاقٍ مُلْتوٍ بَعيدٍ عنه جِداً ، لأنه يقع في ناحيته الشماليّة . والمسجد الآنَ

متداعي البناء قبته معرضة للسقوط بين حين وآخر . والسقف المحاذي لها ، والسُّلَّمُ الحَجَرِيّ الذي يصل إلى سطحه بَدَأَتْ حِجارتُها تتساقط هي والمونة التي تربط بينها وتشد بعضها إلى بعض [1] .

١ بهذه المناسبة نذكر أن المؤلف قدم كتاباً بهذا المعنى إلى أوقاف المدينة المنورة وأبدى فيه حالة هذا المسجد المأثور وأنه بحاجة ماسة إلى الترميم قبل أن ينهار .. كان ذلك في شهر شعبان سنة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

(٣)

المسجد النبوي

موقعه ووصفه العام ، زخرفة قبابه ، جداره القبلي ، المحراب العثماني ، المحراب النبوي ، المنبر ، مقصورة المبلغين ، المحراب السليماني ، الحجرة الشريفة ، محراب التهجد ، دكة الأغوات ، محراب مشايخ الحرم ، الأعمدة ، الصحن ، مصلى النساء ، مخزن الزيت ، المآذن ، الأبواب ، كتاتيبه ، ميضآته ، الخزائن ، الثريات والقناديل ، إنارته ، النخلتان ، فرشه ، صنابيره ، مخازنه ، تاريخ عماراته .

موقعه ووصفه العام

يقوم هذا المسجد الشريف في قلب المدينة من ناحيتها الشرقية . وهو شبه مستطيل . قال صاحب مرآة الحرمين : «طوله من الشمال إلى الجنوب ١١٦,٢٥ متراً . وعَرْضُهُ من الجهة القبلية ٨٦,٢٥ متراً ، وعرضه من الجهة الشمالية ٦٦ متراً » أهـ . وأغلبه مسقف القباب . وبناؤه شامخ في السماء ، وأروقته ٢٠ ، منها ١٢ في جنوب صحنه ، و٣ بشماله ، و ٢ بشرقه . و٣ بغربه. وقبابُهُ مَشِيدةٌ على عقود تحملها أساطين من الحجر الأحمر .

تجمع إلى المتانةِ ، الرّشاقةَ والجمال. منها المستديرُ وهو ما يقوم بداخل الأروِقةِ . ومنها المربّعُ وهو الملتصقُ بحوائط المسجد . وعِدّتُها جميعاً ٣٢٧ أسطوانة [1] تنقسم هكذا :

أ — في الجهة الجنوبية للصحن : (٢٢٣) أسطوانة . منها ٣١ مرخمة إلى انصافها بِقِطَعٍ سلونة .

ب — في الجهة الشمالية للصحن : (٢٥) أسطوانة .

ج — في الجهة الشرقية للصحن : (٢٧) أسطوانة .

د — في الجهة الغربية للصحن : (٥٢) أسطوانة .

زخرفةُ قبابه

وفي تجاويف قبابه بدائعُ من صُوَرِ النباتات والأزاهيرِ والأستار ؛ تخلب الأبصار . وبينها آياتٌ وقصائدُ مكتوبة بخط الثُلُث الرائع النافر .

زخرفة الجدار القبليّ

في هذا الجدار أشكال الفسيفساء الجميلة وبِعُلْوِهِ (١٤) نافذة مكونة من شبكة حديدية في منتهى الدقة والجمال وأمام المواجهة الشريفة نافذة تُطِلّ على دار عبد الله بن عمر .

المحراب العثمانيّ

يقع في وسط هذا الجدار القبليّ أي (الجَنُوبيّ) وهو مُحلّى بِقِطَعٍ

---

١ هذا وصف للمسجد النبوي وإحصاء لأسطواناته قبل التوسعة السعودية .وستأتي فيما بعد،إحصاءات عامة لمحتوياته بعد التوسعة المذكورة .

الرّخام الملونة . وتوجد فوقه مناطق فيها آيات قرآنية بخط الثلث النّافر الذي هو في غاية الإبداع .

وأرض الرّواقين الجَنُوبيّيْن مفروشة بالرخام الأبيض . وفي نهايتهما غرفة يتجه بابها إلى الغرب .

ويفصل بين الرواقين ، والروضة، والمحرابَيْن : النبويّ والسليمانيّ سُورٌ صغيرٌ من صُفْرٍ[1] ذي شبك ، وله بابان عن يمين المنبر ويساره .

المحراب النبويّ

يقع في شرقيّ المنبر . وما بين المنبر والقبر الشريف هو الروضة . ومساحتُها ٢٢ متراً في عرض ١٥ متراً . وتزينه الآيات القرآنية المرقوم خطّها الثلُثي النافر بماء الذهب ، وقطعٌ ملونة من الرخام . وناهيك بجمال العمودين بجوانبه ، فهما من الرخام الأحمر ذي اللون الإثمديّ . وفي الجانب الغربيّ من المحراب كتب بخط نافر : (هذا مُصَلّى رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وشكل بناية هذا المحراب يُنْبِيء بأنه قرين المحراب السليمانيّ في طراز العمارة ، وقد حصل فيه ترميم أيام فخري باشا ، وبعدها .

المنبر

يقع بغربيّ المحراب النبويّ . وبه اثنتا عشرة درجة : ثلاث بخارجه ، وتسع بالداخل . وهو مصنوع من المرمر ، وظاهره مغمور

---

١ الصفر : النحاس الأصفر («المعجم الوسيط) . وهو المراد هنا .. وفي لسان العرب أن الصفر (النحاس الجيد ، وقيل إنه ضرب من النحاس) (مادة صفر) .

بالتذهيب وبالنقوش الفائقة . وفوقه قبة لطيفة قائمة على أربعة أعمدة مُضَلّعَة رشيقة من المرمر . وفوق بابه شُرُفاتٌ هُنّ آيةٌ في الروعة . حتى إن ماء الذهب بها لبريقاً ، فلَكأنّ الصانعَ فرغ من طلائها بالذهب بالأمس القريب ، مع أن تاريخ عمارته وإرساله من قِبَلِ السلطان مراد كانا بسنة ٩٩٨ هـ على ما تنطق به الأبيات الناهرة الخط المنقوشة على بابه.هذا وأثناء مراجعة هذا التأليف في شعبان سنة ١٣٩٢ هـ . توجّهْتُ من جُدّةَ إلى المدينة المنورة فوجدتُ المحراب النبويّ وغيره من المآثر بالمسجد تُطْلَى بماء الذهب الأصليّ ، ويُكَلّفُ ذلك مبالغَ طائلةً تبرعتْ بها الدولة السعودية .

مَقْصُورةُ المُبَلّغِينَ

وتسمى المُكبّرِيّة[١] وتقع أمام المنبر فيشَمَاليّه بنحو ٥ أمتار ومنها يقيم المبلغون الصّلوات. وهيَ دكّة عالية مُرَبّعة رخامية قائمة على ثمانية أعمدة رشيقة ستة منها مُحلاّةٌ بِدُهْنٍ أحمر عقيقيّ اللون . واثنان أبيضان ناصعا البياض . وكانت في المسجد مكبريتان أبقيتْ واحـدة وأزيلت الأخرى ، اكتفاءً بزميلتها وتوسعةً على المصلين .

المحراب السليمانيّ

يقع في غربيّ المنبر ، وهو على شكل المحراب النبويّ ، في البناية والزخرفة تماماً . وبظهره كتابةٌ نافرة تنصّ على أنه بُنِيَ سنة ٩٣٨ هـ وبانيه هو السلطان سليمانُ العثمانيّ وقد حصل فيه ترميم عَامّ في عهد مُحَافِظِ المدينة فخري باشا إبّان الحرب العالمية الأولى .

---

١ المكبرية أي التي يكبر عليها للصلاة تبليغاً للمصلين عن الإمام من لدن المؤذنينالذين يكونون عليها إبان صلوات الجمع والجماعة والخسوف والكسوف والصلاة على الجنائز والاستسقاء .

وتُسمّى قديماً « المقصورة » .. قال صاحب مرآة الحرمين : « وفي زاوية المسجد الجنوبية الشرقية جُزْءٌ فُصِلَ من المسجد بِسُورٍ من النحاس الأصفر [1] طول كل من ضلعيه الجنوبية والشمالية ١٦ متراً وكل من الشرقية والغربية ١٥ متراً . ويقال له المقصورة الشريفة ». وبناءُ المقصورة الحاليّ من آثار الملك الأشرف قايتباي ، من سُورها الخارجيّ المعروفِ بالشّباك ، إلى قُبّتهِ التي فوق الداخلية إلى دائرها المخمس ، إلى القبةِ الداخلية المبنية بحجر أسود وأبيض الكائنة فوق الحُجْرَة النبوية التي فيها القبور الثلاثة الشريفة : قبرُ سيد الأنام « مُحَمّد » عليه الصلاة والسلام ، وقبْرا صَاحِبَيْهِ وخَلِيفَتَيْه : « أبي بَكْرٍ الصّدّيق » و « عُمَرَ الفاروق » رضي الله عنهما .. فلهذه البنايات المُؤلّفِ منها ما يُسمّى بالمقصورة أو الحُجْرة ما يُنيفُ على أربعة قرون ، أما القبة الخضراء الحالية فهي من بناء السلطان محمود العثمانيّ كما سيأتي تفصيله [2] .

وللسور الخارجي المعروف بالشّبّاكِ أربعة أبواب :

١ — بابٌ قبْليّ « أي جنوبيّ » يُسَمّى بابَ التوبة . وعليه صفيحة فضية مرقوم عليها تاريخ صنعها : سنة ١٠٢٦ هـ .

٢ — بابٌ في الشّمالِ يقال له بابُ التهجد .

٣ — بابٌ في الشرق يُدْعَى بابَ فاطمة .

٤ — بابٌ في الغرب .

---

١ المصبوغ بصبغ أخضر ثابت ذي بريق ولمعان .

٢ في وفاء الوفا ص ٤٦ ج ١ ما نصه : « وجعلوا على ما يحاذي الحجرة الشريفة وما حوله قبة عظيمة ، على دعائم بأرض المسجد وعقود من الآجر ، بدلا عن القبة الزرقاء التي كانت قبل الحريق » .

هذا ومُسْبَلٌ على الشبّاك ستائر من الأطلس الأخضر المكتوب ، وكذلك على الدائر المُخَمّس . وقد حفر الملك العادل نور الدين الشهيد سنة ٥٥٧ هـ خندقاً عميقاً حول الحجرة ، وصَبّ فيه الرّصاصَ للحيلولة بين الجسد الشريف ومن يريد الوصول إليه .

وقِطْعَتا الألماس المعروفتان بالكوكب الدّرّيّ اللتان وصفهما إبراهيم باشا رفعت في كتابه « مرآة الحرمين » نُقِلَتا فيما نُقِلَ من ذخائر الحجرة إلى الاستانة في زمن الحرب العالمية الأولى ، ولم تُعادا إلى الآن : سنة ١٣٩٢ هـ .

وبشماليّ الدائر المُخَمّس في داخل الشبّاك حُجْرَةُ فاطمة أو قبرها [١] وبخلفه محراب يقال له محراب فاطمة .

وما بين الدائر المُخَمّس والشبّاك مفروش بالمرمر ، وكذلك ما بين جميع أعمدة المسجد ، وما بين باب الرحبة وباب النساء ، والأروقة التي بين باب الرحمة ومخزن الزيت بمؤخر المسجد ، والأروقة الواقعة بشرقيّ صحن المسجد .

محراب التهجّد

وفي شمال الشبّاك من الخارج محراب يسمى « محراب التهجد » جُدّدَ في عهد السلطان عبد المجيد .

دكة الأغوات

هي بشمال المحراب المذكور ، وهي الصّفّةُ [٢] التي كان يكون فيها

---

١ الصحيح أن قبر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في بقيع الغرقد .

٢ الصفة لغة هي : بنيان واسع طويل السمك يشبه البهو .. والصفة في صدر الإسلام تعني الموضع المظلل من المسجد النبوي وكان يأوى إليه فقراء المهاجرين ويبيتون فيه وقد بلغ عددهم ٩٢ صحابياً .

فقراء المهاجرين ، وهي اليوم عبارة عن دَكَّة طولها ١٢ متراً في عرض ٨ أمتار . تعلو عن الأرض التي حولها بنحو نصف متر ، وعليها دَرَابْزِينٌ من الصِّفْر . وبجانبها إلى الشرق مخزن ، أمامه دَكَّةٌ كانت مُعَدَّةً لجلوس شيخ الحرم النبويّ في أيام الدولة العثمانية .

محراب مشايخ الحرم

هو في شمال دكّةِ الأغوات بمسافة أربعة أمتار .

الأعمدة

أغلب أعمدة المسجد النبويّ ، في العمارة العثمانية حُمْرُ اللون مَكْسُوَّةُ القواعد بالصِّفْرِ ، ومنها ٣١ عموداً مكسواً بِقِطَعِ الرّخام الملون إلى أنصافها .

أما أعمدة العمارة السعودية فَمُلَبَّسَةُ القواعدِ بالصِّفْرِ المُفَرَّغ بالزخارف . وهي مدهونة بدهان أبيض بَرَّاقٍ .

الصَّحْنُ

للمسجد النبويّ صحن واسع مفروش بالرمل الأحمر المجلوب له من عَرْصَةِ العقيق . وقد زِيدَ صَحْنٌ آخر في عمارة المسجد السعودية . وبناحيةِ الصحنِ الجنوبيةِ الشرقيةِ كانت بئرٌ ذات فتحة مُرَخَّمةٍ ، بجانبها حديقةٌ صغيرة . وقد أزيلتا في مطلع عهد الحكومة السعودية . وما يقع بجنوب الصحن القديم الأول من جُدُرِ المسجد أحمر اللون كأغلب أعمدته .

مُصَلّى النساء

كان يقع في الرواقين اللذين بشرقيّ الصحن . وكان عبارة عن عيدانٍ من الخشب دقيقة متلاصقة بتقاطع : « شيش » مَصبوغة بدهنين : أخضر وأصفر متقاطعين وقد أزيل هذا الشباك الخشبي في التوسعة السعودية للمسجد النبويّ .

مخزن الزيت

يقع في مؤخر المسجد وهو كبير مبلّط بالحجارة السود ، وله بابان : باب صغير من الداخل، وباب كبير من الخارج وقد أدخل هذا المخزن في توسعة المسجد السعودية الأخيرة .

مآذن المسجد

خمس ، أربع منها شامخة وهي : (١) الرئيسية بالجنوب الشرقيّ من المسجد بناها قايتباي . (٢) ومنارة باب السلام بالجنوب الغربي منه . (٣) السليمانية شرقي الباب المجيديّ . و(٤)الشكيليّةُ بشماله . و(٥) منارة باب الرحمة وقد ضُمّ مكانها إلى رحبة باب الرحمة ، وكان بناؤها في عهد قايتباي ، وهي أقصر من جميع المآذن . وقد حصل في كل المآذن ترميم فيما مضى ، اللهم إلا مئذنة باب الرحمة التي أزيلت في التوسعة الجديدة .

أبواب المسجد

كانت خمسة كعدة مآذنه قبل التوسعة السعودية ، وهي : (١) باب السلام في الجنوب الغربيّ ، وكان يسمى باب مروان . و (٢) باب الرحمة بشماله الغربيّ وكان يقال له : باب عاتكة. و(٣) باب النساء يقابل باب الرحمة من المشرق وكان يسمى بابَ ريطة. و(٤) باب جبريل بحذاء باب النساء من الجنوب. و (٥) الباب المجيديّ بشمالي شرقيّ المسجد ، ونسبته إلى السلطان عبد المجيد العثمانيّ الذي عُمّرَ في عهده المسجدُ النبويّ العمارة التي سبقت تَوْسِعَتَهُ السعوديةَ مباشرة . ومصراعا كل باب من هذه الأبواب الخمسة في غاية الجودة والمتانة والسّمْك والحُسْن .. هذا وقد زيد في التوسعة السعودية خمسة أبواب للمسجد النبويّ . والأبواب الخمسة المزيدة هي : (١) باب الصدّيق أبي بكر وهو بثلاث فتحات متلاصقة ، ويقع بين باب السلام وباب الرحمة غرب

المسجد . (٢) باب المَلِك . ونه ثلاث فتحات متلاصقة أيضاً ، ويقع كسابقه في غرب المسجد. (٣) باب عمر بن الخطاب في شمال المسجد الغربي. (٤) باب عثمان بن عفان في شمال المسجد الشرقي. (٥) باب عبد العزيز ، وهو ذو ثلاث فتحات متلاصقة . وموقعه في الجهة الشرقية من المسجد النبوي .

كتاتيبه

كان في الردهة التي تقع بداخل الباب المجيدي غُرَفٌ مخصصة لتعليم الأطفال القرآن الكريم ، ومبادىء القراءة العربية على المنهج القديم ، وفوقها غُرَفٌ مثلها . وقد أزيلت تلك الغرف في التوسعة السعودية .

ميضآته

كان بابها يقع بجانب مخزن الزيت ولها سُلّمٌ حجريٌ يُصْعَدُ منه إليها.. وقد أزيلَتْ هذه الميضآت وأدخل مقرها في المسجد ، في توسعته السعودية .

الخزائن

كان بشرقي المسجد من باب المئذنة الرئيسية إلى الباب المجيدي ٣٦ خزانة خشبية ملونة بدهان أخضر، وبناحيته الغربية من باب السلام إلى باب الرحمة ٨ خزائن كبيرة ، بينها خوخة أبي بكر رضي الله عنه . وقد نحّيَتْ تلك الخزائن جميعاً عن المسجد .

جدران المسجد

هي بصفة عامة مبنية من الحجر الأسود المنحوت المطابق . وهي في غاية المتانة ، وسمكها نحو ٣ أمتار . وكلها مطلية بالجير داخلاً وخارجاً . وهذا الوصف إنما هو لجدران المسجد في العمارة العثمانية .

وفي توسعته السعودية هُدِمَ بعضُ هذه الجدران وبنيت بقوالب الإسمنت والبطحاء القوية ، وطُليت من خارجٍ وداخلٍ بالدّهان . وما بقي من جُدُر المسجد أُبْقِيَ ما بداخلها من النقوش كما كان .

ثُرَيّاتُهُ وقناديله

بالمسجد **ثريات وقناديل** منها ثريات كبيرة أعظمها اللتان في السقف الجنوبي للصحن ، وفيه قناديل كثيرة معلقة في عوارض حديدية بين الأعمدة وقد زيدت ثُرياته أربعين ثُرياً أهدتها إلى المسجد حكومة جلالة الملك فيصل . وأضيئت العمارة السعودية علاوة على الثريات المُدَلاّةِ من سقوف المسجد بالأنوار الكهربائية المدفونة في أعالي أساطينه الحديثة ، وسهل ذلك أنها مصنوعة من الاسمنت القابل للتشكل والحفر . أما القناديل العثمانية التي كانت تضاء بالزيت . فقد أبقي ما تبقّى منها معلقاً في سلاسله الفضية اللون ولكن بدون إضاءة .. أبقيت هكذا لأنها أصبحت أثرية بالنسبة للاضاءة الكهربائية الساطعة وبخاصة مصابيح « النّيون » القريبة الشبه من نور الشمس .

إنارته

كانت إنارته بالزيت والشمع إلى أن بعث السلطان عبد الحميد الثاني مَكِينَةَ كهرباء مع جميع تفرعاتها ولوازمها الكهربائية [1] . ومن ذلك الوقت إلى الآن ، والإنارة جارية بالكهرباء . وبناء على قِدَمِ المَكِينَةِ السابقة كان الحاج الشاوي الجزائريّ المغربيّ أهدى مكنة جديدة وهي المستعملة إلى سنة تأليف هذا الكتاب وطبعته الأولى سنة ١٣٥٣ هـ . والآن يضاء المسجد النبويّ من الكهرباء العامة بالمدينة وهي لشركة وطنية مساهمة .

---

١ كان بدء إنارة المسجد النبوي بالكهرباء رسمياً في يوم الاحتفال بافتتاح السكة الحديدية الحجازية بالمدينة في ٢٥ شعبان ١٣٢٦ هـ .

النّخلتان

وبجانبي المنبر نخلَتَا صُفْرٍ مُثْبَتَتَان في الأرض ، ولكل منهما جِذْرٌ وجِذْعٌ وساقٌ وغُصُونٌ وهما ذواتا أكمام وثمرة أكمامها المصابيح الزجاجية الملونة وثمرها قطع البلور الأبيض الصافي الشفيف .

فُرُشُ المسجد

كان مفروشاً بالسجاجيد التّركية المصنوعة في مصنعها بالاستانة المعروف باسم « هَرَكَة » ولِقِدَمِها أمرَ المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية بأن يُشْتَرى للمسجد سجاجيدُ عجميّة ومفارش (زَلّ) وقد فُرِش المسجد بها وأُكْمِلَ فَرْشُ الباقي بالبسط المهداة من مسلمي الهند .

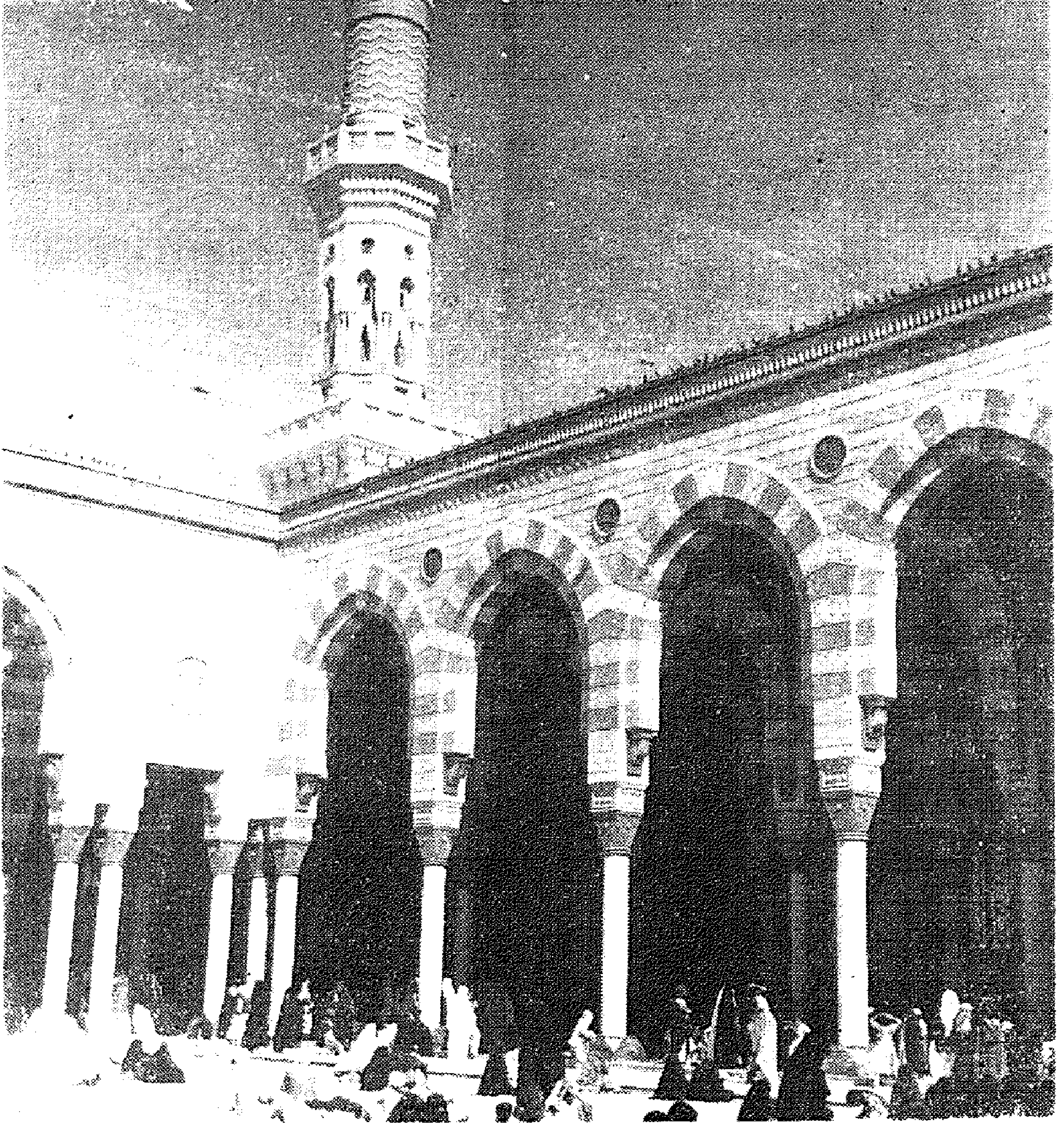
وقد فرش المسجد النبوي بعد ذلك فرشاً كاملاً بسجاجيد من نوع الزّل الفاخر الناعم سنة ١٣٨٨ هـ في عهد جلالة الملك فيصل ملك المملكة العربية السعودية .. أهداها جلالتُهُ لهذا المسجد النبويّ الشريف .

صنابيره

والصنابير هي (الحَنَفِيّاتُ) المعدة للوضوء . وكانت خارج المسجد بقرب كل من باب السلام وباب الرحمة والباب المجيدي وباب النساء ، وقد أدخل مقرها إلى المسجد في توسعته السعودية .

مخازنه أو مستودعاته

هي المواضع التي كانت تحفظ فيها هداياه وبقايا ترميماته . وهي سبعة معلومة المواضع . وقد أدخل موضعها بالمسجد النبويّ في توسعته السعودية . وتحفظ هدايا المسجد الآن بعد التوسعة في أماكن بعُلوه الشمالي وفي مكان آخر غير بعيد من المسجد .



جزء من الناحية القبلية والناحية الشرقية للمسجد النبوي في العمارة السعودية الأولى

تاريخ عمارته وتوسعاته

١ – أُسّس لأول مرة على يدي النبيّ صلى الله عليه وسلم في العام الأول للهجرة . وكان أساسُه بالحجارة ، وجُدُرُهُ من اللَّبِن ، وعُمُدُه الجذوع ، وسقفه الجريدُ ، وكانت مَساحَتُهُ نحو ٣٥ متراً من الجنوب إلى الشّمال ، و٣٠ متراً من الشرق إلى الغرب : عمارةٌ بسيطة مملوءة بروح التواضع والإخلاص . لا أُبّهةَ فيها ولا زخرف . وقد اشترك في بنائه أهل الحجاز وأهل نجد بإشراف النبي صلى الله عليه وسلم ، وشاركهم في التصميم والبناء على ما رواه المؤرخون .

٢ – زاد النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه ، عام ٧ هـ حتّى صار مُرَبّعاً . .

٣ – زاد عمر بن الخطاب فيه عام ١٧ هـ نحو خمسة أمتار في الجنوب ، و ١٠ في الغرب ، و١٥ في الشّمال .

٤ – جَدّده عثمان بن عفان عام ٢٩ هـ بالحجارة والجصّ والعُمُد المحشوة بالحديد وسقفه بالساج وزاد فيه رواقاً في الشرق والغرب والشّمال والجَنُوب . وهي مُنتهى الزيادات بجنوبي المسجد حتّى الآن . وقد كان جَعَل له ستة أبواب ، سُدّ منها اثنان . والأربعة الموجودة حتّى اليوم هي من ذلك التاريخ . أما البابُ المجيديّ فَمُحْدَثٌ في العمارة العثمانية ، ويضاف إليه في الجِدّةِ الأبوابُ الخمسةُ التي زيدت في العمارة السعودية الموسعة الحديثة كما سبق تبيانه آنفاً .

٥ – تجديد الوليد له بُدِيءَ به عام ٨٨ هـ وانتهى عام ٩١ هـ وقد زاد فيه قليلاً من الغرب والشرق . وأدخل حُجَرَ أمهات

المؤمنين في المسجد . وأقام الدائر المُخَمَّس على الحجرة ، وعَمَّرَهُ بالحجارة المطابقة . والجص والعُمُد ، ونَقَش جدرانه بالفُسَيْفساءِ والمرمر ، وسَقَّفَهُ بالساج وذَهَبَهُ .

٦ ــ زيادةُ المهديّ الشمالية في عام ١٦١ هـ وتمت عام ١٦٥ هـ .

٧ ــ تجديد المستعصم له بعد الاحتراق ، ابتدأه سنة ٦٥٥ هـ وانتهى منه في عهد الظاهر بَيْبَرَس البُنْدُقْداريّ .

٨ ــ جَدَّدَ الملك الناصر محمد بن قلاوون سقفه شرقيّ رحبته وغربيّها وزاد رواقين في المسقف الجنوبي مما يلي الرحبة عام ٧٠٥ و ٧٠٦ و ٧٢٩ هـ .

٩ ــ جُدِدَ الرواقان المذكوران آنفاً في عهد الأشرف برسباي عَام ٨٣١ هـ .

١٠ ــ جَدَّدَ الظاهر سقف الروضة وسقوفاً أخرى عام ٨٥٣ هـ .

١١ ــ عَمَّرَهُ قايتباي سنة ٨٧٩ هـ .

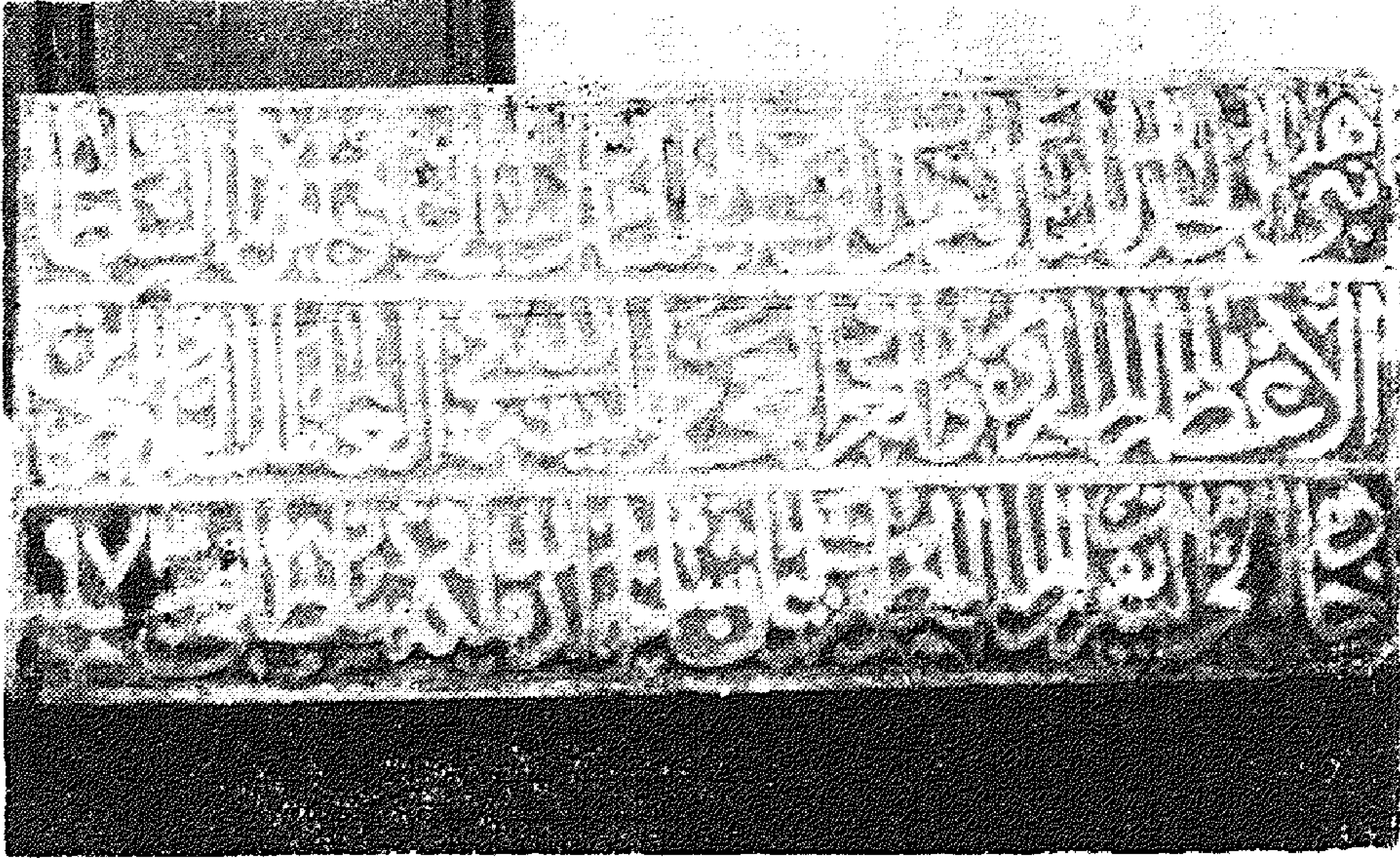
١٢ ــ قام بعمارته العظمى المنتهية في أواخر القرن التاسع الهجريّ .

١٣ ــ جَدَّد السلطان سليمان ، كامل الجدار الغربيّ من حذاء باب الرحمة إلى المنارة السليمانية سنة ٩٧٤ هـ كما هو منقوش بعلو الجدار المذكور من الداخل قرب باب الرحمة . وبَنَى المحرابَ السليمانيّ عام ٩٣٨ هـ وبني المحراب النبوي على طرازه كما يبدو من هيئته.

١٤ ــ عَمَّرَهُ السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٠ هـ .

١٥ ــ بنى السلطان محمود القبة على القبر الشريف ثم أمر بترميمها

ودهنها باللون الأخضر الذي لا تزال تُصبَغ به إلى اليوم . وذلك سنة ١٢٣٣ كما ورد في مرآة الحرمين لابراهيم رفعت [١] ويقول البتنوني [٢] : إن القبة الخضراء الحالية إنما بناها السلطان محمود سنة ١٢٣٣ هـ .



اللوح الرخامي يعلو الجدار الغربي المتضمن لتجديد السلطان سليمان للجدار الغربي

ثم أمر بترميمها ودَهْنِها باللون الأخضر (ومِنْ ثَمّ سُمّيَتْ بالقبة الخضراء) [٢] وهكذا اتفق إبراهيم رِفْعَتْ . ومحمود لبيب البتنوني على أن القبة الخضراء الحالية هي من بناء السلطان محمود الثاني . ومِنْ قبلها جاء في (مرآة الحرمين)

١ مرآة الحرمين لإبراهيم رفعت ج ١ ص ٤٦٥ .

٢ الرحلة الحجازية للبتنوني ص ٢٤٥ طبعة مصر ١٣٢٩

(ص ٨٢٤) لأيوب صبري باشا (وقد أكمل تأليفه باللغة التركية في سنة ١٢٩٦ هـ ، وطُبِعَ في الآستانة في سنة ١٣٠٠ هـ) ما ملخصه باللغة العربية : « في عهد السلطان محمود خان الثاني وُجِدَ في القبة الخضراء تشقق، وذلك بسبب عدم متانة جدرانها وعدم متانة حزامها العلويّ ، فأمر السلطان محمود بهدمها من قواعدها ، وبناها على قواعد متينة ، وَرَفَعَ بِنَاءَهَا الحاليّ » . ويتضح من ذلك أن القبة التي بناها قايتباي هي غير هذه القبة الخضراء الحالية . ويؤيد أن القبة الخضراء الحالية عثمانية البناء هذا الهلال الموضوع فوقها، وهو شعار الدولة العثمانية كما هو معروف .

١٦ – عمارة السلطان عبد المجيد الكبرى بدأت عام ١٢٦٥هـ وانتهت في عام ١٢٧٧هـ فلها الآن ٧٦ سنة [1] . وفي هذه العمارة فُتِحَ البابُ المجيديّ وسُمّيَ باسم فاتحه السلطان عبد المجيد العثماني .

١٧ – رَمَّمَ فخري باشا المحرابين : النبويّ والسليمانيّ . ورمّمَ البئر التي كانت في صحن المسجد عام ١٣٣٦ هـ . ومعلومٌ مما سبق أنّ هذه البئر قد طُمّتْ .

١٨ – رَمَّمَ المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة العربية السعودية أرض المسجد مما يلي رَحَبَتَهُ في الجهات الأربع عام ١٣٤٨هـ ووضع أطواقاً حديدية على بعض الأساطين التي حدث فيها تشقق بغربيّ الرحبة وشرقيّها ، وذلك في سنة ١٣٥٠ هـ .

١٩ – رمّمته الحكومة المصرية سنة ١٣٥٤هـ من غلة أوقاف

---

١ كان ذلك سنة طبع هذا الكتاب ١٣٥٣ هـ .. أما بالنسبة للعام الحالي ١٣٩٣ فقد مضى على العمارة العثمانية ١١٦ سنة .

الحرمين الشريفين بمصر [1] .

إلمامة عامة عن العمارة السعودية

في عام ١٣٦٨ هـ . أصدر الملك عبد العزيز آل سعود أمراً نُشِرَ في جريدة المدينة المنورة يبشر فيه المسلمين بأنه قد عزم على توسعة المسجد النبويّ الشريف ، وكان نَشْرُ ذلك الكتاب في تلك الجريدة بتاريخ ٥ رمضان ، وفي العدد ٣٠١ بسنة ١٣٦٨ هـ . وبُدِيء في تنفيذ مشروع التوسعة في ٥ شوال ١٣٧٠ هـ . فَهُدِمت الدور المحيطة بالمسجد ، بعد انتزاع مِلْكِيّتِها وتعويض أهلها تعويضاً سخياً .

وفي شهر ربيع الأول ١٣٧٢ هـ . وُضِعَ الحجرُ الأساسيّ للمسجد .

وفي ١٤ شعبان ١٣٧٢ هـ . شُرِعَ في حَفْرِ أسُسِ المسجد في الجناح الغربيّ بمنطقة باب الرحمة .

وفي ربيع الأول ١٣٧٣ هـ وُضِعَتْ أربعة أحجار في إحدى زوايا الجدار الغربيّ بالمسجد .

وأنشىء مكتب خاص لمشروع التوسعة يشتمل على أكثر من خمسين موظفاً يقومون بالأعمال الإدارية والفنية والحسابية وغيرها مما يلزم لإنجاز المشروع على أحسن منوال .

وكان المكتب يتألف من :

١ — المكتب الرئيسي .

٢ — قسم التحرير .

---

١ عن السيد عبيد مدني ، حيث كان مديراً لأوقاف المدينة حين قامت الحكومة المصرية بهذا الترميم وكان لديه علم بأنها من غلة أوقاف الحرمين بمصر ، لصلته الرسمية بالموضوع حينئذ .

٣ ــ القسم الحسابيّ .

٤ ــ قسم خزانة المال .

٥ ــ القسم الفني .

٦ ــ قسم المستودعات .

وألِّفَتْ لَجْنَةٌ من كبار رجال المدينة لتقدير قِيَم العقار المهدوم والمراد هدْمُه وَرُجِّحَتْ في تقدير الأثمان مصلحةُ المالكين للعقار قبل كل شيء .

وقد بلغت مساحةُ ما انتزعَ من الأراضي والدّور للتوسعة ، ومسَاحةُ الشوارع والميادين المماثلة والتي تقع جميعها حول المسجد النبويّ (٢٢٩٥٥) متراً مُسَطّحاً .

وأقيمَ لعمارة المسجد المُوَسّعةِ مَصْنَعٌ خاص ، يعمل الأحجار الصناعية المُلَوّنَةَ السطوح : (المزاييكــو) وزُوِّدَ بكل الأدوات الميكانيكيّة ، وقد بُنِيَ في منطقةِ ذي الحُلَيْفَةِ ــ آبار عليٍّ غرب المدينة وجُلِبَ له مهندسون واختصاصيون . وقد بلغ عُمّالُهُ أربعمائة عامل . وبلغ عدد المهندسين الذين كانوا يقومون بالعمل في المسجد النبوي أربعة عشر مهندساً .. وكان يعمل ــ بإشرافهم ــ أكثرُ من مائتي صانع من مصريين وسوريين وباكستانيين وسودانيين ويمانيين وحضرميين ، وقد بلغ تعداد العُمّال الذين كانوا يعملون معهم (١٥٠٠) عامل من السعوديين .

وقد أحْضِرَتْ للمشروع السياراتُ الكبيرةُ والتراكتورات والرافعات، وتُنيفُ على أربعين قطعة . وحملت البواخرُ جميعَ موادّ البناء اللازمة للعمارة إلى هذه البلاد . وكانت ترسو بميناء ينبع.. وكانت تَحْمِلُ الأخشابَ والحديد والإسمنت وجميع مواد البناء ، ومن ثَمّ تُنْقَلُ هذه اللوازم

برّاً على السيارات الكبيرة إلى المدينة . وقد بلغ مجموع البواخر التي رست بميناء ينبع حاملةً ما ذُكِر آنفاً أكثرَ من ٣٠ باخرة ، وبلغ مجموع ما فرّغته في الميناء أكثر من ٣٠٠٠٠ طن من مختلف مواد البناء .

وأنشىء معملٌ خاصٌ بالمدينة زُوّدَ بالمهندسين الميكانيكيين والصنّاع السعوديين . ليقوموا بإصلاح ما خرب من السيارات والأجهزة الميكانيكية العاملة في مشروع التوسعة .

وفي أوائل سنة ١٣٧٥ هـ أكملت التوسعة السعودية الأولى [1] ، وجدير بالذكر أن لونها الغالب هو البياض .. أما العمارة العثمانية فإن اللون الغالب عليها هو البرتقالي المائل إلى الحمرة .

مَرَاحِلُ الزيادات في مِسَاحَةِ المَسْجِدِ النّبويّ عَبْرَ القُرون

واستكمالاً لتاريخ المسجد النبويّ الشريف من جميع الجوانب رأينا أن نأتي بفذلكة عن مراحل توسعات مساحَتِه عبر القرون الخالية . وقد اعتمدنا فيها على التقرير الرسميّ الذي وضعه مكتب توسعته السعودية بتاريخ ٥ ربيع الأول ١٣٧٥ هـ . كما أضفنا إلى ذلك كلمة عن مشروع التوسعة السعودية الجديدة (الثانية) للمسجد التي أمر بها جلالة الملك فيصل ابن عبد العزيز ، وهي أكبر توسعاته جميعاً .

	أمتار مربعة
• مساحة بناء النبيّ صلى الله عليه وسلم .	٢٤٧٥
• زيادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه	١١٠٠
• زيادة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه	٤٩٦

[1] كتاب توسعة المسجدين – لوزارة الإعلام السعودية ص ٣١ .

• زيادة الوليد بن عبد الملك الأموي	٢٣٦٩
• زيادة المهدي العباسي	٢٤٥٠
• زيادة الملك الأشرف قايتباي	١٢٠
• زيادة السلطان عبد المجيد العثماني	١٢٩٣
• مجموع المساحة العامة للمسجد قبل التوسعة السعودية	١٠٣٠٣
• الزيادة السعودية (الحالية الأولى) :	٦٠٢٤
• مجموع المساحة العامة للمسجد بعد التوسعة السعودية	١٦٣٢٧

بيان عن مساحة العمارة السعودية

• عمارة التوسعة السعودية .	٦٠٢٤
• عمارة الأجزاء القديمة التي هُدِمَتْ أو أعيد تعميرها وهي الجهات الثلاث .	٦٢٤٧
• مجموع مساحة العمارة السعودية .	١٢٢٧١
• مساحة الجهة القبلية (الجنوبية) الباقية من البناء القديم	٤٠٥٦
• المجموع الكلي لمساحة المسجد النبوي حالياً .	١٦٣٢٧

إحصاءات عن العمارة السعودية (الحالية الأولى)

• عدد الأعمدة المحيطة بالجدار :	٤٧٤	عمود مربع
• عدد الأعمدة المستديرة في العمارة السعودية	٢٣٢	عمود مستدير
• الجدار الغربي	١٢٨	متر طولي
• الجدار الشرقي	١٢٨	متر طولي
• الجدار الشمالي	٩١	متراً طولياً

• البواكي الشمالية عددها	٥
• البواكي الوسطى عددها	٣
• البواكي الشرقية عددها	٣
• البواكي الغربية عددها	٣
• عدد الأبواب الجديدة ومنها الفتحتان المتلاصقتان	٩
• الباحات الداخلية المكشوفة عددها	٢
• العقود عددها	٦٨٩
• النوافذ عددها	٤٤
• عمق أساسات الجدران والأعمدة	٥ أمتار
• عمق أساسات المآذن	١٧ متراً
• عدد المآذن	٢
• ارتفاع كل مئذنة منها	٧٠ متراً

مشروع التوسعة السعودية الثانية

لم يمضِ على إكمال مشروع التوسعة السعودية الأولى سوى عام حتى ظهر احتياج المسجد النبويّ إلى توسعة ثانية . ويبدو أنّ سبب ذلك يعود إلى تكاثر قدوم الحجيج إلى هذه البلاد المقدسة ، لما وفر لهم من أسباب الراحة في الحل والترحال .

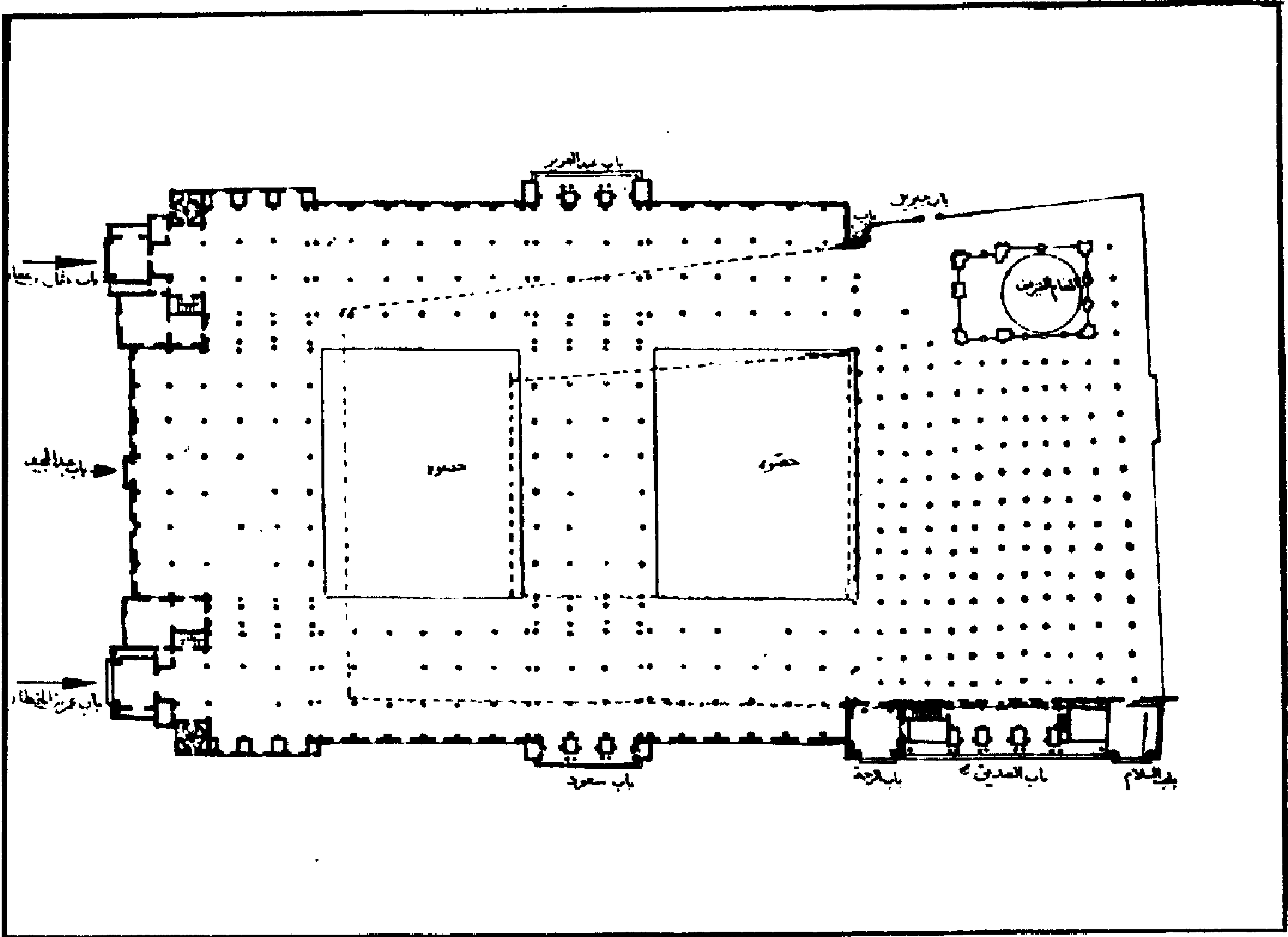
وقد صدر أمر جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز بمباشرة هذه التوسعة السعودية الثانية للمسجد النبويّ ، وقُدّر أن تتم كلها في الناحية الغربية للمسجد . وستمتد غرباً من الجدار الغربيّ للمسجد إلى الشارع العينيّ بطولٍ يبلغ مقداره (١٦٥) متراً ، كما ستمتد من جنوبٍ غربيّ إلى شمالٍ غربيّ ، حتى « الساحة » .. ويبلغ مجموع مساحة التوسعة الجديدة

ما ينيف على (٢٦٠٠٠) متر مسطح ، وهي مساحة تساوي جميع المساحة الحالية للمسجد النبوي بإضافة مساحة توازي ثُلثُ مساحته الحاضرة .

وتزيد قيمة التعويضات عن الأملاك المنزوعة ملكيّتها لهذا المشروع العظيم الجديد عن (٥٠) مليون ريال . وموعد المباشرة في هذا المشروع العظيم ، مطلع العام الهجري ١٣٩٣هـ إن شاء الله [١] .

---

١ عن السيد حبيب محمود أحمد رئيس مجلس أوقاف المدينة المنورة وعضو المجلس الأعلى للأوقاف بوزارة الحج والأوقاف .



خريطة تخطيطية للمسجد النبوي في جميع توسعاته الحالية

مكتبة المصحف

مكتبة المُصْحَف مشروع قائم بذاته في داخلِ مشروع التوسعة السعودية للمسجد النبويّ .. وهذه المكتبة من مُنْجَزَات عهد جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز .

وقد أنشئت المكتبة في عُلْوِ المسجد بفَنيّةٍ وتصميم دقيقين . وكان إنشاؤها في عُلْوِ باب الصّدّيق (أبي بكر) رضي الله عنه ، أو في عُلْوِ خوخته الموجودة في المسجد، والتي هي معروفة بأثريتها في التاريخ الإسلامي. يقع باب المكتبة في داخل باب الصّدّيق ، في الجانب الشمالي فيه ، المُلاصق للباب مباشرة ويصعدُ إليها الصّاعدُ من سُلّمٍ حجريّ مُريح مفروش بطنفسة فاخرة حمراء اللون .

والمكتبة عبارة عن بهوٍ واسع مستطيل جَنُوباً وشَمَالاً ، يُطِل الجالسُ فيها من نوافذها الأربع الداخلية الزجاجية فيشاهد جموع المصلين بالمسجد ويسمع قراءة الإمام ، وخُطبة الخطيب ، وأذانَ مقيم الصلاة كما يسمعها من في داخل المسجد تماماً .. وذلك بوساطة مكبرات الصوت المثبتة في داخلها بفَنيّةٍ وإتقان ..

تقع المكتبة في عُلْوِ المسجد كما قدمنا وتعلوها غرفة أخرى وضعت فيها بعض الآثار . ومكتبة المصحف في القسم الغربيّ من التوسعة السعودية

ملتصقةٌ بالجدار في جانبها الغربيِّ ومَشيدةٌ على سقف باب الصِّدِّيق ذي الفتحات الثلاث في الجانب الشرقيِّ والجنوبيِّ والشماليِّ .

نُسِّقت المصاحف الشريفة بخزائن المكتبة من أغلب جوانبها أروع تنسيق ، ورُتِّبَتْ فيها بحسب أقدمية خطوطها وأهميتها .

وخزائن المكتبة نوعان : نوعٌ مصنوع من الخشب النفيس الأسمر الجميل ، مُطَعَّماً بالعاج الناصع البياض . والعاج هذا مكوَّنٌ من نوعين أيضاً : نوعٌ مكتوب عليه بالعاج أيضاً وبالفضّة آيات قرآنية وأبياتٌ شعرية كتابةً هي في غاية الرّوعة والإبداع .. ونوعٌ يمثل زخارف في نهاية الحسن والجمال ..

وللخزائن هذه شُرُفاتٌ زادتها جمالاً على جمال ، وهذه الخزائن من مُهْدَيَاتِ أمِّ الخديوي عباس باشا الثاني إلى المسجد النبويِّ بسنة ١٣٢٨ هـ .

وقد كانت هذه الخزائن مصفوفة في داخل المسجد النبويِّ ، بجانب الجدار الغربيِّ الموالي لباب السلام . ثم أهْمِلَتْ ثم اعتُنِيَ بها مؤخراً حيث نقلت إلى هذه المكتبة بعدما جُدِّدَتْ عناصر الجمال والفنية بها في أحدِ مصانع مدينةِ جدّة على أيدي فنيين سعوديين .

والنوع الثاني من خزائن المكتبة ، خزائنُ حديثةٌ جميلةٌ فائقة الجمال ، أبْوابُها من زجاج .. وقد نُسِّقَتْ بها المصاحفُ الأثرية أيضاً ، وروعيَ في تنسيقها جمالُ خطها وأقْدَمِيّةُ تاريخ كتابتها .

وهناك مصحف خطيٌّ ضَخمٌ غاية في الضخامة والعرض والطول .. غلافُهُ السميك مُكَفّتٌ بمعدن أبيض من أركانه الأربعة .. ويزن (١٥٤) كيلو . وهو مكتوب على رقِّ غزالٍ ، بخط غاية في الجمال كتبه (غلام محيي الدين) سنة ١٢٤٠ هـ وأهْدِيَ إلى المسجد النبويِّ . وكان في داخله ثم روئيَ ـ حفظاً له ـ أن يُنْقَل إلى هذه المكتبة المخصصة للمصاحف

الخطية الأثرية العديدة المهداة إلى المسجد النبوي في مختلف الأزمنة من مختلف الأمكنة ، ومختلف المُهْدِين . فكان في هذا الصنيع توفيق حميد ..

وإضافة إلى المصاحف الأثرية تَزْدانُ جدران المكتبة من سائر نواحيها بألواحٍ أثرية مكتوبٍ عليها آيات قرآنية كريمة بأبدع الخطوط . وبسجاجيد أثرية مكتوبٍ عليها آياتٌ قرآنية مجيدة بأبدع الخطوط .. وهي من المُهْدَيَات إلى المسجد النبوي ..

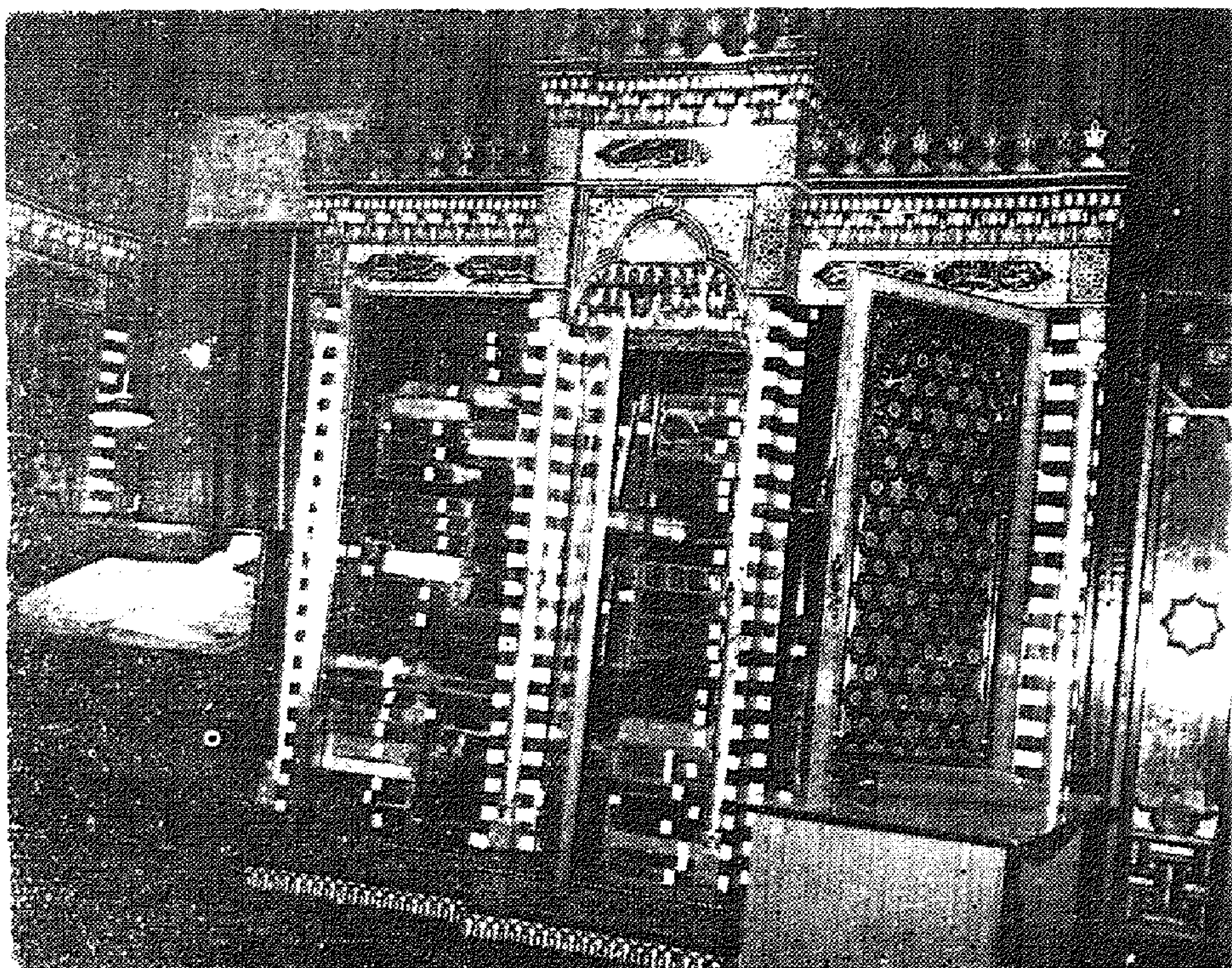
وقد نُقِلَتْ نخلتا الصِّفْرِ الموصوفتان في الفصل السابق ، إلى « مكتبة المصحف » فكان في نقلهما مزيةُ مُجانَسَتِهما لما تحويه المكتبة . إضافة إلى حفظهما .. وقد جُلِيتا ونُظِّفتا فعادتا إلى سيرتهما الأولى ..

والمكتبة مضاءةٌ بالكهرباء على خير ما تكون الإضاءة ومكيفةُ الهواء على خير ما يكون التكييف . ومفروشةٌ بثمين الأبسطة العجمية الفاخرة على خير ما يكون الفَرْشُ .. كل شيء فيها مرتب على ما يرام .. فلا تستطيع أن تقترح المزيد مما كان .. ولو اقترحت ذلك لما كان في حدود الإمكان .

تتبع المكتبة وزارة الحج والأوقاف . وهي التي أنفقت على تكوينها من ميزانيتها في عهد وزيرها السيد حسن محمد كتبي . وقد افتتحها باسم جلالة الملك فيصل الآمر بإنشائها على هذا المنوال البديع في موسم الحج عام ١٣٩١ هـ. بعد الحج مباشرة سُمُوُّ الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة نيابة عن جلالة الملك . وحضر وزير الحج والأوقاف الحفلَ الذي دُعِيَ إليه كبارُ الشخصيات من الحجاج .

وأعتقد أن (مكتبة المصحف) هذه فريدة وحيدة في موقعها ومحتوياتها لا مثيل لها في العالم اليوم .. وبحسبها فخراً أنها مكتبة المصاحف الخطية الثمينة النادرة المهداة من أجيال العالم الإسلامي المتتابعة ، إلى المسجد النبوي .

وقد أنشئت في العهد الفيصلي .. في داخل المسجد النبويّ الشريف . فهي في داخله ، وكأنها ليست في هذا الداخل . وهذا من إتقان هندسة التصميم ..



إحدى خزائن المصاحف بمكتبة المصحف الشريف بالمسجد النبويّ
وهذه الخزانة وزميلاتها كلهن من الخشب الفاخر المطعم بالعاج الأبيض الثمين

هذا وفي المكتبة (١٩٠٠) مصحف مخطوط . ومنها ما يَرْتَقي في القِدَم إلى القرن الهجريّ السادس .

مكتبة الحرم المدني

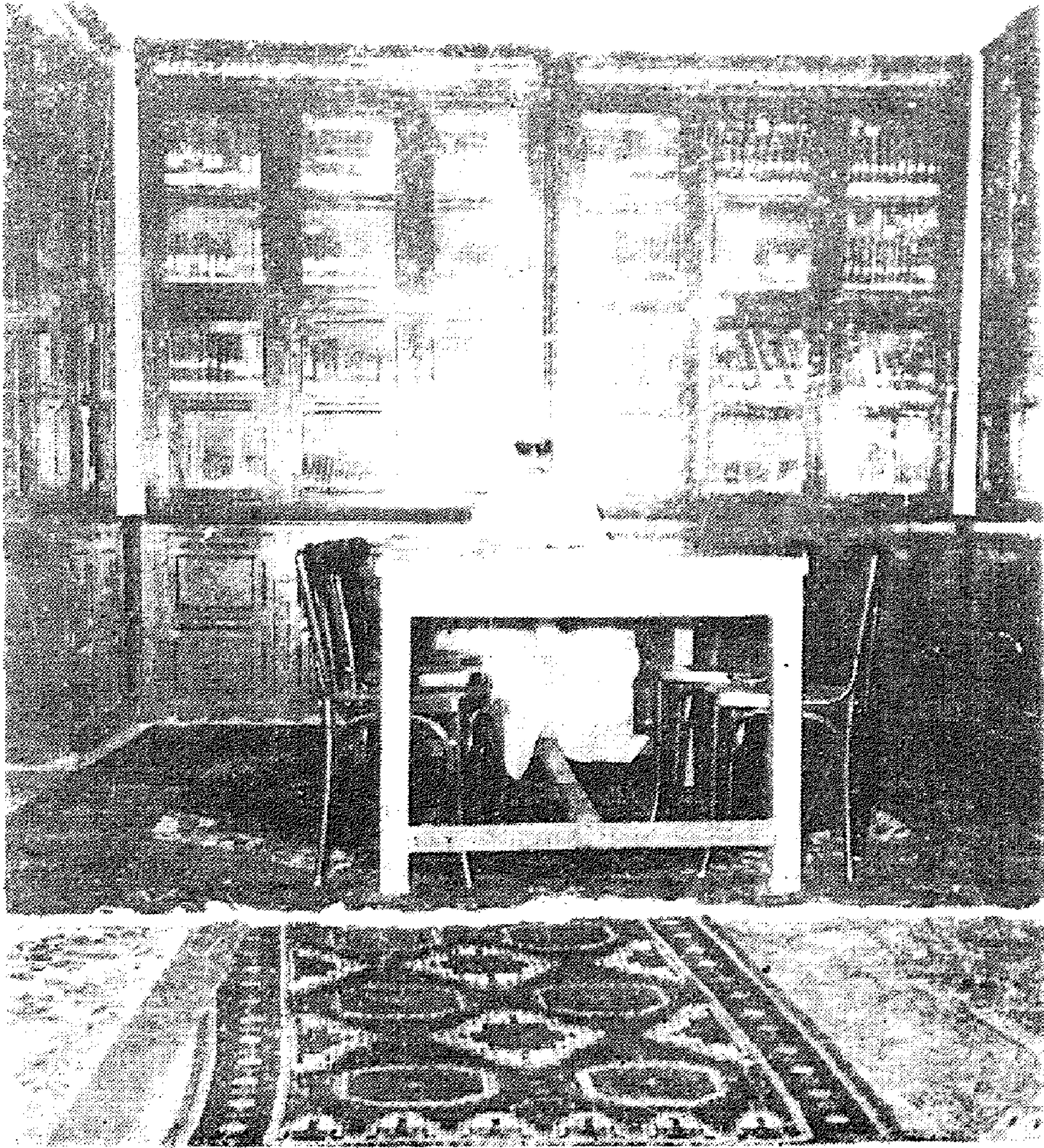
كما أن في مكة المكرمة (مكتبة الحرم المكي) فإن في المدينة المنورة زميلة لها هي (مكتبة الحرم المدني) .

وتعود نسبة هاتين المكتبتين للحرمين اللذين كانتا بداخلهما . ومكتبة الحرم المدني موضعُ البحث أُنشِئَتْ عام ١٣٥٢هـ [١] . والذي اقترح إنشاءَها بالحرم المدني هو السيِّد عُبَيْد مدني ، حينما كان مديراً لأوقاف المدينة المنورة في العقد السادس من هذا القرن الهجري الرابع عشر . وقد اقترح إنشاءها لتكون مَرْجعاً لطلاب العلم في الجامعة الإسلامية الأولى : المسجد النبوي . وكان أن رفع اقتراحه للمسؤولين في السنة المذكورة آنفاً ، فوافقت الحكومة السعودية على اقتراحه ، ومِنْ ثَمّ وُضِعَ موضع التنفيذ ، وافْتُتِحَت المكتبة ، إبّان إدارته للأوقاف ، وكان مقرها بالطبقة العلوية الخلفية من المسجد النبوي بناحيته الشمالية ، وحينما تولّى إدارتها السيّد أحمد ياسين الخياري رحمه الله ، فيما بعد ، ضَمّ إليها بمساعيه وبجهوده بعضَ المكتبات الخاصة كمكتبة الدكتور محمد حسين الهندي رحمه الله .

---

١ هذا التاريخ أخذته من السيد عبيد مدني شفوياً في شعبان ١٣٩٢ هـ . وفي كتاب « فصول من تاريخ المدينة المنورة » للسيد علي حافظ أن تأسيس الحكومة العربية السعودية للمكتبة كان في سنة ١٣٥٩ هـ (ص ٢٤٢ – الطبعة الأولى) .

كما أنه – أي السيد أحمد الخيري – أهدى لمكتبة الحرم المدني جُلّ كُتُب خزانته الخاصة . وقَدّمَ لها خزائن جميلة . ورتبها وفَهْرَسَهَا



قاعة المطالعة في مكتبة الحرم النبوي – المدني – يتصدرها أمين المكتبة الشيخ أحمد فارسي

وعُنِيَ بها عناية بالغة ، واهتم بضم المكتبات الأخرى في المدينة إليها لتكون منها « مكتبة عامة » للمدينة ، وبعد التوسعة السعودية للمسجد النبويّ وإزالة الطبقة العلوية الخلفية بالمسجد النبويّ في جهته الشمالية ومدّ بنائها إلى الشمال ، نُقِلَت المكتبة المشار إليها إلى مبنى « مكتبة المدينة المنورة » العامة التي أنشأتها وزارة الحج والأوقاف فيما بعد وكان مديرها الأول الشيخ جعفر فقيه . وخصص منها لمكتبة الحرم المدنيّ جناحٌ وُضِعَتْ فيه كُتُبُها . وهنا مدير وموظفون خاصون يديرونها أسوةً بالمكتبات الأخرى التي جُمِعَتْ في مبنى المكتبة العامة الواقع بالجَنُوب الغربيّ للمسجد النبويّ قريباً منه يفصل بينهما الممرّ الجنوبيّ (القِبْلِيّ) للمسجد .

(٤)

مسجد المصلى أو مسجد الغمامة

موقعه وصفته : هل كان مسجداً مبنياً في عهد الرسول ؟ متى اتخذ مكان المصلى مسجداً مبنياً ؟ إقامة صلاة العيدين فيه . عماراته .

موقعه وصفته

يقوم هذا المسجد * في جنوب غربيّ المناخة ، وهو اليوم مبنيٌّ بناء متقناً بالحجارة المطابقة ، ومُجَصَّصٌ من داخله وخارجه ، وذو قباب ستّ عالية ، تقوم على عقود تحتها أعمدة بيض نقية ، وبه رِوَاقَان ، وبِرُكنِه الشماليّ الغربيّ مئذنة قصيرة ، وبداخله محراب ومنبر ، وبقرب جداره الشماليّ مقصورة المبلغين ، .وبخلفه مكان مقبب ذو شُبّاكٍ خشبيّ هو الآن (كُتّابٌ) لتعليم الأطفال على المنهج القديم [1] .

* يبدو أن تسميته باسم مسجد الغمامة لا أصل لها وإنما هي من العوام .. وذلك حينما علموا من التاريخ والسيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في هذا المكان ، صلاة العيدين عندما كان المكان فضاء ، وكان العامة قد علموا من السيرة النبوية أن الغمام ظلل النبي (ص) في رحلته إلى بصرى فجمعوا بين الأمرين ، وسموا مسجد المصلى الذي كان يصلي فيه وهو فضاء ، بمسجد الغمامة .

١ كان ذلك حين تأليف الكتاب وفي طبعته الأولى بسنة ١٣٥٣ هـ .

وطول المسجد ٢٦ متراً وعرضه ١٣ متراً وارتفاعه ١٢ متراً ، وسُمْك جدرانه متر ونصف متر .

هل كان مبنياً في عهد النبي صلى الله عليه وسلم؟ :تجيب التواريخ عن هذا السؤال بالسّلْب .. فصلاته صلى الله عليه وسلم العيدين إنما كانت في فضاءِ هذه المُناخة التي عرفت بالمُصلّى لذلك . وكان ذلك من غير تخصيص بقعة . وأخيراً التزم الرسول الصلاة في موضع هذا المسجد قبل بنائه حتى لاقى ربه .

متى اتخذ المصلى مسجداً مبنياً

الوصول إلى مبدأ اتخاذه مسجداً مبنيّاً لا يخلو من عُسْر . وما لدينا من المراجع لا يشير إلى هذا. إلا أنه يفهم من فحوى ما رواه السمهوديّ نقلاً عن ابن شَبّةَ عن أبي غسّان الكنانيّ أحد أصحاب الإمام مالك بن أنس: أن المصلى كان مبنيّاً مسجداً في القرن الثاني الهجريّ .

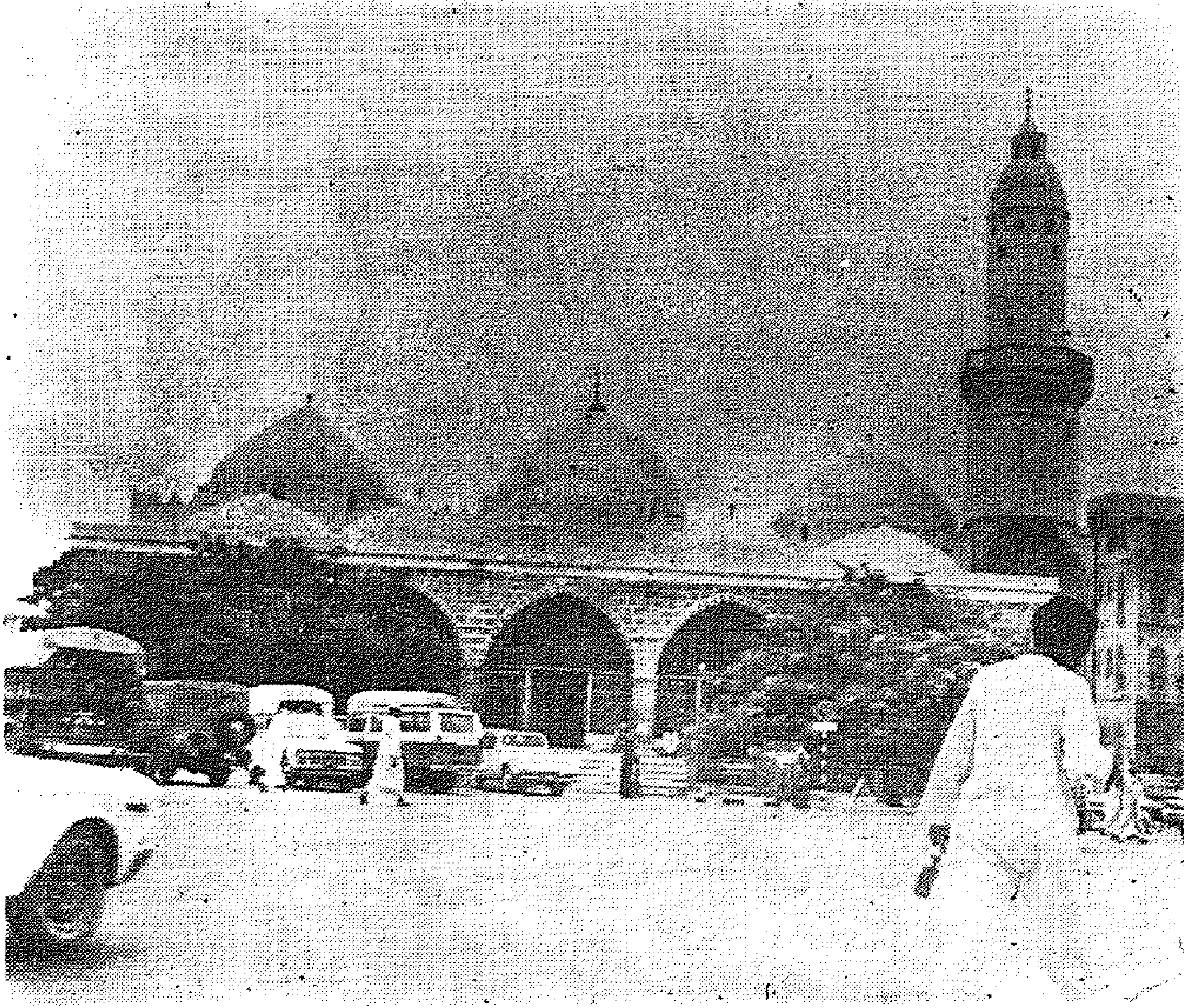
إقامة صلاة العيدين فيه

استمرت إقامةُ صلاة العيدين فيه إلى أواخر القرن التاسع ،ثم لا ندري هل ظلت بعد ذلك تُقام فيه أم نقلت عنه ؟ وقد أدْرَكْناها تُقام في المسجد النبويّ ولا نعلم البواعث التي حَمَلَتْ على هذا إلا أن تكون اتّساعَ المسجد النبويّ اتساعاً كافياً لصلاة أهل البلدة به جميعاً ، وضيقَ أطراف المُصَلّى بالمباني والعشش والدكاكين ، أو اختِلالَ الأمنَ في بعض العُهود السابقة ، أو رأيَ ذي نُفُوذٍ اقتضى هذا النقل بوقته .

عماراته

لا ندري شيئاً عن تفاصيلها من بدء بنايته حتى القرن السابع الهجريّ . وفي القرن الثامن الهجريّ عَمّرَهُ السلطان حسن حفيد قلاوون ،

وفي القرن التاسع الهجري جدده الأمير برديك المعمار . وفي القرن الثالث عشر جدده السلطان عبد المجيد العثماني [1] . وفي القرن الرابع عشر الهجري عمره السلطان عبد الحميد الثاني ، ولا تزال عمارته إلى عام تأليف هذا الكتاب ١٣٥٣هـ، وفي أواخر القرن الرابع عشر الهجري جددت الحكومة السعودية عمارته العثمانية مع إبقائها .



مسجد المُصَلّى أو مسجد الغمامة

١ منقوش في لوح خشبي معلق على جدار المسجد القبلي من الداخل ما نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله الآية . اللهم شفع النبي في مجدده السلطان عبد المجيد خان عز نصره » أ.ه

(٥)

مسجد الفتح

موقعه ووصفه ، نبذة من تاريخه ،
عماراته ، مسافة بعده عن المدينة ،
طريقه منها .

موقعه ووصفه

يقوم مسجد الفتح على سفح جبل سَلْعٍ في ناحيته الغربية . وهو يُشْرِفُ على مجرى سيلِ بُطْحَان ، وحوالى المسجد عَرْصَةٌ كان أهل المدينة بعهد الدولة العثمانية اعتادوا الخروج إليها في بعض الأحيان وينصبون بها خيامهم ، ويستعرضون الفِرَقَ المسماة بالوجـاقـاتِ .. كل فرقة لها موضع معلوم تُجْرِي فيه الألعاب الرياضية والتدريبات الحربية .. وقد بَطَلَتْ هذه العادة منذ نحو ١١٠ من الأعوام .

ومسجد الفتح من المساجد الموجودة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبناؤه الحاضر بالحجارة والجص ، وله دعامة واحدة في جَنُوبه ، لتقويته وإسناده ، وأمامه رحبة مُسَوَّرَةٌ بجدار قصير . وهو مُقَبَّبٌ طوله ٨ أمتار . وعرضه ٣ أمتار ، وارتفاعه نحو ذلك . وَيَصْعَدُ إليه الإنسان من مُرْتَقًى يُوصِلُه إلى سلم حَجَرِيٍّ عَدَدُ درجاته ١٢ درجة ..

نبذة من تاريخه

روى الإمام أحمد في مُسْنَده : أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا ربَّهُ في مسجد الفتح ثلاث مرات ، وفي الثالثة استجيب له . فَعُرِفَ البِشْرُ في وجهه . والأحاديثُ المرويةُ في هذا الصّدد تنص على أن دعاءه عليه الصلاة والسلام بهذا المسجد كان على الأحْزَابِ في غزوة الخندق .. ولـمَّا فَتَحَ اللهُ به على المسلمين من تَفَرّقِ الأحزابِ وعَوْدتِهم دون تحقيق ما خَطّطُوا له من القضاء على الإسلام في عقر داره الوَحِيدَةِ سُمّيَ المسجدُ بمسجد الفتح .

ومما تَحْسُنُ الإشارةُ إليه هنا : المَساجِدُ الخمسةُ الموجودة بجنوبيّ مسجد الفتح .. ففيها يقول السمهوديّ : « وما ذكره المطري من نسبة المسجدين المذكورين ، لِسَلْمَانَ [1] وعليّ رضي الله عنهما شائعٌ على ألْسِنَةِ النّاس ، ويزعمون أن الثالث الذي ذكر المطريّ أنه لم يبق له أثر : مسجدُ أبي بكر رضي الله عنه .. ولم أقِفْ في ذلك كله على أصل » أهـ . وتُسَمّى النخيلُ الواقعةُ شَمَالَ مسجدِ الفتح قديماً بالسَّيْحِيّ أو السَّيْحِ .

عماراته

طراز عمارته الأولى غامض . وتُرَجّحُ أنها كانت بالحجارة واللّبِنِ والجريد . وقد جدده الحسين بن أبي الهيجاء عام ٥٧٥ هـ . ثم جددته

---

١ مسجد سلمان أقرب المساجد إلى مسجد الفتح ، وفي أعلى محرابه لليوم حجر المسن الذي قال عنه السمهودي إن فيه تاريخ عمارة الحسين بن أبي الهيجاء له عام ٥٧٧ هـ وهذا يدل على أنه باق على بناية الحسين المذكور له . والملاحظ أن شكل بنائه يخالف ما عداه من بناء هذه المساجد ومنها مسجد الفتح .. فكلها مقبب . أما مسجد سلمان فمسنم البناء ذو أعمدة قوية قصيرة يشهد منظرها بقدم بنائه وقوته .

الدولةُ العثمانية بعد ذلك ، بدليلِ أنَّ حَجَرَ المِسَنِّ المرقومَ عليه تجديدُ ابن أبي الهيجاء له الواقعَ بأعلى قُبته على ما ذكره السمهوديّ غيرُ موجود اليوم ..

ويبعد مسجد الفتح عن باب البرابيخ بالمدينة نحو ٢٠ دقيقة بالمشي العادي [1] وطريقُه الأقربُ من المدينة إليه يبتدىء من هذا الباب ، فَمَجْرى بُطْحَانَ ، فالمسجد .

---

١ سبب اتخاذنا للمشي العادي للإنسان منهجاً لتحديد المسافات – سبق أن بيناه فيما سلف ، وهو ندرة السيارات حين تأليف الكتاب . وقد امتدت المدينة المنورة في السنوات الأخيرة واتسع عمرانها إلى كل الأطراف ، فتغيرت المسافات بطبيعة الحال – إلى المآثر والآثار بضواحيها ، تبعاً لهذا الامتداد . والكتاب أثري ، موضوعه الآثار بالمدينة ، ولهذا أبقيت على هذا المنهج في تعيين المسافات إلى الآثار ، لأنه يدخل ضمن آثار المدينة المنورة التي يحتفظ بها التاريخ ، وإن زالت معالمها وتغيرت خططها وأغفلها الناس تبعاً لتطور العمران ، وتمدده واتساعه وتغير أوضاعه .

(٦)

مسجد ذباب

ذُبابٌ أو ذُوبابٍ هو الجبل الصغير الأسود الذي يواجهك حينما تهبط من ثنية الوداع قاصداً جبل أحُدٍ على يسار طريق أحُدٍ بشمال المدينة . والمسجد الذي يقع فوق هذا الجبل مأثور .. روى السمهودي عن ابن شبة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في موضع هذا المسجد وقد ضَرَبَ الرسولُ قبة تركية على هذا الجبل في غزوة الخندق .

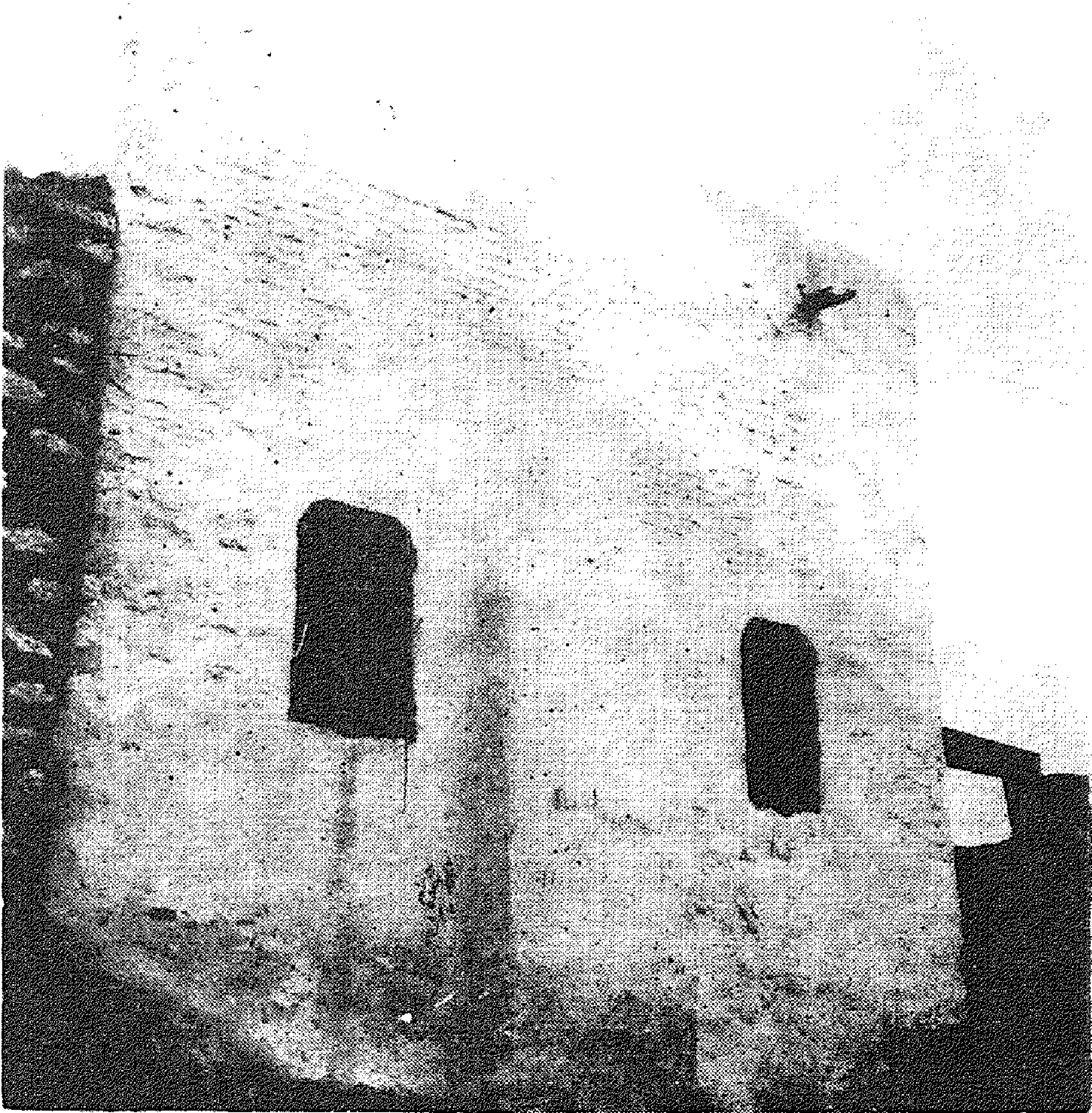
وقد حدد لنا السمهودي موضعه تحديداً علمياً مركزاً حينما قال : « ويُعرف – أي مسجد ذباب – اليوم . بمسجد الراية ولم يعرفه المطري ، قال : وليس بالمدينة مسجدٌ يُعرف غير ما ذكر إلا مسجداً على ثنية الوداع عن يسار الداخل إلى المدينة من طريق الشام». ثم عقب على قول المطري المذكور فقال : « قال الزين المراغي في بيان المسجد الأول – أيْ مسجد الراية – : « كأنه يريد به المسجد المعروف بمسجد الراية » ثم عقب على هذا التعقيب بقوله : « قُلْتُ : هو مراده لوجوده في زمنه ، ولم يَعُدّهُ في المساجد ، وأطلق على محله ثنية الوَدَاعِ لقربه منها .. وهو مبني بالحجارة المطابقة على صفة المساجد العُمَرِيّة » .

عماراته

تهدم فجدده الأمير جانبك النيروزي سنة ٨٤٥ هـ أو ٨٤٦ هـ .

أثريته

روى ابن زبالة وابن شبة أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على



مسجد ذُبَابٍ أو مسجد الراية

ذُباب . وعن أبي سعيد الخدري أنّ النبي ضرب قبته على ذباب [1] .

وكان هذا المسجد مبنياً بالحجارة المطابقة في القرن الثامن الهجري . وحالته كذلك إلى أواخر القرن الرابع عشر الهجري وهو مُجَصَّص ظاهراً وباطناً . وطُولُه ٤ أمتار في عرض ٤ أمتار ، وارتفاعه ٦ أمتار وقبته متقنة البناء والتجويف .

وقد أحاطت به المنازل إحاطة السوار بالمعصم وغَطّتْ عليه من كل جهة في السنوات الأخيرة . .

---

١ وفاء الوفا ص ٥٠ – ٥٣ المجلد الثاني . الطبعة الأولى بمصر .

(٧)

مسجد القبلتين

موقعه ووصفه ، نبذة من تاريخه ،
مسافة بعده عن المدينة وطريقه منها .

موقعه ووصفه

يقوم مسجد القبلتين على هضبة مرتفعة من حرة الوبرة [١] في طرفها الشماليّ الغربيّ بالنسبة للمدينة . وهو يُشْرِفُ على عَرْصَتَيْ وادي العقيق : الصغرى والكبرى .

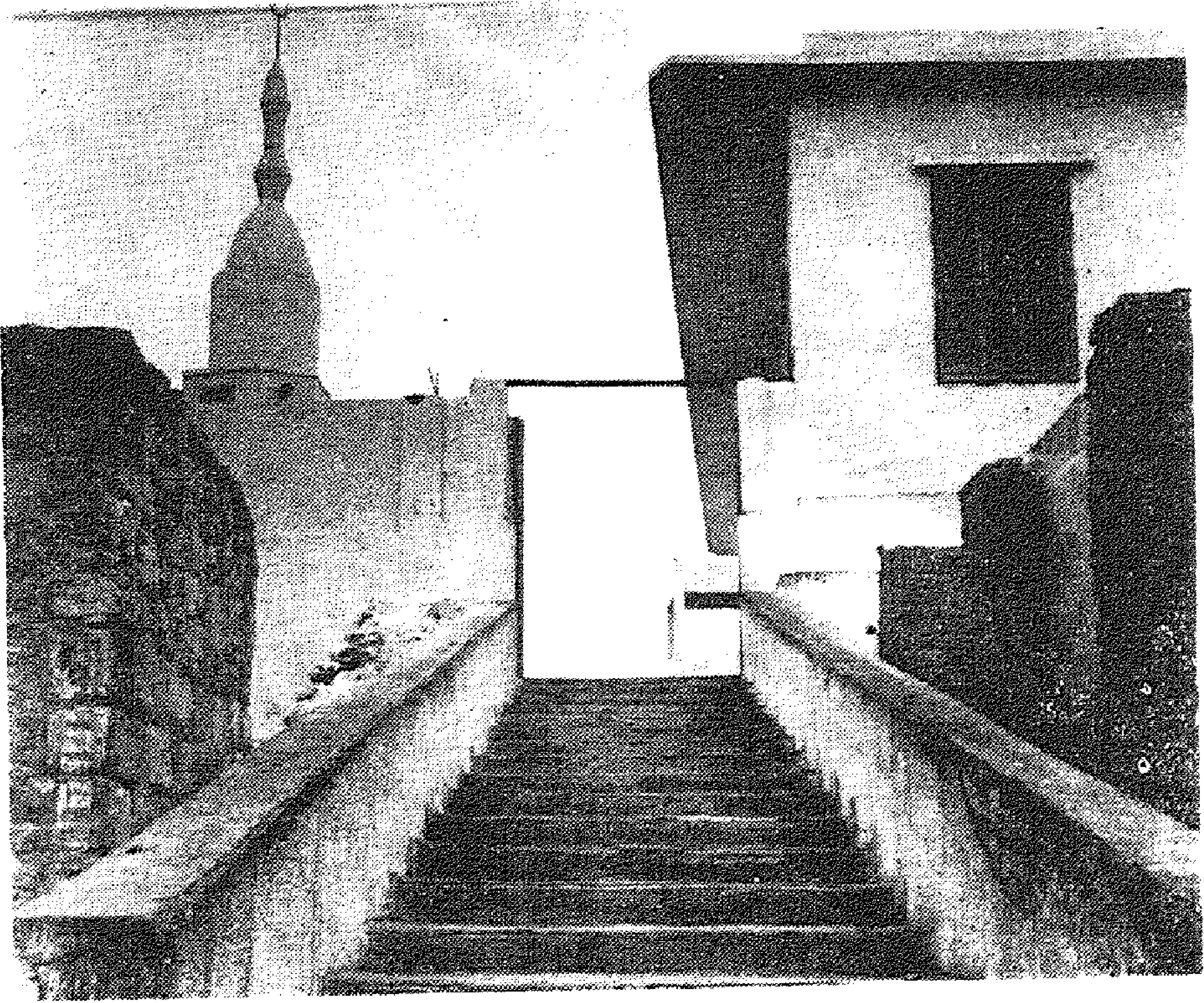
وينقسم المسجد في شكله الحاضر إلى شطرين : داخليّ وخارجيّ .. وفي القسم الداخليّ محرابٌ متجهٌ إلى الكعبة ، وفي الخارجيّ محرابٌ متجهٌ نحو الشام — الشـّمـَال — والمحرابُ الداخليّ مقببٌ ، طوله ٩ أمتار و٢٠ سنتيمتراً ، وعرضه ٤ أمتار و ٥٠ سنتيمتراً ، وارتفاعه نحو ٤ أمتار ونصف متر . وكلا قسمي المسجد مبنيّ بالحجارة المنحوتة والجير ، داخلاً وخارجاً ، مما يدلنا على أنه من آثار دَوْلة بني عثمان .

---

١ سيأتي تعريف حرة الوبرة في قسم الجبال . والحرار : جمع (حرة)

نَبْذَةٌ من تاريخه

صلّى النبيّ صلى الله عليه وسلم في هذا المسجد إلى بيت المقدس . وفيه أُمِرَ بالتحول إلى الكعبة . وقد كان هذا التحولُ مَظْهَرَ استقلالٍ عظيم للمسلمين ولدين الإسلام . أشعل في قلوب اليهود ناراً حامية من



مسجد القبلتين

الحقد الدفين . والحسد الشديد . فتقاولوا فيما بينهم : « مَا وَلاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الّتِي كانوا عَلَيْهَا » . فَرَدّ عليهم العليمُ الحكيمُ بقوله : « قُل لِلّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقيمٍ » .

هذا ولَمّا ذَكَرْناهُ من تَحَوّلِ القبلة في هذا المسجد من بيت المقدس إلى الكعبة سُمّيَ بمسجد القبلتين ، وهو اسم لا يزال يحمله إلى اليوم .

ولا نعلم عن تجديداته شيئاً بعد ذلك سوى أنّ شاهين الجمالي عمّرَه سنة ٨٩٣ هـ . ويحتمل أن بناءه بقي إلى أن جاء السلطان سليمان فجدده عام ٩٥٠ هـ ولا يزال بناؤه باقياً إلى اليوم كما هو منقوش على الحجر الرخامي الموضوع فوق مدخل المسجد .

مسافة بُعْدِهِ عن المدينة وطريقهُ منها

يبعد عن المدينة نحو ٤٠ دقيقة [١] . وله طريقان منها . أحدهما وهو الأقرب يبتدىء من باب البرابيخ. فغربيّ سفحِ سَلْعٍ ، فالحرّةِ الغربيةِ ، فالمسجد .

والطريقُ الثاني يبتدىءُ من الباب الشاميّ — فشرقيّ سَلْعٍ — فغربيّ سفحِهِ الشماليّ . فطريقِ بئر رُومَة — فَمَيْلٍ إلى الجَنُوبِ بِغَرْبِ فالمسجد .

١ كان أخذ قياس هذه المسافات بالمشي العادي للإنسان دون السريع وفوق البطيء . وقد سبق أن بينا في عدة هوامش من هذا الكتاب أن ذلك كان قبل دخول السيارات بكثرة إلى هذه البلاد . وجدير بالذكر أن هذه المسافات كانت قبل توسع عمران المدينة الحديث أسوة بغيرها من مدن المملكة العربية السعودية في الآونة الأخيرة .

(٨)

مسجد بني ظفر

موقعه ووصفه . حجر الرخام به .
جهته بالنسبة للمدينة . ومسافة بعده
عنها . وطريقه منها . نبذة من
تاريخه .

موقعه ووصفه

هذا المسجد مأثور وأطلاله باقية إلى اليوم . ويقع بطرَف حرّة وَاقِمٍ : (الحرّة الشرقيّة) فوق هضبة وطوله ٣ أمتار و٧٠ سنتيمتراً في عرض ٣ أمتار و٧٠ سنتيمتراً .

حجر الرّخام الذي هو به

ومن محاسن المصادفات ما أورده السمهودي من أنه رأى حجَر رُخام عن يمين محراب المسجد منقوشاً عليه ما صورته : « خلد الله ملك الإمام أبي جعفر المستنصر بالله أمير المؤمنين عمر سنة ثلاثين وستمائة » أ هـ .. فإنّ هذا الحجر نفسه قد رأيتُه أنا أيضاً ولكنه ليس على يمين محرابه ،

بل هو مُدْمَجٌ في حجارة بنايته . وهذا يؤكد لنا أن المسجد عُمِّرَ بعد عمارة المستنصر له [1] .

جهته بالنسبة للمدينة وبعده عنها وطريقه منها

سبق أن ذكرنا أنه يقع بطرف حرة واقم الغربيِّ فهو إذن في شرق المدينة. ويبعد عنها اعتباراً من بابِ الجمعة (باب البقيع) نحو ١٥ دقيقة[2] .

أمّا طريقُه منها : فمن هذا الباب ، فضريحِ فاطمة بنت أسد . فبُستانِ معاويةَ ، فَعَرْصَتِهِ . وبَعْدَها يتجه السالك في العرصة نحو الجهة الشرقية بجنُوبٍ – فالمسجد .

نبذة من تاريخه

روى السمهوديّ عن الطبرانيّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أتى بني ظَفَرٍ في مسجدهم هذا ، فجلس على الصخرة التي هي فيه اليوم (يومئذ) ومعه بعض الصحابة ، وأمر قارئاً فقرأ حتى أتى على هذه الآية :

« فَكَيْفَ إذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً » فبكى الرسول حتى اضطرب لِحْيَاهُ ، فقال : أيْ رَبِّ ! شهيد على من أنا بين ظهرانيه فكيف بمن لم أرَ ؟ !

---

١ ثم إني رأيت هذا الحجر بذاته مرة ثانية موضوعاً في خزانة زجاجية عالية ، بمدخل دار الكتب المصرية ، وعلمت من المدير العام لها أن شخصاً من أهل المدينة نقله إلى مصر فيما بعد وباعه الدار بثمن كبير .

٢ بالمشي المتوسط .

(٩)

مسجد السقيا

يقع هذا المسجد بقرب بئر السقيا بطرف حَرّةِ الوبْرة المُوالي للمدينة . وفيه يقول صاحب مرآة الحرمين تحت عنوان « مسجد السقيا » :

« السقيا بِئرٌ بِحَرّةِ المدينة الغربية . وهذا المسجد عندها . ومكانه الآن قبة شهيرة تُسَمّى بقبة الرّوس [1] عند باب العنبرية » أهـ .

والتحقيق أن مسجد السقيا أو قبة الرّوس بداخل بناية محطة السكة الحديدية في جنوب هذه البناية . والبئر بجنوب قبة الروس ، ويفصل بينهما طريق مكة .

وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم بموضع هذا المسجد ، ودعا فيه بالبركة لأهل المدينة ، وفيه نَطَقَ بأن المدينة حَرَمٌ كَحَرَمِ مكة .

وقد كان هذا المسجد مُنْدَرِساً غير معروف المكان حتى اكتشفه السّمهوديّ إذ وجده على بنايته العُمَرِيّة القديمة فأعيد بناؤه من جديد ثم اندرس بعد ذلك وبنيت بموضعه قبةُ الرّوس .

---

١ دفن بها بعض قتلى الأعراب في عهد حكومة الأتراك ويراها الإنسان بعد أن يخرج من باب العنبرية إلى طريق مكة بداخل محطة السكة الحديدية . وصيغة « الروس » بمعنى « الرؤوس » أي القبة التي دفن فيها رؤوس قتلى الأعراب في إحدى الفتن الأهلية بين الحضر والبدو في المدينة في أواخر العهد العثماني و « الروس » صيغة عامية وهي مخففة من « الرؤوس » وهي من عامية أهل المدينة حتى اليوم .

(١٠)

مسجد الإجابة
أو مسجد بني معاوية

يقع هذا المسجد في ضاحية المدينة الشرقية ، شَمَالِيّ البقيع في وسط العَرْصَةِ المقابلة (شَمَالاً) لبستان السَّمّان ، والمسجدُ مرتفع عما يحيط به . وهو اليوم خَرِبٌ ، وأمامه بئرٌ ذاتُ سُلّمٍ حَجَرِيّ ، وهي اليوم يابسة .

والمسجد مبنيّ بالحجارة وبالجير ، على طراز بنايات الدولة العثمانية . وطوله ١٠ أمتار في عرض ٨ أمتار ، وفيه محراب ، وكان ذا قُبّةٍ . ويفهم من قول ابن النجار إنه يعرف بمسجد الإجابة : أنّ هذا الاسم حادث له . أما اسمه الأصْلِيّ الواردُ في الحديث فهو مسجد بني معاوية . وبنو معاوية من الأوس الذين هم أحد جِذْمَيْ الأنصار .

في صحيح مسلم ما ملخصه . أن النبيّ دعا ربه في هذا المسجد وطلب ثلاثاً ، فأجاب دعوتين هما : عَدَمُ إهلاك أمّتِه بالغَرَق ولا بالسَّنَةِ ، ومنعه الثالثة وهي : أن لا يجعلَ بأسَهُمْ بينهم . قال السَّمهوديّ عقب

إيراده للحديث المشار إليه : « فهذا سببُ تسميةِ هذا المسجد بمسجد الإجابة »

وقد ذكر السمهوديّ أنه يقع « على يسار السالك إلى العُرَيْض وسط تُلولٍ هي آثارُ قَرْيَةِ بني معاوية » أهـ .

وهذان الوصفان منطبقان تماماً على المسجد القائم بوَسط العرْصة المذكورة آنفاً .. فهو قائم وسط تُلُولٍ تكتنفه من نواحيه : الشمالية والجنوبية والغربية . وهذه التُلُولُ على ما سبق آنفاً للسمهوديّ — هي أطلالُ قَرْيَةِ بني معاوية .. وربما لو نُبِشَتْ نبشاً عِلْمياً لَوُجِدَ فيها شيءٌ من آثارهم التي ربّما تفيدنا أكثر عن المجتمع الإسلاميّ الأول وطراز حياته .

هذا وفي الناحية الشرقية ، الطريقُ السالكةُ إلى العُرَيْض .

(١١)

مسجد البحير
أو مسجد السجدة

وضَعْتُ هذا الاسم للمسجد[١] الآتي وَصْفُهُ ، تعريفاً له . لأنّهُ مأثور على ما نص عليه المطري والسمهودي ولأني لم أجد له اسماً خاصاً فيما اطلعت عليه من المراجع .

مسجد البحير صغير جداً . وهو على صغره مربع . فطوله ٤ أمتار في عرض ٤ أمتار وارتفاع جُدُرِهِ متر واحد وهو مبني بالحجارة المنحوتة وغير المنحوتة ، وهو مكشوف. ويقول السمهودي : إنه « عند النخيل المعروف بالبحير »[٢] ومن مجاورته لهذا البستان الذي أدركناه ملكاً للمرحوم يحيى برّي أحد كُتّاب المحكمة الشرعية بالمدينة[٣] أطلقنا عليه اسم : « مسجد البحير » . أما تحديد موقعه بالنظر للحالة الحاضرة فهو أنّهُ في

---

١ سمى بعض الناس هذا المسجد في العقد الثامن من هذا القرن الرابع عشر الهجري بمسجد أبي ذر ، والمؤرخون والتاريخ لا يقران هذه التسمية فهي تسمية غير صحيحة والصواب ما جاء هنا والله أعلم .

٢ وفاء الوفا ص ٥٥ المجلد الثاني . الطبعة الأولى بمصر .

٣ يسمى هذا البستان في المدينة باسم (البحيري) .. بالتصغير وزيادة ياء النسب في آخره . وفي تاج العروس لمحمد مرتضى الزبيدي أن « البحيرة : المنخفض من الأرض (مادة بحر) .

وسط البراح الكائن بين البستان المعروف بالبُحَيْري وبين البساتين المعروفة بالصدقة . ويكتنفه من الجنوب والشمال طريقان موصلان إلى العُرَيْض .

وبستان البحيري المشار إليه آنفاً يقع في غرب هذا المسجد وبينهما نحو ثلاث دقائق . وقد روى البيهقي في « شُعَبِ الإيمان » حديثاً فيه : أن النبي صلى الله عليه وسلم صَلّى ركعتين في موضع هذا المسجد ، وسجد فيه سجدة طويلة جداً . فملاحظةً لهذه السجدة الطويلة أطلقنا عليه اسم « مسجد السجدة » . جُدِّدَ بناءُ مسجد السجدة في أواخر العقد الثامن من هذا القرن الهجري الذي نعيش في أواخره .

(١٣)

مسجد الفضيخ
أو مسجد الشمس

وصفه وموقعه ، طريقه ، نبـذة من تاريخه .

يقع هذا المسجد في شرقيّ قرية العوالي ، قريباً من الحـرّة الشرقية ، وهو لا يزال معروفاً بهذا الاسم بين أهل هذه القرية . وبناؤه متينٌ مرتفع . وطول المسقف منه ١٩ متراً في عرض ٤ أمتار . وله ٥ قباب ، ومحراب لا بأس به ، وبجانبه منبر ذو درجتين مُكـوّنٌ من حجارة وطين حُـلْـو . وللمسجد شُرُفـاتٌ وبناؤه بالحجارة المطابقة [١] وبالجصّ وشكل هذه البناية ينطق بأنها من آثار دولة بني عثمان . ولارتفاع موقع المسجد ، وطلوع

---

١ ظهر لي من تتبع ما ذكره المؤرخون القدامى عن طراز العمارات العمرية للمساجد المأثورة بالمدينة المنورة من أن تلك العمارات كانت بالحجارة المطابقة المنحوتة ، أن دولة بني عثمان اتبعت السنة العمرية في طراز ما قامت ببنائه من تلك المساجد .. فالعمارة العمرية للمساجد المأثورة بالمدينة كانت بالحجارة المطابقة وكذلك العمارة العثمانية .. ويبدو لي أن نسبة المؤرخين القدامى تلك العمارة إلى عمر ، إنما يقصدون بها النسبة إلى عمر بن عبد العزيز حينما كان أميراً على المدينة لا إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما .

الشّمسِ عليه أول شروقها سُمّيَ بمسجد الشمس . أما سبب تسميته بمسجد الفضيخ فَلإهْراقِ سِقَاءِ الفضيخ : « خَمْرِ التّمْرِ » به حين بلغ أبا أيوب في نفر من الأنصار خبرُ تحريم الخمر .

ومسجد الفضيخ مأثور . لصلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم بموضعه ست ليال ، أثناء حصاره لبني النضير .

والطريقُ المُوصِلُ إليه من المدينة هو : طريقُ العَوالي — فزقاق مُشَرّقٌ ، فالتواءٌ إلى ناحية الشّمال الشّرقيّ — فالمسجد .

قسم البلاطات

تمهيد

البَلاَطُ – بفتح الباء – لُغَةً : الأرضُ المفروشةُ بالحجارة أو بالآجرّ .. وقد بُلّطتْ أربعُ الجهات المتصلة بالمسجد النبويّ في زمن إمارة مروان بن الحكم لمعاوية على المدينة .. وهذه البَلاَطَاتُ ذوات فوائد هامة .. فهي تَصُدّ عادية السيول عن المسجد النبويّ . وتحول بينه وبين الغبار الذي كان يملأ آفاق المدينة،وفيها علاوة على ذلك مظهر من مظاهر التمَدْيُن ، وكان المأمول أن يعم البلاطُ نواحي المدينة وشَوارِعَها بعد ذلك ، تمشياً مع سننِ العمران ومقتضيات الحضارة ، ولكن المشروع وقف عند الحد الذي رسَمهُ مروان طيلة قرون حتى عُيّن رضا باشا الرّكابيّ العربيّ السوريّ محافظاً للمدينة عام ١٣٢٧ هـ فأزمع تبليط رصيفين في شارع العنبرية . وبالفعل بَلّطَ منها قسماً مُهِمّاً . وحال عَزْلُهُ دون إكمال مرامه . وبودنا أن تهتم بلدية المدينة بإتمام هذا البلاط وغرس الأشجار بأطرافه ، إذن لكانت سجلت لنفسها مزية عظيمة في تاريخ تجميل المدينة المنورة . وبخاصة إن هذا الشارع هو الذي يسلكه الزّوّار قبل كل شيء .

كذلك قام البوقريّ بتبليط العرصة الواقعة أمام مركز لجنة العين الزرقاء وذهب بالبلاط إلى نصف شارع العيني،فلو أتمه أو أتمته البلدية لكان له أوْ لهَا مفخرةً، خصوصاً إن هذا الشارع سيؤول إليه العمل إن قريباً أو بعيداً، وهو زيادة على هذا متصل بالمسجد النبويّ .

* * *

هذا وقد كانت كتابةُ ما ذكر آنفاً من أمنيات المؤلف راقم هذه السطور ، قيام بلدية المدينة بتبليط ما تبقى من شارع العنبرية ، وقيام البوقري بتبليط البراخ الواقع أمام مركز لجنة العين الزرقاء وما إلى ذلك. كان تسجيل كل ذلك حين تأليف هذا الكتاب عام ١٣٥٣هـ وقد أبقيناه على حاله .. تسجيلاً لتاريخ حقبة من آثار المدينة المنورة .. أما الآن سنة ١٣٩٢ هـ فقد بلّطت الحكومة السعودية أغلب شوارع المدينة بمادة الإسفلت المشتقة من النفْط وهي أكثر ملاسة واستواء سطوحٍ ، من البلاط الحجريّ بكثير .

(١)

البلاط الشرقي

هذا البلاط وضعه مروان بن الحكم بأمر معاوية بن أبي سفيان وهو ذو شعبتين : جنوبية وشمالية . وتمتدّ الجنوبية من طرف المسجد النبويّ داخلةً في زقاق الحَبَشَةِ ، وتنتهي عند العطفة الكائنة بعد القسم الشرقيّ من دار عثمان الكبرى المتخذ اليوم [1] داراً لمشيخة الحرم النبويّ . وتمتد الشعبة الشمالية من باب النساء . وتذهب مُشَرِّقَةً في زقاق البقيع المعروف بطريقِ البقيع وطريقِ الحارةِ [2] وتنتهي عند العطفة التي بعد رباط سيدنا عثمان الواقع في موضع داره الصغرى .

هذا الوصف وهذا التحديد . أوردهما السمهوديّ لهذا البلاط .. ونحن بأدنى تتبع ندرك أنهما مطابقان لواقع البلاط المبحوث عنه ، فهل — والحالة هذه — إنّ هذا البلاط هو عين البلاط السابق ، استطاع البقاء مدى ثلاثة عشر قرناً بفضل جودة وضعه ، ثم بما يُعْمَلُ فيه من إصلاحات ؟

---

١ أي يوم تأليف هذا الكتاب وطبعه لأول مرة ١٣٥٣ هـ .

٢ جرى العرف في المدينة على أنه إذا ذكرت (الحارة) مجردة من وصف أو إضافة فانما يعنى بها (حارة الأغوات) بشرقي المسجد خصة دون غيرها من حارات المدينة .

أم هو بلاط جديدٌ وُضعَ فوق القديم الذي صار مكبوساً تحته ؟ .

يميل رأينا إلى تأييد الشطر الأول لما يأتي :

أولاً — لأن حجارته متآكلة يبدو على هياكلها القِدَمُ .

ثانياً — لأنّ مجاريَ العين الزرقاء ، وهي من آثار ذلك العهد ، لا تزال موجودة خالدة بفضل الإصلاحات والترميمات التي تُجْرى فيها كُلَّما أحوج الأمر إلى القيام بها .

ثالثاً — لأنّ في استثناء السمهوديّ لما حول المسجد النبويّ من البلاط من الانطمار بالكبس — دليلاً على كون هذا البلاطِ هو البلاط القديمَ بعينه .

رابعاً — لِمَا هو مُلاحَظٌ إجمالياً من قِدَم عمارات حارة الأغوات وشوارعها وأبنيتها التي فيها هذا البلاط ، ولما هو مُشَاهَدٌ من انخفاضه ، حتى عن بقية شوارع الحارة وأزقتها — يتأكدُ قِدَمُهُ لدينا ، وأنه هو بلاط مروان بن الحكم .

(٢)

البلاط الشمالي

بعد إجهاد القريحة فَهِمْتُ من عبارات « وفاء الوفا » المضطربة أن البلاط الشمالي الذي أنشأه مروان حول ناحية من نواحي المسجد ، هو هذا البلاط الممتد من خارج « باب الرحمة » الواقع فيما بين جدار المسجد النبوي وبين الدور التي تقع بجانبه الغربي . وينتهي هذا البلاط عند زاوية المسجد الشمالية ، وبطرفه كان يقع أطمُ حَسَّانَ بن ثابت الأنصاري (فارع) الذي يقول فيه :

أرِقْتُ لِتَوْمَاضِ البُرُوقِ اللوامِعِ   وَنَحْنُ نشاوى بين سَلْعٍ وفارعِ

وبجانب البلاط كذلك الدار المعروفة من قديم بدار تميم الداري . وفي تسميتها بهذا الاسم يقول السمهودي : « ولم أقف على أصل تسميتها بذلك » وهي الآن مهدومة العلو ، وعلى ما بقي منها حجر منقوش فيه : « هذا بيت سيدنا تميم الداري رضي الله عنه سنة ١٢٨٠ » .

ومما يحسن إيراده أن هذه الدار كانت مَسْكَنُ السيد عبد الله السمهودي مؤرخ المدينة في القرن التاسع الهجري ، وكانت آلت إلى مِلْكِهِ ، على

ما أفاد به . وقد حدثنا بأنها كانت في الأصل قِسْماً من دار سُكَيْنَة بنتِ الحُسَيْن بن عليّ رضي الله عنهم .

وكذلك البَلاطُ الممتد من طرف زاوية المسجد النبويّ الشمالية المارّ من الباب المجيديّ والمنعطف بعدئذ إلى جهة باب النساء . هو قديم أنشأه مروان على ما ذكره ابن شبّة . وقد كان موجوداً في أواخر القرن السادس الهجريّ . حيث يقول ابن جبير في رحلته : « المسجد المبارك مستطيل وتحفه من جهاته الأربع بلاطاتٌ مستديرة به » .

والبلاط الممتد من باب الرحمة الذّاهبُ إلى الغرب والمنعطف إلى محلة الساحة — قديمٌ أيضاً . وقد ذكر السمهوديّ أنه كان مُمْتَدّاً في زمنه إلى ضريح مالك بن سنان رضي الله عنه . أما اليوم فينتهي إلى « حوش الجمّال » وكأنّ الباقي علاه الكَبْس أو اقتلعَتْ حجارته لأسباب مجهولة لدينا . وجدير بالذكر أنه لم يبق من البلاطات القديمة بشوارع المدينة سوى أجزاء صغيرة من بلاط شارع « سويقة » الذي لا يزال جلّ ما فيه أثرياً من دور ودكاكين ؛ ويبدو أن أمر هذه الأجزاء الصغيرة سيؤول إلى الزوال ، لطغيان صب الأسمنت على أرض هذا الشارع في الأمد الأخير .

(٣)

البلاط الأعظم بسوق الحدرة

يرجع تاريخ تبليط هذا الطريق إلى عهد إمارة مروان أيضاً . ويبتدىء بلاطه من باب السلام ، فإذا حاذى منهل عين الأزرق بغربيّ هذا الباب انقسم إلى شعبتين : شعبة تنعطف إلى الشّمال ، حتّى تتصل ببلاط باب الرحمة — الساحة . والشعبة الثانية تذهب من جنوبي المنهل المذكور إلى الغرب رأساً ، مُصْعِدَةً في تعاريج خفيفة حتّى تنتهي عند الباب المصريّ الذي هو — على ما نرى — باب سويقة الموصل إلى مُصَلّى الأعياد : (المناخة) وإذن فكما أصاب هذا البابَ تجديد في البناء أصابه تجديد في الاسم . كان منزل الحاج المصريّ ثم كان المحمل المصريّ يدخل منه فسماه الناس لذلك بهذا الاسم ، جرياً على المعتاد من نسبة الأمكنة إلى ما له علاقة بها قوية بارزة [1] .

---

١ من هذا القبيل ما رواه السمهودي من أن مروان لما عزم على تبليط بقيع الزبير ضمن بلاطات أطراف المسجد النبوي منعه الزبير وقال له : « تريد أن تنسخ اسم الزبير ويقال بلاط معاوية » . ولا يتنافى هذا السبب المزدوج مع ما ورد في التاريخ من أنه كان منزلة الحاج المصري قديماً فالتجديد لا يكون إلا للموجود .. وقد ورد نص في كتاب مرآة الحرمين لإبراهيم باشا رفعت ج ١ الطبعة الأولى بمصر — يقول عن هذا الباب : « ثم الباب المصري في منتصف الجهة الغربية=

وكان هذا البلاط (على ما يُفهم من فحوى أقوال المؤرخين) عبارة عن طريق يمر منها الناس إلى سوق المدينة بالمناخة . ولا ندري متى جعلت فيه هذه السوق المسماة بسوق الحدرة وسوق باب السلام ؟

وبمنتصف هذا البلاط مقعد بني حسين ويُعرَفُ قديماً بمقعد الأشراف أمّا دورُهُمْ فقد كانت بمجلة الساحة في فترة أو فترات من الزمن الماضي .

وبجَنُوبيّ هذا البلاط زقاق يوصل إلى المكان الذي يقال إن به كانت سقيفة بني ساعدة ويوصل إليه أيضاً زقاق مقعد بني حسين نفسه .

وكانت تطيف بالبلاط الأعظم دُورُ كثيرٍ من الصحابة . كَدَارِ سعد بن أبي وقّاص ، ودارِ عثمان بن عفان ، ودار أبي هريرة رضي الله عنهم .

ويقول السمهوديّ عن هذا البلاط « وقد علا الكبس على كثير من البلاط ، ولم يبق ظاهراً منه إلا ما حول المسجد النبويّ وشيءٌ من جهة بيوت الأشراف وُلاةِ المدينة » أهـ .

إذن فأغلب هذا البلاط مُسْتَحْدَثٌ قبل عصر السمهوديّ .

= وقد فتح هذا الباب محمد علي باشا ... و (بعد) تعميره للسور الداخلي » وهذا النص يثبت أن بناء الباب جديد ومنزلة الحاج المصري كانت سوحاً إما في مكان الباب أو بجواره من كثب ، ويوم عمر كان المحمل المصري موجوداً ، وكان يدخل منه . ولهذا رأينا جمع السببين معاً لهذه التسمية أخذاً بنص التاريخ القديم والحديث .

قسم الامكنة

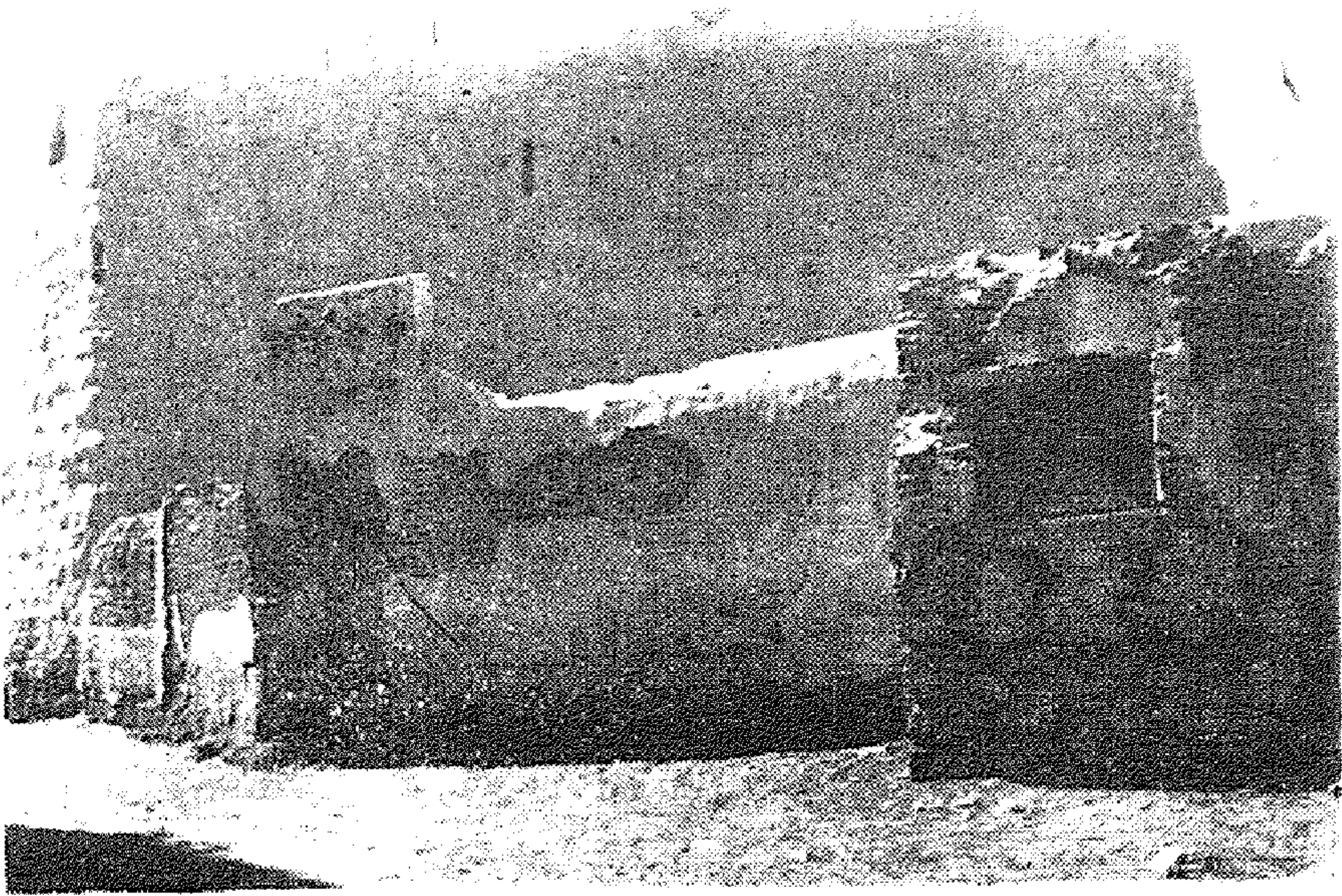
تمهيد

أتينا في هذا القسم بمتفرق الأمكنة الأثرية ، وابتدأنا بسقيفة بني ساعدة لأهميّتها الدينية والتاريخية معاً .

(١)

سقيفة بني ساعدة

لا نعلم متى بُنِيَتْ هذه السقيفة لأوّلِ مرّةٍ ولا فيما بعد ذلك من القرون . وغايةُ عِلْمِنا عنها أنها لبني ساعدة منذ الجاهلية القريبة من



مبنى سقيفة بني ساعدة قبل هدمه في مشروعات توسعة الشوارع ويرى جزء من سور المدينة الأثري من وراء المبنى

عصر الإسلام ، وأن النبيّ جَلس فيها . وأن بيعة أبي بكر بالخلافة تمت فيها .

وقد اختُلِفَ في حقيقة موضع سقيفة بني ساعدة ، فمن المؤرخين من يقول : إنها بداخل المدينة ، في جنوبيّ مقعد بني حسين ، ومنهم من يرى أنها بخارج سُورِ المدينة قريباً من بئر بُضاعة .. والمبنى القديم المنشورة صورته في هذا الفصل هو بهذا الموقع . اختلافٌ قديم جرى في حقيقة أثرٍ تاريخيّ إسلاميّ مهم . وشايع السمهوديّ أولاً رأيَ القائلين بأنها داخل المدينة جنُوبيّ مقعد بني حسين ، ثم رجع عن هذا الرأي ، جازماً بأنها قرب بئر بضاعة .. ونرى أن رأي السمهوديّ الأخير هو الصواب للنقاط الآتية :

أولاً — لأنهُ ثقة وعالم ومطلع ومُشاهِد .

ثانياً — لأن رجوعه إلى هذا الرأي كان مبنياً على دليل علميّ قويّ أدلى به في الجزء الثاني من وفاء الوفا ص ٦١ « الطبعة الأولى » .

ثالثاً — لِمَا وَرَدَ في كتاب محمد بن أحمد المطريّ من كون السقيفة بقرب بئر بُضَاعةَ ومَسْجِدِ بني ساعدة وأن السقيفة والبئر والمسجد في قريتهم [1] . وقد أشرنا فيما سلف إلى المبنى

---

١ وهذا نص ما جاء في كتاب « التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة » : « وذكر — أي ابن زبالة — أنه صلى الله عليه وسلم ، صلى في مسجد بني ساعدة من الخزرج رهط سعد بن عبادة وجلس في السقيفة..». وروي عبد المهيمن بن عباس بن سهل بن سعد عن أبيه عن جده : (سعد بن عبادة) قال : جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم في سقيفتنا التي عند المسجد واستسقى فخضت له وطبة فشرب ، وقال : زدني فخضت له أخرى فشرب ... ثم قال المطري : « وفي هذه السقيفة كانت بيعة أبي بكر الصديق الأولى رضي الله عنه .. وقرية بني ساعدة عند بئر بضاعة والبئر وسط بيوتهم » ص ٧١ طبع مطبعة فؤاد الصيداوي بدمشق ونشر السيد أسعد طرابزوني . ويبدو جلياً من هذه النصوص ما يلي: أولا : إن مسجد بني ساعدة في قريتهم وقد=

الذي كان قائماً هناك باسم سقيفة بني ساعدة ، وتحديدُهُ بالدقة أنه كان بخارج الباب الشامي في الطريق المعروف بالسّحَيْمي المتجه شرقاً من الباب الشامي إلى باب بصري من خارج السور مُلاصِقاً له ، وهو بناء ذو شرفات مكشوف مجصص ، وبابه مسدود وبجانبه قبة صغيرة كانت تعرف بشيخ النمل . والمشهور عن هذا البناء أنه هو سقيفة بني ساعدة وبنايته التي أدركناها ، من آثار علي باشا سنة ١٠٣٠ هـ ويؤيد أنه السقيفة قربُهُ من بئر بضاعة ، وقد هُدِمَ هذا المبنى ووسّع بمكانه شارع السحيمي .

رابعاً — ونضيف من عندنا قرينة رابعة وهي أن ضواحي المدن الواسعة الرحاب هي أجدر بإجراء المشاورات الجماعية الكبرى في الأمور الحيوية الجسيمة كمهمة الخلافة .. وهذه المزية إنما تتحقق في ضاحية المدينة الشّمالية قرب بضاعة التي يقع فيها مبنى سقيفة بني ساعدة الذي شاهدناه .. بخلاف مقعد بني حسين فهو بداخل البلد . ولا يتسع كما يلوح لوجود جماهير المسلمين المتشاورين في أمر الخلافة العظيم عقب انتقال المصطفى (ص) إلى الرفيق الأعلى .

خامساً — إن منازل بني ساعدة هناك ، وليست بمقعد بني حسين وفق النصوص المتقدم ذكرها .

= صلى به المصطفى (ص) . ثانياً : إن سقيفتهم ومسجدهم وبئرهم – بئر بضاعة – في قريتهم جميعاً وقد أيد السمهودي رأي المطري هذا وقرر أنه – أي المطري –قال : « إن قرية بني ساعدة عند بئر بضاعة والبئر وسط بيوتهم وإنه أي المطري ذكر ذلك في بيان مسجدهم وسقيفتهم » ص ١١ المجلد الثاني الطبعة الأولى بمصر .

(٢)

الخندق

مُسْتَفيضٌ في الكتب ذِكْرُ قِصّةِ حَفْرِ النبيّ صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه لهذا الخندق الحربيّ في عام الأحزاب . وقد تم حفره من شماليّ المدينة الشرقيّ إلى غربيّها . وكان حَدّهُ الشرقيّ . طرفَ حَرّةِ واقم . وحدّه الغربيّ . غربيّ وادي بطحان حيث طرفُ الحرة الغربية (حَرّة الوَبْرة) .

وعلى هذا فالخندق على ما نتخيل كان يُشَكّلُ شبه نصف دائرة طَرَفُها الغربيّ يقع غربيّ مسجد المُصَلّى ، والشرقيّ عند مبتدأ حرة واقم في الشّمال الشرقيّ .

والخندق مطمور اليوم فلا يُعرف موضعه بالتحديد ، ولكونه من الآثار الإسلامية المهمة بهذه البلدة عَزَمْتُ على اكتشافه عِلْمياً وعَمَلياً وقد مضيتُ قدماً في محاولتي لاكتشاف موضعه حتى عثرت أخيراً على نص صريح من عالمٍ مدنيّ قديم مُشَاهدٍ أقنعني بالعدول عن محاولتي . قال المطريّ :

« وقد عفا أثر الخندق اليوم (القرن الثامن الهجري) ولم يبق منه شيءٌ يُعرف إلا ناحيته . لأنّ الوادي واديَ بطحان استولى على موضع الخندق وصار مسيله في الخندق ». وترى رسمه التقريبيّ المستند على المعلومات التاريخية المتوافرة بصدده في خريطة المدينة الأثرية التقريبية التي وضعها المؤلف لكتابه هذا ، وطبعت معه في طبعته الأولى .

(٣)

ثنية الوداع

معنى الثنية في اللغة : الطريقُ في الجبل . وقد اختلف المؤرخون في حقيقة المكان المُسمّى بثنية الوداع حتّى وصل الاختلاف ببعضهم إلى القول بأنها بمكة [١] وانقسم الذين يرون أنها بالمدينة إلى فريقين : فريقٍ يقول إنها المُدَرّجُ الذي ينزل منه إلى بئر عُرْوة بالجنوب الغربيّ للمدينة . وفريق يقول إنها : « المعروفة بذلك في شاميّ : (شماليّ) المدينة بين مسجد الراية الذي هو على جبل ذُبَاب ، ومشهد النفس الزكية يمر فيها المارّ بَيْنَ صَدَّيْن مرتفعين قرب سلع » [٢] . — وبهذا الرأي جزم السمهوديّ وقد حاول تفنيد كل رأي يخالفه .. على أنا نقول : أما إثباته أن هذه الثنية التي بين هضبتي سلع هي ثنية الوداع فذلك ما لا نعارضه فيه ، لأنه مقبول ومعقول ، وعليه دلائل علمية متوافرة ، غير أن محاولةَ دحْضه

---

١ لسان العرب ج ١٠ ص ٢٦٧ .

٢ جاء في تعليقات المرحوم الشيخ ابراهيم فقيه ما نصه : « ثنية الوداع هي الموضع الذي عليه القرين ويقال له اليوم « القرين التحتاني » ويقال له أيضاً كشك يوسف باشا. ويوسف باشا هوالذي نقر الثنية ومهد طريقها للسالكين في حدود سنة ١١١٤ هـ » أهـ .

وإنكارُهُ لتسمية المُدَرَّج بثنية الوداع فيه ما فيه ، خصوصاً وقد تضافرت تصريحات جماعة من العلماء الأعلام قديماً وحديثاً على تسميته بثنية الوداع أيضاً .

وكما أن أهل المدينة كانوا يُوَدِّعونَ المسافر منها إلى ناحية الشام من الثنية التي هي بطريق الشام فكذلك لهم أن يُوَدِّعوا المسافر إلى جهة مكة من الثنية الواقعة بطريق مكة ، ويحق لكلٍ من الثنيتين بهذا النظر أن تُسمّى ثنية الوداع لقيام معنى الثنية الذي هو الطريق في الجبل والوداع بكل منهما ولاشتراكهما فيه فكلتاهما مركز لتوديع المسافرين [1] .

هذا وكان الصّدّ (الهضبة التي بشرقيّ ثنية الوداع الشامية) ثكنة عسكرية اليوم وهي التي أشار إليها الشيخ إبراهيم فقيه . وأما صَدّها الغربيّ فَخَالٍ من أيّ بناء حين أُلّف هذا الكتاب . وكان مرتاداً للمتنزهين في ساعات الأصائل الجميلة لاحتجاب الشمس في هذه الأوقات وراء سَلْعٍ من جهة ، ولإشراف هذا الموقع على المدينة وعلى أكثر ضواحيها وبساتينها وجبالها النائية والقريبة من جهة أخرى .

أما ثنيةُ الوداع التي هي في طريق مكة فتشرف على وادي العقيق وتحيط بها الحَرّةُ من كل جانب :

وإحدى الثنيتين هي التي عناها الولائد الأنصاريات في نشيدهن الابتهاجيّ بقدوم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعِ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ

---

[1] يوافقنا العباسي في تاريخه للمدينة على هذا الرأي .



ثنية الوداع

ويرى بجانبها الغربي شطر من جبل سلع وبجانبها الشرقي القطعة المفصولة من جبل سلع وتعرف باسم « القُرَيْن » تصغير قَرْن

والدلائل القوية التي ساقها السمهودي تجعلنا نرجح أن الثنية المقصودة بدخول النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة منها هي الثنية الشامية .

ومن الطرائف ما ذكره صاحب « مرآة الحرمين » من أن ذوات الخدور أنشدن عند قدوم النبي صلى الله عليه وسلم هذين البيتين :

أشْرَقَ البَدْرُ عَلَيْنَا وَاخْتَفَتْ مِنْهُ الْبُدورْ
مِثْلُ حُسْنِكْ مَا رأيْنَا قَطّ يَا وَجْهَ السّرورْ [1]

فهل خَفِيَ على ابراهيم باشا رفعت ما يحمله هذان البيتان من أثقال الركاكة العامية فنسبها إلى عَصْرٍ كانت تفيض فيه البلاغة الشعرية على ألسِنَةِ العرب بالسليقة ؟ أم إنه أوردها اعتماداً على رواية مُلَفّقة لا أصلَ لها ؟ اللهم لا ندري أي ذلك كان !! ولكننا ندري ونجزم بأن البيتين المذكورين ليسا من شعر ذلك العهد الزاهر بتاتاً .

١ مرآة الحرمين ج ١ ص ٤٦ .

(٤)

سوق المدينة ، أو المناخة

في وفاء الوفا : « عن عمر بن شبّة عن عطاء بن يسار قال لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل للمدينة سوقاً أتى سوق بني قَيْنقاع ثم جاء سوق المدينة فضربه برجله وقال : هذا سوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج » [١] .

والسوق المشار إليها تسمى بالمناخة ، وهي بالجملة وحسب واقعها الحاليّ عبارة عن فضاء واسع مستطيل بناحية المدينة الغربية تبتدىء حدودُها الأصلية من مسجد المصلّى إلى قلعة الباب الشاميّ ، وتجد رسمها بالخريطة الأثرية التقريبية لآثار المدينة .

وفيها اليوم حوانيت أغلبها مبني بالحجارة والطوب والنورة ولها تقدمات. وشوارعها منظمة بالنسبة لما كانت عليه في زمن دَوْلَتَي بني عثمان والأشراف حيث كانت في عهد الدولة الأولى ضيقة معوجة متداخلة . وفي الحرب العالمية الأولى هدمها فخري باشا حاكم المدينة العسكريّ ولا ندري لأيّ

---

١ وفا الوفا ج ١ ص ٥٣٩ .

غرض ؟ اللهم إلا إذا كان قصده تشغيل بعض العاطلين ، لإعطائهم من الأجور ما يسد بَعْضَ رَمَقِهِمْ في ذلك الظّرف الحربيّ القاسي ، ثم جاءت الحكومة الهاشمية فبنت عليها أكواخاً من صفائح التنك وظلّتْ على هذه البناية حتّى أوائل عهد الحكومة السعودية . فأعيدت إلى ذويها وبنيت بناية عادية .. وَمَكَثَتْ على ذلك حتّى دخل الانتعاش الاقتصاديّ المدينة المنورة كسائر مُدُنِ المملكة بعد السّتّينَ من هذا القرن الهجريّ الرابع عشر ، فتطور بناؤها تدريجياً حتّى أصبح فيها عمارات سَكَنية شامخة ودارات ودكاكين ومعارض ، وازدانت بصب الإسفلت على جميع أرضها المكونة من تراب ناعم مِغْراقٍ مُغْبَرٍّ مملوء بالملح ، فاختفى التّراب ، وهَمَدَ الغبار الذي كان يؤذي تطايره المارة في عيونهم وثيابهم وأجسادهم . وازداد وضع المناخة تحسناً وتطوراً بإنشاء الحدائق والميادين فيها المحاطة بسياجات من حديد مصبوغ . وبإنارتها بالكهرباء المتوهجة فوق أعمدة رشيقة مستديرة ، وبوضع نافورة في الجهة الشمالية من حدائقها .

وبهذه السوق أهمّ المأكولات والمجلوبات من البادية والمبيعات الوطنية والمستوردة من كل لون وجنس . وكان في المناخة عمارات البلدية والشرطة وقيادة الـهَجّانَة [1] ثم أزيلت عمارة قيادة الهجّانة المعروفة بالسبيل قرب قلعة الباب الشاميّ كما أزيلت هذه القلعة بخذافيرها ، وهدم مبنى البلدية وأدخل ذلك في توسعة الشارع ، وعُمِّرَ للبلدية مبنى حديث ضخمٌ

---

[1] الهجانة ، يراد بها في عرف أهل هذه البلاد : الجنود المخصصون بركوب الذلائل من أجل تأديتهم لمهامّهم العسكرية في البراري والأرياف والطرق الموصلة بين المدن والقرى .

في الشطر الجنوبي الشرقي من المناخة .

أما الشرطة التي كانت في البناية المعروفة بالخالدية نسبة إلى خالد باشا فقد أزيلت الخالدية وبنت الحكومة السعودية عوضاً عنها عمارة ضخمة للشرطة كما بُنِي لإدارة البريد عمارة ضخمة بجوار عمارة البلدية الجديدة ، بدلاً من المكان الذي كانت به سابقاً قرب الباب الشامي .

(٥)

قباء : غوطة المدينة المنورة

تقع المدينة المنورة في أرض تحيط بها حرّتان : شرقيةٌ وغربيةٌ ، وجبال كبار ومتوسطة وصغار . من أكبرها : جبلا أحُد وعَيْرٍ ، ومن أوسطها : جبل سَلْعٍ والجمَاوات الثلاث .. ومن أصاغرها : جُبَيْلاتُ سُلَيْعٍ والمُسْتَنْذَر وعَيْنَيْن « جبل الرّماة » وثَوْرٍ ..

وتحيط بالمدينة من أربع جهاتها قُرىً مجاورة .. بعضها نَضِرٌ مغمور بالبساتين ذواتِ الأشجار الظليلة والروائح العطرية الفواحة .. وتعتبر هذه القرى ضَوَاحيَ للمدينة .

وفي شمال المدينة بعيداً عنها ثلاثة كيلومترات مجموعةُ قرى جبلِ أحُد ومن هذه قريةُ خيفِ الثّنايا . وقريةُ خيفِ العُيون . وقرية خيف الزّهْرة . والقرية التي أحدثت بجنوب جبل أحد مُجافيةً له تارة ومقاربة له أخرى .. وتمتاز هذه القرى أو هذه الخيوف بكثْرة النخيل وجودة ثمارها . وهذه القرى منخفضة المستوى عن مستوى سطح المدينة كما هو مُشَاهَدٌ بالعيان .

وفي شرق المدينة غير بعيدٍ عنها « مجموعة قرى الحرّةِ الشرقية

وينطوي تحتها قرية خيف الصّدَقة أو بساتين جُشم « دَشَم » ومعاوية ، وما إلى ذلك ، حتى العُرَيْض وما يحاذيه من البساتين المحدثة بشَمَالِه ، والمنازل المُنْشَأةِ في تلك البساتين وبجوارها ، ومطار المدينة وما إلى ذلك ، وهذه المنطقة أعلى مستوى من سطح أرض المدينة في الغالب .

وفي غرب المدينة مجموعة قرى « العقيق » بقسميه : الصغير والكبير ، حيث تمتد مزارع سُلْطَانة والأحساء « ذي الحُلَيْفَة » الذي هو ميقات الحجاج الذاهبين إلى مكة من المدينة وما إلى ذلك مما أنْشِيء حديثاً من المنازل والحدائق .



قُباء : غُوطَةُ المدينة المنورة

وفي جنوب المدينة توجد « مجموعة قرى العَالِية » وتشمل هذه القرى المكتظة بالحدائق الغُلْبِ المتلاصقة ، وبالآثار المطمورة والشاخصة في

داخل الحَرَّةِ وفي خارجها . وهذه المجموعة يمكن تصنيفها إلى هذه الأقسام :

١ — قرية قباء .

٢ — قرية جفاف (قُرْبان) .

٣ — قرية العوالي .

٤ — قرية الحَرَّةِ الجنوبية الشمالية المستحدثة على أنقاض قرية قديمة (اندثرت) من عهد بعيد .

وقرية قباء ، بما امتلأت به من حدائق ممتدة ومجمعة في شتى أنحائها وبما لَطُفَ من هوائها وازدان به جمالها تُعتبر من بين قرى ضواحي المدينة .. « غُوطة المدينة » . وهي من هذه الناحية لا تختلف عن « غُوطة دمشق » . المناظر كالمناظر والهواء سَجْسَجٌ كالهواء .. وكل شيء فيها يضع أمامك صورة جميلة من غوطة دمشق في أبهى روعتها المنسابة في جداولها وفي ظلال نخيلها وأشجارها المتكاثفة وفي خفة نسماتها العِذاب ، وفي سحر جَوّها ولطفه ، وصحته ، وشعور الإنسان فيها بقسط كبير من البهجة والمتعة والصفاء .

يوجد في هذه المنطقة بستان الجِزْع .. وهو من أقدم بساتينها ومن أجملها ومن أكثرها اكتظاظاً بأشجار العنب والرّمّان والفواكه والنخيل .. وفيه سِدْرَةٌ عريقةٌ ضخمة تعتبر أثراً من آثار المدينة المنورة لأنّ لها نحو خمسمائة عام وهي ثابتة الجذور ضخمة الجذع شامخة الفروع والغصون .

والمنطقة الممتدة من بستان الجزع شَمَالاً إلى ما قُبيل مسجد قباء جُنُوباً في عرض متسع هي المنطقة التي يصح أن يقال عنها بحق إنها غوطة المدينة بالذات .. فان السائر فيها أو المتنزه بها . أو القائل فيها ، يشعر

بغبطة غامرة وانشراح عميق . ومتعة كبيرة فارعة .. ذلك أن ظلالها ظليلة ، وسوانيها فيما سبق ذات ألحان شجية تبعث البهجة والفرحة في أرجاء الصدور ، ومكَينَاتُ ضخّ مائها بأخَرَةٍ تملأ القلب سروراً بِرَنّات مثاني موسيقاها المتعاقبة المنسجمة المشجية .. وحينما تداعب أصابع النسمات العِذَابِ ، قُدُودَ غُصون الأشجار تستمع إلى نغمات « جوقة » فنية مبدعة وممتعة .

(٦)

النقا وحاجر

موضعان طالما تَغَنّى بهما الشعراء . وهما متجاوران متلاصقان . وكلاهما في ناحية المدينة الغربية .

يبتدىء النّقا من الشاطىء الغربيّ لمسيل بُطْحانَ المعروف اليوم بأبي جيدَة . ويذهب النّقا مُغَرِّباً حتى ينتهي عند بئر السقيا الواقعة جنوب محطة السكة الحديدية الحجازية . ومن بئر السقيا (حذاء قبة الرّؤس) يبتدىء حاجر إلى نهاية حرّة الوَبْرة غرباً .

ومن الممكن أنّ السبب في تسمية البقعة الأولى بالنقا هو : نقاوة هوائها وصفاء تربتها من المكدرات كما أنه من المحتمل أن يكون منشأ تسمية البقعة الثانية بِحَاجِرٍ هو : ملاحظة ما فيها من الحجارة .

والنّقا اليوم معمور بالدور الأنيقة والقصور الفخمة وفي بعضه بناية محطة السكة الحديدية الحجازية . ذات الأعمدة الرشيقة والعقود البديعة والأماكن المُسَنَّمَةِ المبنية على الطراز الحديث . وأمامَ هذه البناية في جنُوبها الشرقيّ مسجد فخم ذو قبة شامخة . ومئذنتان رشيقتان شاهقتان احتمى عن العين بانحرافه عن القبلة قليلاً . وبشرقيّ هذا المسجد عمارةٌ

المُجَمَّع الحكوميّ السعوديّ الحديث الذي حل محل الثكنة العسكرية العظيمة الرحيبة . وقدّامَهُ مبنى التكية المصرية ذات البناء الجيد والرحبة الواسعة.وَهُنَاك دُوُرُ آل جعفر ودارُ المرحوم السيد محمود أحمد . ودار الخريجيّ وعمارات سكنية حديثة جميلة الطراز وعمارة المواصلات لشؤون الهاتف الآلـيّ وقد حلت محل دار الإمارة في عهد الحكومة السعودية. ودار الإمارة من البنايات القديمة .

ويشقّ هذه العمارات إلى المحطة شارعٌ واسع من أجمل شوارع المدينة وأطولها وأعرضها ولو نال حظاً من العناية فأكْمِل رصيفاه وغرست بجانبيه الأشجارُ ورصف بالحجارة المنحوتة أو كبس بهذا الرمل الأحمر لجاء آية في الجمال ولَمَثَّلَ للجيل الحاضر ذكريات النقا الماضية حقيقيّتها وخياليّتها أروع تمثيل [1] . .

ولا غرو أن يستثير منظر النقا وحاجر أخيِلَةَ الشعراء . فهواؤهُم عليل . وجوهم لطيف . وإن الإنسان ليشعر فيهما بنشاط روحيّ وابتهاج نفسيّ . وَيَتَلَمَّسُ سر ذلك فلا يجده إلاّ في جمالهما الطبعيّ الجذاب.

١ العبارة المبتدأة بقولنا : « ولو نال حظاً من العناية فأكمل رصيفاه » والمنتهية بقولنا : « ومثل للجيل الحاضر ذكريات النقا الماضية حقيقيتها وخياليتها أروع تمثيل » هذا القول كما ينبغي أن يلاحظ القارىء أني كنت كتبته سنة تأليف هذا الكتاب وطبعه أي قبل نحو أربعين عاماً خلت. أما الآن فقد سفلت هذا الشارع وأكمل رصيفاه ، وأنشىء بميدانه أمام محطة السكة الحديدية حديقة ذات بهجة للناظرين ، بخلاف الدور والقصور الحديثة .

وقد أبقينا العبارة المتقدمة لتدل على فترة تاريخية غير بعيدة من تاريخ عمران لمدينتنا وطبعته إذ ذاك . وليعرف القارىء كيف كان حال هذا الشارع وكيف صار .

(٧)

المنحنى

كنت أقول في نفسي : إذا كان ما بغربيّ وادي بُطْحَانَ يسمى بالنقا ، فبماذا يسمى ما بشفيره الشرقيّ إلى مسجد المُصَلّى ؟ كُنْتُ أُورِدُ هذا السؤال على نفسي فلا أجد له جواباً : حتى عثرتُ عفواً. وأقول : عفواً، لأن هذا القول هو عين الحقيقة. فقد عثرتُ في « وفاء الوفا » على أن ما بشرقيّ وادي بُطْحَان إلى مسجد المُصَلّى يُسَمّى بالمُنْحَنَى .

وقد أورد السمهوديّ شاهداً ، أو مثالاً على ذلك في بيتين للشيخ شمس الدين الذهبيّ هما :

تَولى شَبَابِي كَأنْ لَمْ يَكُنْ وَأقْبَلَ شَيْبٌ عَلَيْنَا تَوَلّى
وَمَنْ عَايَنَ المُنْحَنَى والنّقا فَمَا بَعْدَ هذينِ إلاّ المُصَلّى

وأهمّ العمارات القائمة بالمنحنى اليوم : دارُ الحكومة ودارُ الخريجيّ التي نكتب هذا والعمارة جارية فيها [1] .

[1] كان ذلك يوم تأليف الكتاب وطبعه لأول مرة . أما اليوم فتوجد بالمنحنى عمارات سكنية ضخمة حديثة ، وقد هدمت دار الحكومة أو دار الإمارة وبني في مكانها عمارة كبيرة شامخة للهاتف الآلي بالمدينة . وهي تابعة لوزارة المواصلات السعودية .

(٨)

سور المدينة

يبتدىء تحصينُ المدينة الحربيّ من حادثة حفر الخندق في غزوة الأحزاب . أما تسويرها من أجل الدفاع عنها فقد كان من سنة ٢٦٣ هـ حيث بَنَى محمد الجَعْدي عليها سُوراً في ذلك الوقت . وقد جدده جمال الدين الأصفهاني عام ٤٥٠هـ، فالملك العادل نورُ الدين محمود بن زنكي عام ٥٥٨هـ، فبعض ملوك الإسلام سنة ٧٥٥هـ، كما تناوله التجديد في القرن التاسع الهجري أيضاً . وفي عام ٩٤٦ هـ بَنَى السلطان سليمان العثماني سُورَهَا الموجود إبان تأليف هذا الكتاب . وبناؤه بالحجارة والجِص وهو مُحْكَمُ البناء للغاية ، سَمِيكٌ للنهاية ، شامخٌ جِداً . وله من الأبواب : الباب المصري . البابُ الشامي . بابُ قُبَاء ، باب بصري . البَابُ المجيدي . بابُ الجمعة. بابُ الحَمَّام . الباب الجديدُ . أما البابُ الصغير فقد هدمه فخري باشا مع ما حوله من السُّور إبّان الحرب العالمية الأولى ، ثم هُدِمَ أغلبُ أجزاء هذا السور فيما بَعْدُ في عهد الدولة السعودية حيث الأمن مستتب في أنحاء البلاد منذ تأسيس هذه الدولة ، ولم تعد للمدينة حاجة إلى

سُورٍ يحميها من غارات البادية التي انتهت بابتداء قيام الدولة العربية السعودية . وكان في هَدْمِ هذا السّور فوائدُ جَمّةٌ للمدينة ، منها ما هو عُمْرانيّ إذ اتّسَعَتْ رقعتها للنهضة العمرانية الحديثة بزوال هذا الحاجز بين داخلها وخارجها . ومنها ما هو صحيّ بانطلاق الهواء بين أرجاء منازلها التي كانت مكتومة الأنفاس مسدودة المنافذ ، بسبب قيام هذا السور وإحاطته بها من كل الجوانب .

(٩)

البقيع

البقيع في اللغة هو الموضع الذي يكون به أصول الشجر المختلفة . والبقيع هو مقبرة المدينة الوَحيدَةُ منذ عصر الرسالة إلى اليوم ، دفن فيه ما يقرب من عشرة آلاف صحابيّ وصحابية . ودُفِنَ به أمّهاتُ المؤمنين وأبناء النبيّ صلى الله عليه وسلم وبناتُه . ومن أجَلّ الصحابة المدفونين به : الخليفةُ الثالثُ عثمان بن عفان رضي الله عنه .

أما الخليفتان : الأول والثاني : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فهما مدفونان مع النبي صلى الله عليه وسلم في الحجرة العاطرة بالمسجد النبويّ . وفيه من التابعين : نَافِعٌ شيخُ الإمامِ مالكِ بن أنسٍ . ومن تابعي التابعين : مَالكُ بنُ أنَسٍ وغيرهما .

والبقيعُ عبارة عن بقعة مستطيلة بشرقيّ المدينة خارجَ سورها قريبة من باب الجمعة . وطُولُها ١٥٠ متراً في عرض ١٠٠ متر ، وهو مُسَوَّرٌ من جميع النواحي ، وعلى بابه كتابة تدل على أن هذا التسوير من آثار دولة بني عثمان[١] .

---

١ الكتابة المنقوشة على باب البقيع هي : « هؤلاء بقيع شريف » ...

هذا وقد رُمّمَ سُورُ البقيع في عهد الدولة السعودية . وكانت بجانبه من الناحية الشّمالية ملتصقة به أرضٌ تابعة لوقفِ عثمان بن عفان التابع للمغاربة . أخذَتْهَا مكتبُ مشروع التوسعة لتبقى سوحاً وقد أحاطتها إدارة أوقاف المدينة بسياجٍ حديديّ لِصَوْنِها .. وتقع بعدها مباشرة إلى الشّمال أرض كبيرة كانت ملكاً للأشراف وقد امتلكها بالشراء منهم الأستاذ عبد الحق نقشبنديّ ، ثم أخذت منه بتعويض ماليّ وسُجِلَتْ وقفيتها على مصالح المسجد النبويّ وهي باقية سُوحاً، كما كانت تعلوها أكوام عالية ومزمنة من قمائم البلد فأزيلت منها القمائم المتراكمة عليها وبذلك زادت مساحة البقيع كثيراً عما كانت عليه في العهود السابقة .

(١٠)

يثرب

يثرب اسم كان يطلق في الجاهلية على جميع المدينة ومنه قوله تعالى حكاية عن المنافقين : « يَا أهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ » على أن حقيقة المُسَمّى به هو إحدى قرى المدينة وأكبرُها الواقعةُ في الشمال منها . وعن ابن عباس أن يثرب في الأصل كان اسماً لابن عبيل الذي هو أوّلُ من نزل المدينة . وإلى ابنه المذكور سُمّيَت البلدة يثرب .

أما (يثربُ) القريةُ فتمتد على ما حكاه السمهوديّ من طرف وادي قناة شرقاً إلى طرف الجُرْف غرباً ، ومن زُبالَةِ الزّجّ جَنُوباً إلى البساتين التي كانت تعرف بالمال شَمَالاً .

والشطران الأخيران من هذا التحديد وهما « زبالةُ الزّجّ والمالْ » حقيقتها مجهولة لدينا الآن . ومن باب التقريب والاستنتاج يمكننا أن نقول : إن المال هو بعض بساتين العيون في الشّمال الغربيّ ، وإنّ زُبَالة الزّجّ هي قرية من قرى المدينة كانت بشماليّ سَلْعٍ إلى قرب وادي قناة اندثرت آثارها فلم تعد معروفة . وقلنا إنها قَرْيَةٌ بناء على قول السمهوديّ عنها : « كان لأهلها أطُمَانِ ». وقَوْلِه : « وكان بالمدينة في الجاهلية سوقٌ

بزبالةَ من الناحية التي تُدْعَى يثرب » . وبعد كتابة ما تقدم تبين لي مما نقله السمهوديّ أن حدود يثرب تتمثل في الأرض كثيرة النخيل غربيّ مشهد سيدنا حمزة ، وشرقيّ البركة التي هي مصرف عين الأزرق [1] .

ويشاهد بجوانب البستان المعروف بخيف السيّد الذي هو أول قرية أو خيف العيون آثارُ بنايات متداعية يُشاعُ أنها أطلالُ مَسَاكِنِ اليهود الذين كانوا مقيمين بيثرب ، وعلى هذه الأطلال تُحَاكُ شتى الروايات والأقاصيص ... وتحقيق كونها من بقايا مساكن اليهود يحتاج إلى شواهد عملية وتلك هي إجراءُ التنقيبات الأثرية فيها [2] . لا سيما وقد جاء في بعض الروايات أن بني حارثة من الأنصار ، قد استوطنوا يثرب بعد نزوح اليهود عنها بمدة مديدة . وليس اليهودُ أوّلَ من سكن يثربَ القريةَ الشمالية في المدينة . فإنّ اسمَها (يثربَ) يدل دلالة واضحة على سكانها الأوائل قبل اليهود الذين منهم (يثرب) العربيّ الذي سميت به .

---

١ وفاء الوفا ص ٧ المجلد الأول طبع مصر سنة ١٣٢٦ هـ .

٢ دعا المؤلف في هذا الفصل وفي غيره من فصول كتاب آثار المدينة المنورة وفي عديد من المقالات التي نشرها بمختلف كتبه ، وفي الصحف المحلية سواء أكانت جرائد أم مجلات ، وفي مجلة المنهل خاصة – دعا إلى إعمال التنقيب كأداة فعالة وحيدة لإبراز واكتشاف آثار الأوائل في كثير من أنحاء المملكة .. وكانت دعوته إلى ذلك جهيرة وقديمة وأولية . ولم أطلع على من سبقه إليها من كتاب هذه البلاد أو غيرهم . ونحمد الله فقد بدأ تحقيق هذا المطلب العلمي الفعال يلوح في الآفاق بانشاء ادارة للآثار في وزارة المعارف السعودية ، وبصدور نظام الآثار في أواسط عام ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٢ م .

(١١)

زغابة

في القاموس : « زُغابة بالضم موضع قرب المدينة » . أما تحديد موقعها فهو أنها تقع بآخر العقيق ، غربيّ قبرِ حمزة رضي الله عنه . وتجدها مرسومة بهذا الوصف في الخريطة الأثرية التقريبية التي وضعها المؤلف لكتابه هذا ، واعتمدها وأخذَ صورة طبق الأصل منها الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه : (في منزل الوحي) . وبزغابة كان نزول قريش في غزوة الخندق .

ويَصُبّ فيها سيلُ العقيق ووادي قناة وبُطْحَان . وبالجملة هي مَجْمَعُ سُيُولِ المدينة كما هو مذكور في التواريخ ومُشَاهَدٌ بالعين .

(١٢)

الغابة وبركة الزبير

ما كان لنا أن نُغْفِلَ ذِكْر الغابة وقد ذكرنا يثرب وزُغابة ...

الغابةُ لغةً : الأرضُ ذات الشجر المتكاثف . وهذا الوصفُ ينطبق من جميع الوجوه على الغابة التي تقع بشماليّ المدينة . غربيّ جبل أحُدٍ .

وقد تَوجّهْنا في ظُهْرِ يومٍ من أيام عام ١٣٤٩ هـ ، إلى هذه الغابة بقصد الاطلاع والتّنزّه معاً . وكنا ممتطين صهْوةَ سيارة لُوري كبيرةٍ يملكها المرحوم السيد محمود أحمد . ونحن معه فيها قاصدين استكشافَ هذه الغابة من جانبيها : الجانبِ المُوالي للمدينة والجانبِ الآخر المُوالي للشّمال .

فلما تَجاوزْنا خَيْفَ العيون متجهين إلى الشّمال الغربيّ دخلْنا في أرْض رملية ألْقتنا إلى أرض مُسْبِخَةٍ ساخت فيها عجلاتُ سيارتنا الكبيرة واشتد زَفيرها كأنما تستغيث بنا مِن هَول هذه الأرض المغراق . فنزلنا عنها ودفعناها ، فاندفعت ، وامتطيناها ثانيةً فما هي إلا بضع دقائق حتى عادت إلى سيرتها الأولى ، فتركناها في مكانها ، وقلنا لأقْدَامِنَا : تَقَدّمي أنتِ إلى الأمام . ومضينا حتى بَلَغْنا حدود الغابة ... فَهَالَنَا

مَنْظَرُها المُوحِشُ الكئيب الذي شاهدناه من خلال جذوع أشجارها وفُروعها ، ودخلناها في تأمل وعلى مَهل ، في شبه اشمئزاز وتَحَرّزٍ يسوقنا حُبّ الاطلاع ، ويَحْدُونا حُبّ التَنَزّه . .

أما الاطلاع فأمر معقول ومقبول . وأما التنزه فلا تنزه بهذه الأجَمَةِ المُخيفَة ذات الشقوق الهائلة الغائرة في باطن الأرض التي احتفرتها السيول بقوة تيارها . وقد لاحظنا أنه بأطراف هذه الشقوق تقوم شُجَيْرَاتٌ متكاثفة من الأثل والطَرْفاء القصيرة الشبيهة في شكلها الباهتِ الصامت بالعجائز العابسة الكالحة الوجوه ... وَسِرْنَا في الغابة متماسكين ومتقاربين خَوْفاً من الضّياع . وبعد أن تَعَمّقْنَا فيها قليلاً شاهدنا آثارَ وَطْأةِ حَيوان كبيرٍ قال بَعْضُنا : إنه أثرُ سَبُعٍ ، وقال بعضُنا الآخر : بل إنه أثرُ نَمِرٍ ، وعلى كُلّ فهو داهية دهياء ... وما كدنا نقارب الجبل الذي بِطَرَفِهَا الشمالي الغربي حتى اسْتَوْقَفَنَا الدّليلُ الأعرابيّ وحَذّرَنَا من تجاوز هذا الموضع قائلاً : « في ذلك المكان – مُشيراً إلى موضع من الغابة – غَديرٌ لا يخلو من ماء متكدر . تحوم حوله أنواعُ الحيوان وقد يقع فيه السائر من دون قصد ، فيعسرُ خروجه لشدة وَحلِه » . وعُدْنَا أدْراجنا ننفض غَبَرات التقزز والاشمئزاز حتى وَصَلْنا سيارتنا ، فامتطيناها وعُدْنا إلى المدينة ، وفي نفوسنا أثرٌ من كآبةِ منظرِ الغابة وإيحاشها ، وأثرٌ من خيبة آمالنا في استكشافها .

نَقَلَ السمهوديّ : « أن الزّبَيْرَ بن العوّام كان قد اشترى الغابة بمائة وسبعين ألفاً (لعلها دراهم) وَبِيعَتْ في تَرِكَتِهِ بألفِ ألف وستمائة ألف » . ومَعْنَى ذلك أنه عَمّرها واستثمرها ، حتى بلغت قيمتُها بعد إصلاحها وتعميرها أضعافاً مضاعفة .. وقلتُ في نفسي – وأنا أتأمل وضع الغابة الحاليّ وأقارنه بما ذكر – : سبحان الله أكان ذلك في هذه الغابة الموحشة المقفرة من الزرع والنبات والنخيل في هذا العصر وفيما قَبْلَ

هذا العصر ؟ حقّاً إن هذه الأماكن كالبشر تسعد ثم تشقى ، وتشقى ثم تسعد . ولا ندري متى تَحُفُّ السعادةُ الغابةَ بعد هذا ؟ .

وبشرقيّ الغابة قريباً من سَفْح أحُدٍ الشماليّ بِرْكَةٌ مربعة في نهاية الكِبَرِ . والاتساع ، وضخامة البناء ، وجَوْدَتِه ، مُجَصَّصةً ظاهراً وباطناً . وهي مشهورة باسم بِرْكَةِ الزّبَيْرِ ، إلى اليوم . ولعلها كانت تَسْقِي أراضيَ الزّبير وفي مقدمتها هذه الغابة في عهد ازدهارها واستثمارها .

وطُولُ هذه البركة ٢٤ متراً و٧٥ سنتيمتراً ، في عرضٍ مِثْلِه . وعُمْقُها مترٌ و٢٥ سنتيمتراً ، وسُمْكُ جدرانها ٣ أمتار و٧٥ سنتيمتراً . ولها ستة مصارف . ويأتيها الماءُ من عين الزّبير .

ومع ضخامة هذه البركة وخُلُودِها لم يرد لها ذِكْرٌ فيما اطلعتُ عليه من تواريخ المدينة .

وجديرٌ بالذكر أن عبد الله السليمان وزير المال في عهد المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، قد عَمَّرَ هذه البِرْكَةَ . وأجْرَى إليها الماءَ من عَيْنِها الأثريةِ المطمورة وشَرَعَ في إحياء أراضيها الواسعة .

(١٣)

المهراس ، أو المهاريس

فسل المهراس ما ساكنه   بين أفراس وهام كالحجل

عبدالله بن الزبعرى القرشي

« مِهْراس — بالكسر ثم السكون ، وآخره سين مهملة — : ماء بجبل أحُدٍ قاله المُبَرّدُ . وهو معروف بأقصى شِعْبِ أحُد ، يجتمع من المطر ، في نُقَرٍ كبار وصغار هناك . والمهراس اسم لتلك النُّقَرِ [١] . رُويَ أن النبي صلى الله عليه وسلم عطش يوم أحُدٍ فجاءه عليٌّ في درقته بماء من المهراس فَوَجَدَ لَهُ ريحاً فعافه وغسل به الدَّم عن وجهه وصَبَّ على رأسه » أ هـ — هذا ما جاء في « وفاء الوفا » في صدد تعريف المهراس . ونلاحظ عليه أنهما — علاوة على المهاريس الصغيرة — مهراسان لا مهراس واحد ، أحَدُهما يقع بأقصى شِعْبِ أحُد من الجهة الشرقية . وطريقه يتصل بالطريق الصاعد إلى البناء المعروف اليوم بِقُبّة هارون ،

---

١ ناقش السهيلي في الروض الأنف ج ٢ ص ١٥٨ هذا الرأي وقال : إن المهراس يطلق على كل حجر منقور يمسك الماء. على أنا نقول: مع صحة استدراكه قد يكون هذا الاسم العام خصص لهذا المهراس الذي هو بأحد وصار علماً له بالغلبة كالمدينة .

الواقع فوق قِمّة أحد . والمهراس الثاني يقع في الناحية الغربية . وطريقُه وَعرٌ يضطر راكبه لتسلّق بعض الصخور المرتفعة فيه . ومن قُصُورِ تعريفات مؤرخينا القدماء تراثا لا ندري أيّ المهراسين الذي جيءَ للنبي صلى الله عليه وسلم بالماء منه : ألشرقيّ أم الغربيّ ؟ كما أننا نجهل أيهما الذي عناه ابن الزّبعرى في بيته المارّ ذكره [1] .

وكلا المهراسين مَقِيلٌ للمتنزهين اليوم ، لوجود الماء العذب القُرَاح فيها . وبخاصة في فصل الشتاء ، لكثرة هطول الأمطار بالمدينة في هذا الفصل . فتنساب المياه من أعالي هضاب الجبل إلى هذه النّقَر فتمتلىء وتفيض على المهاريس وغيرها . وبذلك يتجدد ماؤها ويصفو ، فيصبح لَذّةً للشاربين . وإذا انقضى الشتاء ، ومكث الماءُ بالمهراسين أمداً طويلاً ، أو تأخر نزول المطر عن وقته . فإن ماءهما يتغير طعمه ولونه وريحه ، وتعلوه قِشْرَةٌ من الطّحْلُبِ ويتوالدُ فيه حيوانُ الماء فلا يصلح للشرب . ونستنتج من هذا البيان ، ومما سبق ذكره من وجود النبيّ صلى الله عليه وسلم ريحاً بماءِ المهراس ، حين قُدّمَ له ، في غزوة أحُد ، أنّ هذه الغزوة إما أنْ تكون وَقَعَتْ في موسم الصيف أو في وقتٍ تَقَدّمَهُ عَدَمُ نزولِ الأمطار بالمدينة بمدة مديدة . وإذا تأخر هطولُ الأمطار زَمَنَاً أطول غاضَ ماء المهراسين كما شاهدناه مِراراً .

والطريقُ إلى المهراسين : من قُبور شهداءِ أحُدِ . ويتجه إلى الشّمال ، وبعد نحو ربع ساعة بسيْرِ الأقدامِ العاديّ يفترق الطريق إلى شُعْبَتَيْن : شُعْبَةٍ تذهب إلى الشرق الشّماليّ تُوصِلُ إلى المهراسِ الشرقيّ ، وشعبةٍ تتجه إلى الغَرْبِ الشّماليّ تُوصِلُ إلى المهراسِ الغربيّ .

---

1 يصح أن نستخرج من قوله في بعض الروايات : « ما ساكنه بين أقراس » أن الذي قصده هو المهراس الشرقي لإمكان وصول الخيل إليه . أما الغربي فمستحيل أن تصله ، لما في طريقه من الصخور المرتفعة التي ليس في مقدور الخيل صعودها مطلقاً لأنها ملس علاوة على ارتفاعها .

(١٤)

المناصع

المَنَاصِعُ لُغَةً: مَوَاضِعُ يُخْتَلى فيها لقضاء الحاجة. وأحَدُها منصع. وقد كانت بخارج المدينة في شرقيها ، وكانت للنساء ومنهن أزواجُ الرسول عليه الصلاة والسلام .. يَقْصِدنَها لقضاءِ الحاجة ليلاً قَبْلَ اتخاذ الكُنُف بالبيوت ، على مذهب العرب . وموقع المناصع بناحية بئر أبي أيوب ، شماليّ البقيع ، ولعلها كانت تكون في العَرْصَةِ بالجنوب الشرقيّ من هذه البئر .

وطريقُ المناصع في عهد استعمالها ، هو زقاقُ المناصع بشرقيّ المسجد النبويّ . وكان هذا الزّقاق غيرَ نافذٍ في القرن التاسع الهجريّ وكذلك حاله اليوم [١] .

في شرقيّ المسجد النبويّ الآن [٢] . زقاقان ضيقان ، غيرُ نافذين ..

---

١ أي يوم تأليف هذا الكتاب بسنة ١٣٥٣ هـ .
٢ أي وقت تأليف هذا الكتاب أيضاً .

فالزقاقُ الذي يلي البابَ المجيديّ [1] يُعْرَفُ بزقاق رِباطِ النّخْلَةِ . والذي يلي باب النساء يُعْرَفُ بزقاق البُدُور .

ولِمَّا ثبت من كون أمّهات المؤمنين كُنّ يخرجن إلى المناصع ، ولكون زُقاق البُدُور هذا يلي بَابِهِنّ – هذين الأمرين نرى أنه هو : زقاق المناصع .. ولا يُنافي هذه النظريّة عدمُ نَفَاذِهِ إليها الآن كما لا ينقص من قيمة هذا الرأي تسميةُ الزقاق إلى اليوم بزقاق البدور ، فكلّ من عدم النفاذ وتَغَيّرِ الاسم . حادثٌ .. أما الأول فبسبب بناية السّور على المدينة ، وأما الثاني فلما يحصل دائماً من تغير الأسماء بأسباب مختلفة مع بقاء المسميات .

وكنتُ لاحظتُ أنه قد يكون في تسمية زقاق المناصع بزقاق البدور دلالةٌ معنويةٌ وخفيةٌ على أنه هو .. ذلك لأنّ معنى (البُدور) لُغَةً : الإسراع إلى الشيء ..

والإسراع من لوازم من يريد قضاء الحاجة في مكان بعيدٍ كالمناصع ، وبخاصة إذا كان حابساً نفسه طول النهار . كما هو شأنُ النساءِ في عهد اتخاذ المناصع ولا يُنافي هذا ما ورد في التاريخ من سُكنى البدور من الأشراف بهذه الجهة . فقد يكون ذلك من مصادفات اتفـــاق الأسماء والمسميات .

وفي تعليقات الشيخ إبراهيم فقيه ، ما يفيد بأن زقاق البدور هـــو زقاقُ المناصع .

---

[1] الباب المجيدي هنا يعنى به احد ابواب سور المدينة القديم الذي أزيل أكثره فزال الباب المجيدي هذا معه . وليس المقصود منه هنا الباب المجيدي أحد أبواب المسجد النبوي الذي مر ذكره في فصل : « المسجد النبوي » .

(١٥)

سوق الحدرة
أو سوق سويقة

سوق الحدرة – بفتح الحاء المهملة وسكون الدال المهملة – هي السوق الأثرية القديمة التي بُنِيَتْ على جانبي شارع الحَدْرَةِ الأثري الذي كان شارعاً مطروقاً في صدر الإسلام .

تبتدىء سُوقُ الحدرة من أمامِ بابِ السّلام بالجَنُوب الغربي للمسجد النبوي .. وتسير السوقُ المشار إليها ، إلى الغرب . مُتَعَرّجَةً ومُلْتوية في عدة أماكن منها حتى نهايتها التي هي عند الباب المصري غربي المدينة وشرقي المُناخة .

والسّوق المذكورة كان شارعُها مُبَلّطاً بالحجارة المُطَابِقَة من أولها إلى آخرها . ولِقِدَمِ حجارة بَلاطِهَا المطابقة كانت تبدو متآكلة ملساء مع أن حجارتها منخورة في الأصل . لقد أثّر عليها تَقَادُمُ العهد وكثرةُ الدّعْسِ في الأجيال المتعاقبة منذ عدة قرون . ولا بد أن ترميمات أجْرِيَتْ ببلاطها حتى تسنى له البقاء طيلة هذه المدة . وتبليط الأسواق والشوارع بمثل هذه الحجارة السّود المتراصة تقليدٌ جرى عليه العُمْران في الحضارة العربية منذ عدة قرون .. وقد رأيتُ مثل هذا البلاط الذي كان

بِسوقِ الحَدْرَةِ في الشارع الرئيسي المسقف بمدينة القُدْس .. التي بها ثالث الحرمين ، أعادها الله لحظيرة الإسلام . كما توجد مثيلات له في بعض مُدُنِ المغرب الأقصى العربية القديمة وفي دمشق الشام بالشارع المسقف المكتظ بالدكاكين والبضائع ، المعروف بسوق الحميديّة . وتُطِلّ على الشارع والسوق عمارات شرقية الطراز بِرَوَاشِنِها الخشبية البارزة المخرمة المزخرفة ، وبأبوابها السميكة الخشبية المزخرفة أيضاً ، بعقودها الحجرية الجميلة ، وبطابعها الشرقيّ العام .. وبقاعاتها المفتوحة العلو ذوات الدّكاك الحجرية الباردة .. وبِشُرُفَاتِها العربية الرائعة التي تزيدها حُسْناً على حُسْن .

وهي ذَوَاتُ طبقات بين الاثنين والثلاث والأربع ، مُمَاثِلَةٌ في هذا ، وفي كيانها العامّ مثيلاتها القديمات في كل من مكة ، والمدينة ، وجُدّةَ ، والطائف .

هذه الهندسة المعمارية ذهب كثير من معالمها في المدينة . والسوقُ الوحيدة والشارعُ الوحيد ، والدّور المصطفة الوحيدة من الطراز التي نتحدث عنه آنفاً ، كل ذلك موجود في سوق الحدرة ، في شارعها . وبِسُفْلِ الدور بالشارع دكاكينُها التي عليها مسحة من قِدَمٍ أثريٍ مُشَاهَدٍ .

ومن منازل سوق الحدرة المرموقة دار السيد عبد الله مدنيّ التي ورثها ابْنَاهُ : السيد عُبَيد الله مدني وأخوه السيد أمين مدني ، ودارُ السيد جمل الليل ، ودارُ السيّد عبد المطلب مُفْتِي ، وبيتُ الصافي وغيرها ..

وقد فُرِشَ شارع سويقة كُلّه أخيراً بالاسمنت الملون المقطع كالطّوبِ ، ودخل عنصُر البناء الحديث بالإسمنت المسلح بعضَ دُورِها. أما دكاكينها فأغلب أبوابها قد أبدلت بالصفيح .. شاهدتُ ذلك في ٢٧

شعبان ١٣٩٢ هـ . وأملنا أن يَبْقَى على هذه السوق ومَنَازِلِها على حالها ، لتكون مَعْلَماً ناطقاً بطراز عمارات المدينة وأسواقها القديمة عَبْر التاريخ .. وأن لا يَمْتَدَّ التغيير إلى غير بلاطها الذي أُبْدِلَ بغيره .



جانب من سوق الحدرة

(١٦)

حارة الأغوات
والطراز القديم لأبنية المدينة

لعل هذا أول بحث يُسَطّرُ في هذا الموضوع .. يوجد بحارة الأغوات في طرف الطريق الشمالي، بعد منهل عين الأزرق [١] ، رباطٌ قديم على بابه حَجَرٌ مسَنٌ منقوش فيه ما نصه :

« وقف هذا الرباط المبارك لوجه الله تعالى المجد الفقير ياقوت المظفري المنصوري المارداني على الفقراء والمساكين الغرباء الرجال خاصة دون النساء تقبل الله منه وأثابه الجنة برحمته وكرمه بتاريخ سنة ست وسبعمائة » أه .

ومن هذه الكتابة فهمنا أنّ هذا الرباط من آثار القرن الثامن الهجريّ ، كما استنتجنا أن ما شاكله في طراز البناء قرينٌ له أو قريبٌ منه .

يَحُدّ الحارةَ غرباً : المسجدُ النبويّ ، وشرقاً باب الجمعة ، وجنوباً سور المدينة الجنوبيّ ، وشمالاً البيوت المحاذية لطريق البقيع في طرفه الشماليّ [٢] .

---

١ هي المعروفة بالعين الزرقاء .

٢ كان هذا التجديد قبل هدم سور المدينة .

وأبنية هذه الحارة مؤلفة من نوعين : بيوت وأربطة .. فالبيوت يَعتَوِرُهَا التجديدُ – والنقض والبناء بحكم ملكيتِها أو وقفيتها . أما الأربطة فبحكم وقفيتها على الفقراء أو الأرامل فأكثرها يكون سالماً من طوارىء الهدم والتجديد اللهم إلا في حالات استثنائية . ولذا فلندرسها فيما يلي :

هذه الأربطة تكون مبنية في الغالب بالحجارة والطين . وهي ذوات طبقة واحدة في الأكثر وقليلاً ما تكون ذوات طبقتين ... أما ثلاث طبقات فلا ... وغالباً ما تكون نُجُفُ أبوابها مكوّنة من صخور عظيمة مستطيلة منحوتة . تتصل مباشرة بالحجارة الأخرى . فلا خشب ولا عقود . وغُرفُها الداخلية مَطْلِيّة بالنّورة [1] . أمّا في الخارج فأقل من القليل . وأبوابها واطئة . ولذا قلما يستطيع المرء الدخول إليها إلا بعد أن يطأطىء من رأسه .

وقد استعلت أرض الشوارع والأزقة عليها . ولذا فالدخول إليها يكون هُبُوطياً وفي سُلّمٍ حجريٍّ عتيق .

هذا الطراز من البناء ينير لنا طراز بناء دُورِ المدينة القديمة إنارة إجمالية لها أهميتها في موضوعنا .

---

١ النورة هي الكلس أو الجص المحترق الذي تبيض به جدران المنازل من الداخل والخارج . « والنورة »هي الإسم الدارج في عامية أهل المدينة إلى اليوم لهذا الحجر إذا أحرق وهيىء لطلاء المنازل به ، تبرز بيضاء في باطنها ، وظاهرها أيضاً إذا طلي هذا الظاهر بها وذلك بعد أن تدق حتى تكون دقيقاً شديد النعومة والبياض .

(١٧)

الأحافير
أمدينة فوق المدينة ؟

الأحافيرُ التي شاهدتُها والتي حُدِّثْتُ عنها تُجيب في صراحة عن السؤال المتقدم بالإيجاب . فإنّ أغلب بيوت المدينة الحالية وأبْنِيَتِهَا تقع فوق البيوت القديمة ولا غرو فمن طبيعة الأرض أن تربو على مرّ السنين ، فتعلوَ طبقتُها المستجدةُ على الطبقة القديمة وهكذا ..

ومما ينبغي ذكره أن الأحافير التي تُجْرَى في المدينة ليس الغرضُ منها البحث عن آثارها المدفونة ، كلاّ ! . بل المرامُ منها هو وضع الأسُسِ أو غرسُ الوَدْيِ ، أو نحوُ هذا وذاك من المقاصد العاديّة التي لا رابطة بينها وبين مهمة التنقيب عن الآثار لإفادة العِلْمِ وإلقـاء الضوء على صفحات التاريخ الغامضة ..

ففي أثناء الحفر قد يوجد مُصَادَفَةً بعضُ آثار الأولين من الأبنية وبقايا الأثاث : حَدَثَ في سنة ١٣٥٢ هـ [١] . أنه بينما كان العُمّال يحفرون

---

١ كان ذلك خلال تأليف هذا الكتاب وقد عنيت بتدوين ما حدث بدقة بالغة .

أساس القسم الشمالي لمدرسة العلوم الشرعية الواقعة بقرب باب النساء [1] إذْ عثروا بعد عُمْقٍ أربعة أمتار على مصباح زيتٍ قديم وذلك في الجهة الشمالية من عمارة المدرسة المذكورة آنفاً .

ومما وجده العُمّالُ أيضاً بِرْكَةٌ صغيرة ومَجاري مياهٍ ، وقِطَعٌ من قُلَلِ الماء القديمة . وقبل ذلك بعشر سنوات وفي عام ١٣٢٥هـ بينما كان العمال يحفرون لوضع أساس النُّصُبِ التذكاري الذي أمر فخري باشا بإقامته بالمناخة جنوبيّ السبيل [2] تذكاراً لتولية الدولة العثمانية للشريف عليّ حَيْدَر . على إمارة مكة — بينما كان العُمّال يحفرون هناك إذِ انْفَتَحَتْ لهم هوة كَشَفَتْ عن بيوتٍ سقوفُها تحت سطح هذه الأرض ، فنزلوا إليها ووجدوا بها ثياباً معلقة على حبال . ومع بِلاَهَا فإنها كانت محتفظةً بهندامها ، متماسكةً بفعل الرطوبة وعدم تخلل الهواء لِلْغُرف المعلقة بها ، ولكن بمجرد لَمْسِ الناس لها تناثرت كما يتناثر الرماد ، وتساقطت تَسَاقُطَ الأجساد المُحَنَّطَةِ إذا مستها يَدٌ .. فَدَمَّر العمالُ البيوتَ وشادوا عليها بناية التذكار . وقد دُمِّرَتْ هي أيضاً في عهد الحكومة الهاشمية .

وفي عام ١٣٣٣ هـ بينما كان العمال يحفرون لغرس الوَدْيِ في القسم

---

١ عمارة مدرسة العلوم الشرعية المعنية في هذا هي العمارة الأولى التي قام بها مؤسس المدرسة أستاذنا المرحوم السيد أحمد الفيض آبادي ، وهي أصغر بكثير من عمارتها الحالية التي قام بها ابن أخيه السيد حبيب محمود أحمد مديرها الحالي وناظرها بعد مؤسسها عمه السيد أحمد الفيض آبادي رحمه الله .

٢ كان « السبيل » مبنى من دور واحد ذا « حوش » مشجر بجنوب قلعة الباب الشامي .. وقد أزيلا معاً في توسعة شوارع المدينة . ثم بنيت في مكان القلعة عمارات سكنية شامخة على الطراز الحديث أي بالأسمنت المسلح . وقد سقطت إحدى هذه العمارات لانهيار الأرض من تحتها فسماها العامة عمارة الموت .

الشمالي من بستان آل السيد محيي الدين الحسيني بالطرناوية إذ انفتحت أمامهم هوة واسعة عميقة متصلة بنفق واسع عال فهبط إليها بعضهم وسار في النفق . ولإظلامه ارتعب فعاد أدراجه وصعد إلى ظاهر الأرض مسرعاً ... وكذلك فقد حدث منذ أعوام أنهم بينما كانوا يحفرون في القسم الجنوبي من هذا البستان إذ انفتحت هوة وجدوا فيها فرشاً من الطوب الأحمر المربع الكبير .

وكم من أحافير غير هذه وتلك أجريت في المدينة فعثر الحافرون في أعماقها على آثار وأزيار وخلافها .

وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا : إن كل من يحفر بداخل المدينة وخارج سورها إلى حد ليس بالبعيد يجد آثار الأولين .

إذن فقد ثبت علمياً وحسياً : أن المدينة القديمة مدفونة تحت المدينة الحديثة . ويستأنس لهذه النظرية بقول السمهودي « وقد علا الكبس على كثير من البلاط ولم يبق ظاهراً منه إلا ما حول المسجد النبوي وشيء من جهة بيوت الأشراف وولاة المدينة » .

فإذا كان هذا في عصر السمهودي : « القرن التاسع الهجري » فما بالك بالحال الآن . وقد مر بعد ذلك العصر ما يقرب من خمسة قرون ؟ .

قسم الجبال والحرار

تمهيد

تقع المدينة في وادٍ رحب مُلْتَوٍ ، تحيط به الجبال والحرار ، ولما كان أغلب هذه الجبال والحرار ذواتَ اتصال وثيق بحوادث مهمة ، ومواقف حاسمة وقعت في عصر صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أصبحت تلك الجبال والحرار منذ ذلك الوقت في الذروة من تاريخ الإسلام عامة والمدينة خاصة .

ولذا كان لزاماً على الباحث الأثري أن يضمهما إلى أبحاثه الأثرية .

وقياماً بهذا عُنِينا بوصفها فيما يلي :

(١)

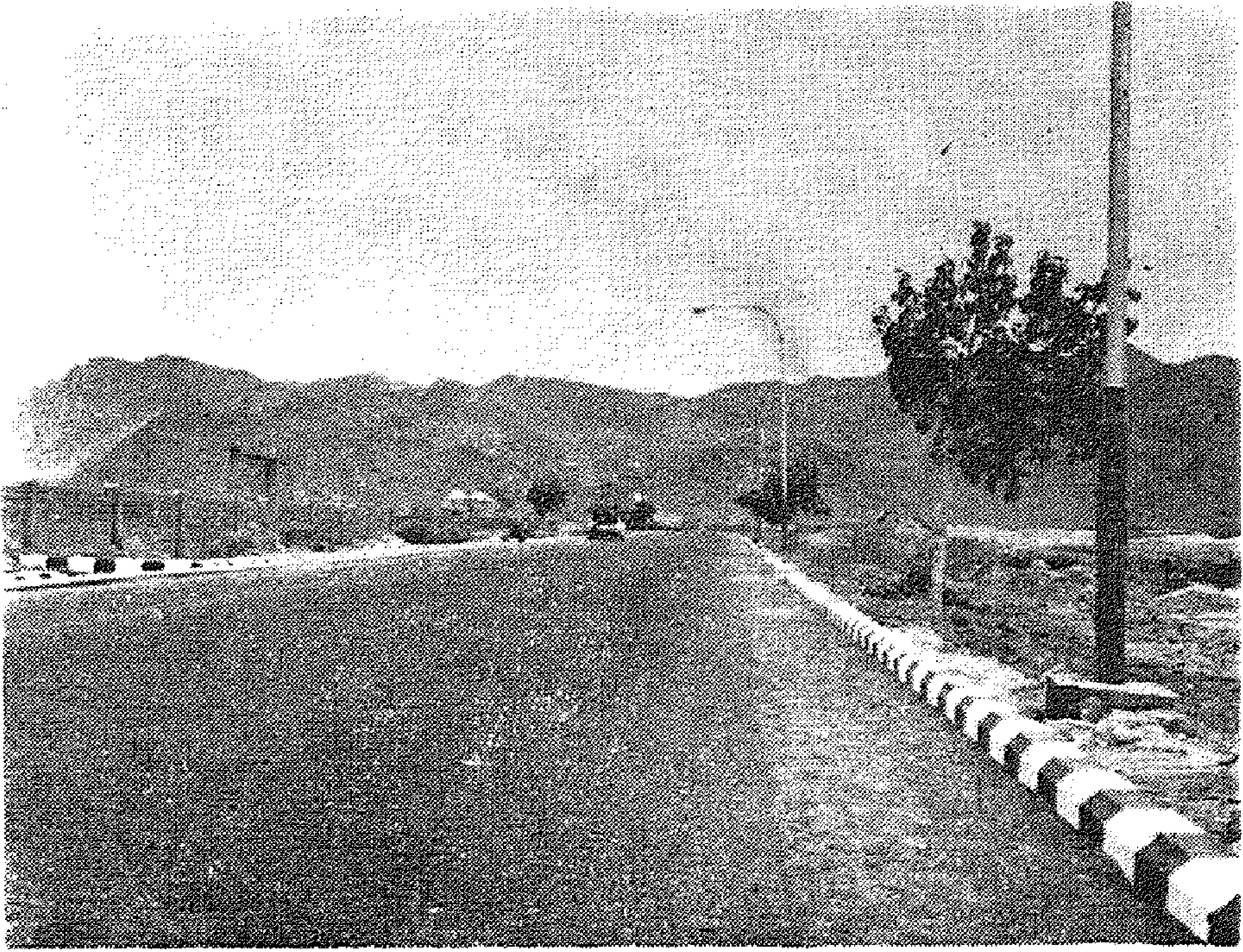
جبل أحد

« هذا جَبَلٌ يُحِبّنا ونُحِبّهُ » ـ ذلك ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم ، في شأن هذا الجبل . وبجبل أحُدٍ كانت وقعة أحُدٍ المشهورة سنة ٣ هـ .

أمّا وصفه الطبيعيّ فهو أنه جبل صخريّ من الجرانيت . وطوله من الشرق إلى الغرب ٦ آلاف متر . وفيه رؤوس كثيرة . وهِضَابٌ شتى .. من كثرتها يكاد الناظر إليه يتخيلها جبالاً شبه مستقلة . أو يُخَيّلُ إليه أنّ أحُداً هذا . هو سلسلة جبالٍ كبارٍ وصغارٍ مرتبطٍ بعضها ببعض ومن مجموعها تكونت وحدة هذا الجبل .. من تلاصق هذه الجبال ، ووجود منفرجات بينها تكونت في أسافل جبل أحُد المهاريس التي هي نُقَرٌ طَبيعيّةٌ لحفظ المياه المتحدرة من مجموعات أعالي الجبل .

ومع أنّ لَوْنَ جبل أحُدٍ أحْمَر وفق ما حكاه مؤلف « مرآة الحرمين » فإننا قد وجدنا فيه هضاباً وصُخوراً وعروقاً مختلفة الألوان .. بعضُها يميل إلى الزّرْقة . وبعضُها أسودُ إثْمِدِيٌ . وبعضُها رَمَادِيّ اللون ، وبعضها أخضر .. وقد استرعى نظري بوجه خاص ما لاحظتُهُ

في بعض عروقه الواقعة بالطريق الذي صعدت منه إلى قُبـَّةِ هارون[1] . إذ شاهدتُ في بعض تلك العروق إشراقاً . وفي بعضها اخضراراً زاهياً .



الطريق المُسَفْلَتُ إلى جَبَلُ أحُدٍ
ويُرَى جبل أحُدٍ ممتدّاً من وراء الطريق

---

١ صعدت إلى هذا البناء المشهور بالمدينة بأنه قبة . فاذا هو عبارة عن أربعة جدر مكشوفة قصيرة بجانبها الغربي الشمالي صهريج ماء . ولعل هذا البناء هو الذي قال عنه السمهودي : « وفي أعلى جبل أحد بناء اتخذه بعض الفقراء قريباً . والناس يصعدون إليه » اهـ . وإذا كان هو فانه مما بني في القرن التاسع الهجري على حد تعريف السمهودي له . ولعل اسم بانيه ، هو هارون ، أو لعل من اسمه هارون رأى أن يقيم فيه أو غير ذلك من المناسبات كأن يكون لمن اسمه هذا ، صلة ما به .

هذا وقد حدثني السيد أسعد ابن السيد محيي الدين الحسيني قال: إنه في أثناء صعوده مع جماعة إلى المهراس الغربيّ من الجبل عام ١٣٣٠ ه عثر فيما بَعْدَ هذا المهراس على حجرِ إثمدٍ وزنه مثقالان فبَاعَهُ إذ ذاك ، بخمسة جنيهات مَسْكُوفيّة [1] ذهباً . ثم في أثناء جَوْلاتِهِ بذلك الموضع عام ١٣٥١ ه وَجَدَ حجرَ إثمدٍ آخرَ وزنه ٧ مثاقيل ، ولا يزال موجوداً لديه . وقد أرانيه ، فإذا هو ثقيل جدّاً ، يبدو له بريق ولَمَعَانٌ . يزينهُ سوادٌ ضارب إلى الحمرة . وقد روَى لي أيضاً أنّ الحاج جَلاَلاً البُخاريّ كان قد عثر بقرب هذا المهراس نفسه على حجرٍ كبير ، بكسْرِهِ له ، انفلق عن زَبَرْجَدَةٍ كبيرة باع منها بمبلغ ٦٠ جنيهاً إفرنجياً ذهباً ولا يزال لديه فصّ صغير من بقية ذلك الحجر الكريم . وكل هذا يدل دلالة حسية على ما في جبل أحُدٍ من نفيس الجواهر ، وكريم المعادن . مما يتفق مع ما شاهدته من إشراق بعض الحجارة به .

ومؤرخو المدينة أعرضوا عن مثل هذه البحوث الأثرية إعراضاً كليّاً ، ولو اهتموا بها لأفادونا إفادة تُذْكَرُ فتُشْكَرُ .

ويقع جبل أحُد في شمال المدينة . ويبعد عنها بنحو ٥٠ دقيقة بالمشي السريع [2] . وفيه مسجد صغير على يمين الذاهب إلى المهاريس ، جَزَمَ المطريّ بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى فيه الظهر والعصر يوم أحُدٍ بعد انقضاء القتال .

---

١ كان الجنيه المسكوفي أغلى قيمة من الجنيه الأفرنجي وأكبر حجماً .

٢ كان أخذ هذا القياس إبان تأليف الكتاب (سنة ١٣٤٧ ه – ١٣٥٣ ه) . أما الآن وقد امتد عمران المدينة في كل ناحية ومنها الناحية الشمالية التي يقع فيها جبل أحد فقد تغير الحال ، وأصبحت المسافة أقل بكثير بالنسبة للجهة الشمالية من المدينة خاصة .

هذا وبالصخور التي تقع بالعطفة الواقعة في شمال الغار المقول بأنه الغار الذي اختفى فيه الرسول (ص) يوم أحد تُوجَدُ كتابات بالخط الكوفيّ القديم .

وكذلك بجانب العطفة الذاهبة إلى المهراس الشرقيّ توجد صخور عظيمة ، عليها كتابات قديمة خطّها شبيهٌ بالسالف ذكرها .

ومع قِدَمِ هذه الكتابات وكثرتها لم يُشِرْ إليها مؤرخو المدينة .

(٢)

جبل عينين ، أو جبل الرماة

هو جبل صغير[١] ، يغلب على لونه الاحمرارُ ، يقع جَنُوبيّ ضريح سيد الشهداء رضي الله عنه . ويفصل بينها وادي قَنَاة. وقد قِيسْتُ مسافة ما بينهما فإذا هي نحو ٦٢ متراً .

وفي ركن الجبل الشرقيّ مسجد صغير مأثور ، وهو مكشوف ومَبْنيّ بالحجارة غير المنحوتة وبالجير ، طوله ٥ أمتار و٩٠ سنتيمتراً في عرض ٤ أمتار و٤٠ سنتيمتراً ، وارتفاع جُدُرِهِ ٧٠ سنتيمتراً . وتعلو الجبلَ اليوم في كل أماكنه بيوتٌ وحوانيتُ لبعض أهل المدينة . وكان مصرعُ عم الرسول في موضع المسجد المشار إليه آنفاً . وتقول بعض الروايات إنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى عليه في هذا الموضع . أما ضريحه الحاليّ فهو على رَبْوَةٍ يفصل بينها وبين جبل الرماة وادي قناة..وقد وُضِعَ له سِيَاجٌ هو وقبر مصعب بن عمير ومن معهما من شهداء أحُد وذلك لصيانتها .

---

١ لعله سمي باسم « جبل عينين » – تثنية عين – لوجود قنطرة عين كانت عنده ، ولوجود عين الشهداء أيضاً عنده . وحينما اجتمعت لديه العينان المذكورتان سمي « جبل عينين » . وسمي بجبل الرماة لأن النبي وضع فوقه الرماة يوم أحد .

وعلى جبل عينين وَضَعَ النبيّ صلى الله عليه وسلم ٥٠ رامياً من أصحابه في غزوة أحُدٍ ، وأمرهم بعدم التحرك منه على أية حال .

ومن هذا جاءته التسمية بجبل الرّماة . وبهذا الاسم يُعْرَفُ اليوم . ولستُ أدري مِمّ اشْتُقّ اسْمُ (عينين) .. اللهم إلا اذا كان قد لوحظ في الاسم وجود عينين عنده ، كما مرّ آنفاً في الهامش .



جبل عَيْنَيْنِ ، أو جبل الرّماة
وتُرى أطلالُ دُورِ أهل المدينة فوقه

(٣)

جبل سلع

جبل[١] عظيم شامخ يرتفع في شمال المدينة ويبعد عنها، بنحو ٥ دقائق[٢] وحجارةُ هذا الجبل سُودٌ بوجه الإجمال تَتَفتَّتُ من ضغطها باليد، ويقال إنها تحتوي مادة الإسمنت ولكن لم يتحقق هذا بتجربة علمية بَعْدُ. وفي شرقيه « دَكَّةُ جَلاَّلٍ » بناها شخص يُدْعى بهذا الاسم . وفي سفحه الغربيِّ كهف بني حرام الذي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يبيت فيه قبل نزول آية العصمة : (وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ) .

وبِشمالِ هذا الكهف في سفح الجبل أيضاً مسجدُ الفتح ، وقد سبق ذِكْرُه (في قسم المساجد) .

---

١ سلع : بفتح أوله وسكون ثانية ، اسم مشترك لجبلين وأماكن ببلاد العرب . والجبلان هما جبل سلع بشمال المدينة وهو هذا . وسلع جبل في ديار هذيل . وهناك جبل ثالث يعرف تاريخياً باسم « سلع » أيضاً .. وهو سلسلة جبال البتراء في المملكة الأردنية الهاشمية .. وكان سلع هذا منزل الأنباط .. وبه أطلال عماراتهم وعمارات الرومان بعدهم. ومن عماراته البالغة الروعة ما يعرف باسم « الخزنة » .. وقد ذهبت إلى البتراء وشاهدت معالمها في رحلتي الثالثة إلى بلاد الأردن. ومما يجدر بالذكر أن عمارات البتراء الأثرية كلها منحوتة في جباله مثل مدائن صالح تماماً .

٢ كان ذلك قبل امتداد العمران في المدينة .



الخط المنقوش على بعض صخور جبل سلع ، وأفاد البحث العلمي
أنه من خط أبي بكر الصديق وعمر الفاروق رضي الله عنهما

وفي علُو سفحه الجنوبيّ كتابةٌ كوفيةٌ أثريةٌ قديمة نَصّها على ما رواه صاحب « مرآة الحرمين » : « أمْسَى وأصْبَحَ عُمَرُ وأبُو بَكر يَشْكُوان إلى الله مِنْ كُلّ مَا يُكْرهُ » . « يَقْبَلُ الله عُمَرَ . الله يُعَامِلُ عُمَرَ بالمَغْفِرَةِ » .

وقد أفادنا إبراهيم رفعت في كتابه المذكور بأن هذه الكتابة أثرية حقاً ، وبأنها بخط الصحابيَيْن الجليلين بإثبات علميّ أورده في كتابه .

(٤)

جبل سليع

هو الجبل الصغير الذي يقع بجنوبيّ سلع ، وكانت عليه بيوت بني أسْلَمَ من المهاجرين في عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفوقه اليوم [١] أحدُ أبراج قلعة الباب الشاميّ . وكان عليه في القرن التاسع الهجريّ حِصْنُ أمير المدينة من الأشراف ، بناه الأمير ابن شيخة أحَدُهُمْ في القرن السابع الهجريّ ، ليتحصن به ، وليكشف منه ضواحِيَ المدينة ، ويقول السيد جعفر البرزنجيّ في « نزهة الناظرين » : إن هذا الحصن هو القلعة المعروفة عند باب السور المعروف بباب الشّاميّ ، وفي تاريخ « العباسيّ » ما يفيد بأن القلعة المذكورة تقع في مكان الحصن ، وأنها من مبتنيات الدولة العثمانية .

ويَفْصِلُ بين سُلَيْعٍ وهضبةٍ بِشَمالِه طريقٌ يؤدّي إلى المجزرة وسَلْعٍ ، وهذا الطريق هو المعروف قديماً بثنية عَثْعَث .

---

١ كان ذلك قبل هدم القلعة .

(٥)

جبل المستندر

هو جُبَيْلٌ صغير يبلغ ارتفاعه نحو ٣ أمتار ، وقد أورده السمهوديّ وقال : إنه يقع في شرقيّ مشهد النفس الزكية بمنزلة الحاجّ الشاميّ .

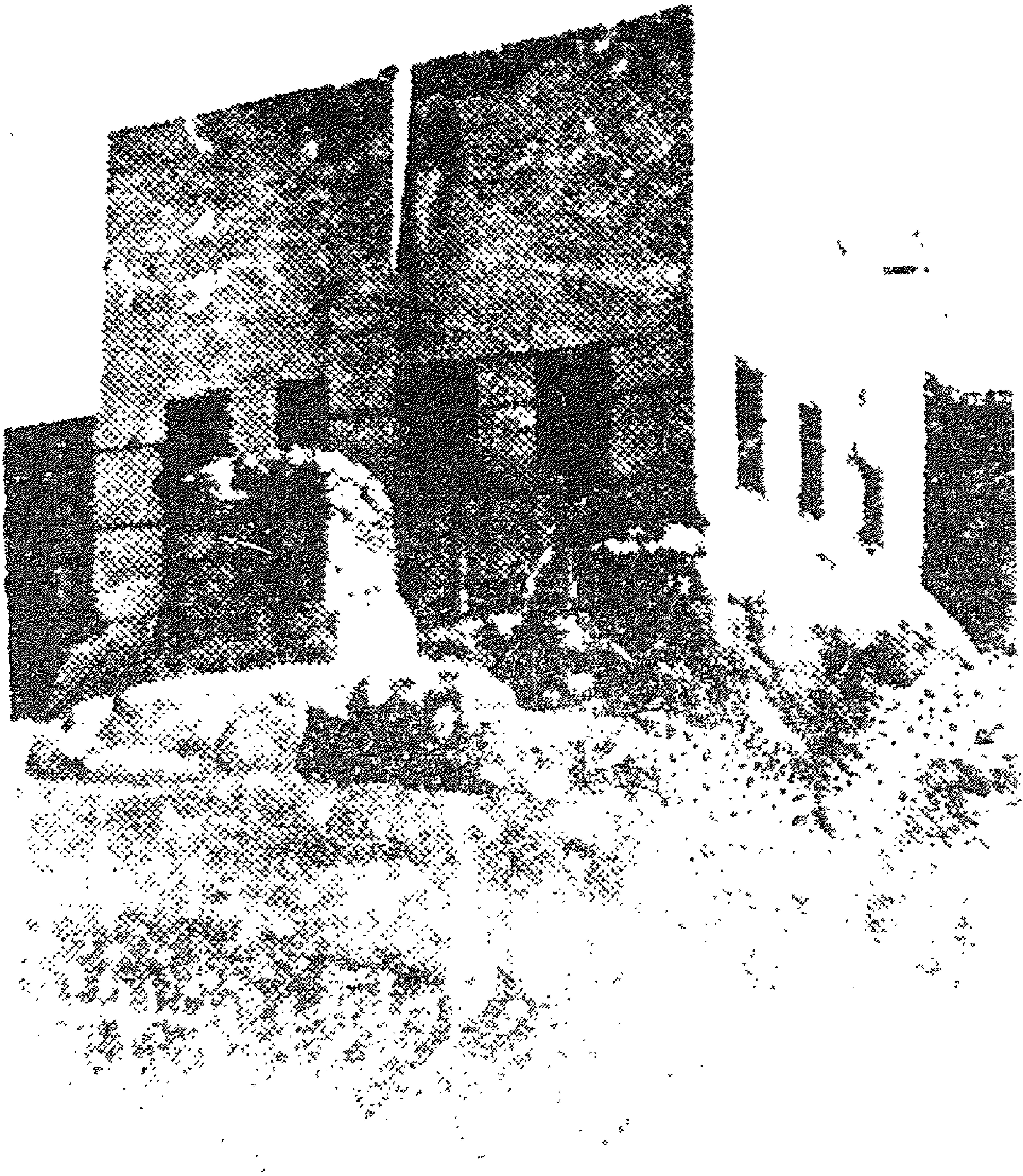
وقد قست ما بينه وبين المشهد المذكور فإذا هو نحو ٨٢ متراً . وقد كان هذا الجُبَيْلُ في منازل المهاجرين من بني الدّيل ، في عهد صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم .

ونجزم بأنه هو هذه الهضبة الماثلة اليوم التي يقع فوقها « سبيل داود باشا » [١] وإيوان بستانه ، نظراً لانطباق الوصف المذكور عليها .

ونحن لا يسعنا إلا أن نُسْدِيَ لداود باشا . جزيل الثناء ، إزاء عدم اكتساحه لهذا الـجُبَيْلِ الضئيل ، لأنّه لو أزاله بالكلية ، وذلك سهل على مثله — لافْتَقَدْنا هذا الأثر الذي أصبح نِسْياً منسياً .

---

١ داود باشا هذا هو الذي خرج على الدولة العثمانية لما كان والياً لها على بغداد . وقد عينته بعد ذلك شيخاً للحرم النبوي وأنشأ البستان المعروف بالداودية قرب جبل سلع عام ١٢٦٥ هـ . وله إصلاحات عمرانية في بغداد ، حينما كان والياً عليها ، وفي المدينة المنورة أيضاً حينما ولي أمرها ..



جبل المستندر وفوقه السبيل والإيوان

(٦)

عير وثور

هما اسْمَا جَبَلَيْنِ من جبال المدينة ، أولُها : عظيم شامخ . يقع بجنوبيّ المدينة على مسافة ساعتين عنها تقريباً بسير الأقدام غير المستعجل . وثانيهما : أحمر صغير يقع شماليّ أحُد .

ويَحُدّانِ حَرَمَ المدينة جَنُوباً وشَمالاً . وقد صَعِدْتُ إلى أعلى جبل عَيْرٍ في أحد شهور عام ١٣٤٧ هـ فإذا هو منبسط فسيح بارد تخفق فيه الرياح مع أن الموسم كان صيفاً . فهو بهذا النظر صالح لإنشاء المِصَحّات عليه .

ب – الحرار

(٧)

حرة واقم

هي الحرة[١] الكائنة شرقيّ المدينة . وتَحُدّ حَرَمَ المدينة شرقاً، وحَدّهُ الغربيّ : حَرّةُ الوَبْرَةِ ، فهما اللابتان المقصودتان في الحديث النبوي الذي حدد حرم المدينة .

وتنقسم حَرّةُ واقمٍ ، باعتبار المنازل الواقعة فيها قديماً ، إلى خمس مَنَاطقَ متجاورة : منطقتان كانتا لليهود ، وثلاثٌ كانت للأوس من الأنصار . فَبِزُهْرَةَ منازلُ بني النّضير ، وبشمالها منازل بني قُرَيْظَةَ ، وبشمال هذه منازلُ بني ظفرٍ من الأنصار حيث مَسْجِدُهم المعروفُ بمسجد بني ظفر ، وبجانبهم شمالاً أيضاً منازل بني عبد الأشهل ، مع بني زَعُورٍ بن جُشَمٍ الأنصاريّيَن .

وفي منازل بني عبد الأشهل كان حصنهم (واقم) الذي سُمّيَتْ به الحَرّة[٢] وبِشَمَالِهِمْ منازل بني حارثة إلى نهاية الحرة شمالاً .

---

١ الحرة – بفتح الحاء المهملة وتشديد الراء وفتحها بعدها تاء مربوطة – يعنى بها منطقة سوداء من الحجارة النخرة المحترقة والناتجة عن السائل البركاني الذي خمد بعد الهيجان .

٢ حصن واقم ، سمي باسم صاحبه : واقم .

ويَرَى المتجول في أنحاء هذه الحَرَّةِ آثارَ دُورٍ وحُصُونٍ ومَصَانِعَ منتشرة في عرضها وطولها . وقد وجدنا بها آثار مصنع قديم فيه أنواع القطع الفَخَّاريّة المدهونة من كل لون . وبجانب هــذا المصنع العظيم المندثر ، صهريجُ ماءٍ مطليّ بالرصاص من الداخل ، وبشرقه غدير ، والمصنع المذكور واقع جنوب شرق بستان دَشَم[1] بمسافة ١٢ دقيقة تقريباً .

وقد شاهدنا في هذه الحرّة فُوَّهَةً بُرْكانيّةً ذات شق مستطيل جداً ، من فوق « دشم » . وعندما رأيناه الأول مرة ظَنَنّا أنها من آثار الإنسان القديم . ولكن تَتَبّعي لشقها الملتوي أثبت في نظري أنها من الآثار الطَّبَعِيّة . وبقرب طريق العُرَيْض من هذه الحرة تُلُولٌ عظيمة من أطلال الآطام والدور التي كانت مَشِيدةً بهذه الحَرّةِ .

وبِحَرّةِ واقم هذه كانت وقعة الحرة المشهورة وذلك في أيام يزيد ابن معاوية عام ٦٣ هـ . كما ثارتْ أيضاً نارٌ شديدة الوهج — (بركان) — في هذه الحرة الشرقية بالنسبة للمدينة في جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ هـ . وقد أفاض المؤرخون المسلمون في وصفها ووصف شدة توهجها واندلاعها وشمولها وهَلَعِ الناس من اشتعالها ، لعلاقة اشتعالها بحديث نبويّ . وبعد أن خمدت كان من ثمارها قسم من هذه الحرة المحرّقة ذات الرؤوس المسنونة كالرماح المشرعة التي تمتلىء بها الحرة الشرقية مما يجعل اجتيازها للإنسان على قدميه من أعسر المَطالِب .

---

١ يبدو لي أن اسم (دشم) هذا ، محرف عن (جشم) بضم الجيم ، حدث التحريف من العامية لقرب مخرج الجيم من الدال المهملة . وأبدلت ضمة الجيم بفتحة ، إمعاناً في التحريف على أسلوب اللهجات العامية ، كما صنعت في جيم (جدة) حيث كسرها بعض لهجات العوام وفتحها بعضهم تحريفاً للأصل اللغوي المجمع على أنه هو الصحيح وحده ألا وهو (جدة) بضم الجيم . ومن باب قلب العامية قولهم : المدشونية في الماجشونية . وقد حذفت ألفها وسكنت الدال .

(٨)

حرة الوبرة

تقع بضاحية المدينة الغربية ، وهي أقْرَبُ إلى المدينة بالنسبة لِحَرَّة واقم . وتختلف حرة الوبرة عن حرة واقم بكثْرة الهضاب والتلاع والمستنقعات والمنخفضات والمرتفعات ، وفيها قريباً من بئر عُرْوَة بطريق مكة ، بِركة كبيرة مجصصة قديمة ، تُرْوَى عنها قِصَصٌ خلابة مع أنها في رأيي لا تَعْدُو أن تكون واحدة من هذه البِرَكِ التي كانت تُبْنَى في طرق الحجاج [١] .

وبهذه الحَرَّة المُدَرَّجُ الذي يقال إنه ثنية الوداع أيضاً . وإذا صحّ ذلك فتكون كذلك بالنسبة للمسافر إلى مكة . بطرفها الشمالي الشرقي مَنَازِلُ بني سلمة ، ومن تحت طرفها الغربي قصرُ عروة وبئرُه ومزارعُه وبعضُ قصور العقيق . وبطرفها الشمالي مسجدُ القبلتين . وهي إحدى اللاَّبَتَيْن [٢] اللتين تحدان حرم المدينة كما سبق ذكره . وبطرفها الجنوبي

---

١ في « عمدة الأخبار في مدينة المختار » للعباسي أن اسمها بركة « وبيك »

٢ اللابة : الحرة .

الغربيّ البساتين النضرة ، وأطمُ الضّحْيَان ، وقلعةُ قباء التي لا تزال شامخة وشاخصة للعيان .

هذا ومن الملاحظ تلاقي الحَرّتَيْنِ : حرةِ الوبرة هذه ، مع زميلتها حرّة واقم الشرقية في ناحيتيها : الجنوبية الغربية ، والجنوبية الشرقية ، بالنسبة للمدينة .

قسم الاودية

تمهيد

تكتنف الـمَـدِينَةَ أَوْدِيَةُ سُيول سِتَّة :

١ – وادي العقيق : (في ضاحيتها الغربية) .

٢ – وادي رانوناء : (في ضاحيتها الجنوبية الغربية) .

٣ – وادي بُطْحَانَ : (في ضاحيتها الجنوبية) .

٤ – وادي مُذَيْنيب : (في ضاحيتها الجنوبية الشرقية) .

٥ – وادي مَهْزُور : (في ضاحيتها الشرقية) .

٦ – وادي قَنَاة : (في ضاحيتها الشمالية الشرقية) .

ويسيل العقيق ووادي قناة في خارج المدينة . وأربعةُ السُّيُول الباقية تجتمع في وادي بطحان من جنوبيّ المدينة وتسير ممتزجةً حتى تدخل المدينة من الأبواب الحديديّة المعمولة لها قديماً تحت باب قباء بشرقيه . وتشق الأودية الأربعة المدينةَ ممتزجةً ، إلى الشمال ، في المسيل المعروف بأبي جِيدَةَ ، حتى تخرج من باب البرابيخ . وتفيض في صَفَاصِفَ إلى أن تبلغ سفح سَلْع ثم تُفْضي إلى زُغابَةَ حيث تجتمع بسَيْلَيْ العقيق ووادي قناة .

كان على وادي العقيق القصورُ الأنيقة والحدائق الغُلْبُ . وكان وادي رَانُونَاء مُتَنَزَّهاً مقصوداً . وعلى ضفتيْ بُطحان بساتينُ ونخيل . وبمُذَيْنيب كانت منازل بني النَّضير من اليهود . وعلى مَهْزُور منازلُ

بني قُريظة منهم . وكان بجانب وادي قَنَاةَ الجنوبيّ منازل بني حارثة وبني عبد الأشهل وبني زعورا الأوسيّيّنَ . أما اليوم [1] فالعقيق مقفر من القصور ، قليل المتنزهات . ورانوناء أرض بلقع ، ولا تزال جَنَبَتَا بُطْحَان حَالِيَتَيْنِ بالبساتين . وفي عصر الرسالة طهّر الله المدينة من القرظيّين والنّضيريّين الأجانب المفسدين ، وتلك رسوم منازل بني حارثة وأبناءِ عمّهِم وقد انقرض أهلوها فظلت مندثرة هامدة .

هذا وَصْفٌ إجْماليّ تاريخيّ أثريّ لهذه الأودية ... أمّا الوصف التفصيليّ فدونكه فيما يلي :

---

[1] أعني سنة تأليف الكتاب ١٣٥٣هـ وفيما بعد بأمد . وبعد الحرب العالمية الثانية وفي العقد السابع من هذا القرن الهجري بدأت القصور تعمر وادي العقيق من جديد . وذلك مثل القصر الملكي الذي أصبح « دار ضيافة » وبجانبه مباني الجامعة الإسلامية الكبيرة العديدة ، وقصر إبراهيم شاكر في حديقته ، وعمارات فرع وزارة الزراعة ببئر رومة ، وعمارات السيد حبيب محمود أحمد في حديقته العنابس ، ودور قامت على أنقاض دور العقيق الأثرية مثل دار الشيخ محمد الحافظ القاضي الشرعي بمحكمة المدينة الشرعية الكبرى وغيرها .

(١)

وادي العقيق

لم سمي بهذا الاسم ؟ هواؤه وتربته . جهته بالنسبة للمدينة وطريقه منها ومسافة بعده عنها . مصدره ومصبه . قصوره ودوره . بساتينه وآباره جاواته وآثاره . فضائله وعمرانه وخرابه . بدء عمرانه حديثاً .

هذا الموضوع شائقٌ ولكنه مع ذلك شائكٌ صعبُ المراس . وسنبذل قصارى الجهد في سبيل تذليل عقباته وجلاء صفحة سمائه ، لنكشف اللثام عن تاريخ هذا الوادي الذهبيّ الذي كانَ في عصر من العصور مطمح أنظار الخلفاء والأغنياء والوجهاء والشعراء بما حوى من قصور أنيقة ومتنزهات لطيفة .

لم سُميّ وادي العقيق بهذا الاسم ؟

عُرِضَ هذا السؤال على سليمان السعديّ المتضلع في فقه اللسان العربيّ فكان جوابه للسائل : « لأنه عَقّ في الحرّة » أيْ شقّ وقطع . وهناك

قولٌ بأن سبب هذه التسمية هو حُمْرَةُ الوادي كحمرة العقيقِ : الحجر الكريم .

والتوجيه الذي أدلى به سليمان هو المقبول للنقط الآتية :

أولاً – ذكر ياقوت أن اسم العقيق شامل لكل مَسِيلِ ماءٍ شقه السيل ، فأنهره ووسّعه : (معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٨) (الطبعة الأولى بمصر) .

ثانياً – ونَصّ على أن ببلاد العرب أربعةَ أودية تُسمى جميعاً بالعقيق .

ثالثاً – إن السمهوديّ حكى أن تُبّعاً لمّا مر بالعقيق قال : « هذا عقيقُ الأرض » . وهذا بعد أن مرّ بالعرصة التي كانت تُسَمّى بالسّليل من العقيق نفسه . فقال عنها : « هذه عَرْصَةُ الأرض » . فكما أن معنى العرصة لُغَةً : المكان المتسع الخالي – ولذا أطلقها تُبّع على السليل – فكذلك كان اطلاقه اسمَ العقيق على هذا الوادي ، لكونه شقاً في الأرض أحدثته السيول التي تجري فيه .

هواؤه وتربته

هواءُ هذا الوادي صافٍ مُنْعِشٌ على الإطلاق . أما تربته فهي رملية تكتسي حُمْرَةً في الغالب . وأجمل بقاعه العَرْصَتان : الصغرى والكبرى .

جهتُه بالنسبة للمدينة وطريقه ومسافة بُعْدِه عنها

يقع وادي العقيق غربيّ المدينة . ويشقه طريقُ مكة [1] وأقرب الطرق من المدينة إليه : بابُ العنبرية – الطريقُ شماليّ قبة الـْخَضِر – الـْمُدَرَّجُ – العقيق . ويبعد عن المدينة من هذا الطريق نحو ٣٠ دقيقة بالمشي المتوسط [2] .

مَصْدَرُه ومَصَبّه

مصدره حضير : (مزارع بقرب النقيع الواقع بجنوب المدينة ، على مسيرة يوم ونصف يوم منها) ويُفضي إلى بئر عليّ العُلْيا المعروفة بالخَليقَةِ ثم يمر بغربيّ جبل عَيْر فذي الحُليْفَة ثم يسير مُشَرِّقاً إلى أن يُحاذي حَرّة الوَبْرَة في قسمها الذي يطلع إلى المدينة ثم يعرج إلى الشّمال ، ويتجاوز العَرْصَتين ويفيض في زُغابة (مرّ وصفها) .

قُصُورُه ودُورُه

قال محمد بن عبد الله البكريّ قاضي المدينة ، وعمر بن عبد الله :

أيْنَ أهْلُ العقيق ؟ أين قريشٌ ؟   أيْنَ عَبْدُ العزيز ؟ وابن بُكَيْرِ
وَلَو أنّ الزّمَانَ خَلّدَ حيّاً   كانَ فيه يُخَلّدُ ابْنُ الزّبَيْرِ

يُشَاهِدُ الإنسانُ بعد أن يتجاوز طرف حَرّةِ الـْوَبْرَةِ مُصْعِداً ، ذَاهِباً إلى ذي الـْحُلَيْفَةِ مِيقَاتِ أهْلِ المدينة ، أو متوجهاً إلى العرصتين

---

١ طريق مكة هذا هو طريق القوافل فيما مضى ، وقد كسي بمادة الاسفلت المشتقة من النفط لتسهيل سير السيارات التي حلت محل الجمال في النقلات وحمل البضائع .

٢ هذا بالنسبة لزمن تأليف الكتاب وطبعه الطبعة الأولى . أما الآن فقد امتد عمران المدينة غرباً ، فاختلف مقياس المسافة إذ تقلصت عما كانت عليه بطبيعة الحال .

بالشّمال – تُلُولاً متسلسلة على جانبي المسيل ... وتلك التلول هي آثارُ قصور العقيق ودُورِهِ القديمة ، وقد لا يسترعي الأنظار مرأى هذه التلول لأول وهلة إذ يحسبها الناظرُ فيها بعضَ الكُثْبَانِ الرملية المتكونة في أطراف الوادي تكوناً طَبَعِياً ..

أما إذا دَقَّقَ النظر فيها فإنه يتحقق أنها آثار القصور العقيقية العامرة الزاهرة ، بدت اليوم في هذا الشكل المُزْرِي بحكم تقادم العهد وفعل المؤثرات الخارجيّة .

وإليك مَوَاقِعَ القصورِ والدّورِ بالعقيق ، حسب ما حَقّقْتُهُ بعد إجهاد القريحة ، وبعد التجوال والتأمل في مواقع العقيق ، وبعد تطبيق المشاهدات في ذلك على ما روته أسفار التاريخ :

أ – القصور الواقعة بطرف حرة الوبرة إلى بئر رومة :

١ – قصر عروة بن الزبير بقرب بئره .

٢ – قصر مَرَاجِلَ .

٣ – قصر سُكَيْنَةَ بنت حسين المسمى بالزينبيّ .

٤ – قصور متتابعة لإسحق بن أيوب .

٥ – قصور أخرى لبعض الأعيان .

٦ – قصور ابنة المَرَازِقِيّ الزّهْرِيّة .

٧ – مَنَازِلُ جعفر بن إبراهيم الجعفريّ .

ب – القصور التي في العرصة الكبرى الواقعة فيها بئر رومة :

١ – قصر عبد الله بن عامر .

٢ – قصر مروان بن الحكم .

ج – القصور التي بالعرصة الصغرى :

١ – قصر سعيد بن العاص (هو الباقية أطلاله شاخِصةً دون سواه) .
٢ – قصر عنبسة بن سعيد بن العاص .
٣ – القَرائِنُ : (دُورٌ كانت لآل سعيد بن العاص قرب قصره)
«الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج ١ ص ٦ » .

د – القصور التي تقع بسفح جماء عاقر أو (عاقل) :

١ – قصور جعفر بن سليمان .

هـ – القصور الكائنة بسفح جماء أمّ خالد :

١ – قصر محمد بن عيسى الجعفريّ .
٢ – قصر يزيد بن عبد الملك بن المغيرة .

و – القصور الواقعة بسفح جماءِ تُضَارُعَ :

١ – قصر طاهر بن يحيى .
٢ – منازل لعبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان .
٣ – قصر عاصم بن عمرو بن عثمان بن عفان .
٤ – قصر عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان .
٥ – قصر عبد الله بن أبي أبكر بن عمرو بن عثمان بن عفان .
(وهو ابنُ بُكَيْرٍ المذكور في البيتين السابقين) .

ز – القصور الكائنة بسفح جبل عَيْرٍ :

١ – قصر إسحق بن أيوب المخزوميّ .
٢ – قصر لآل طلحة .
٣ – قصر إبراهيم بن هشام .

٤ ـ مَنازِلُ لآل سفيان بن عاصم .

هذا بيان إجماليّ لمواضع قصور العقيق .. أما تعيين مَوْضعِ كلّ واحد منها بالتحقيق والتحديد فذلك عسير جدّاً .. ناهيك بما تحملناه من البحث العلميّ والتفكير والمقارنة بين نصوص التاريخ ، وواقع آثار العقيق ، مما كلّفنا جهداً فكرياً وحرَكياً حتى توصلنا إلى إيضاح مواقعها بالصفة المشروحة آنفاً .

بساتينه وآباره

لا عجب أن يكون أغلبُ أرض العقيق في سابق عهده مغموراً بالبساتين الجميلة التي تُسْقَى من السيل إذا جرى ، ومن الآبار إذا توقف .. فوجود الرياض فيه من مستلزمات حياة النعيم والترّف التي كان يعيشها أهل المدينة في تلك الحقبة من الدهر .

وهذا بيان ما اطلعتُ عليه من ذلك :

١ ـ مَزَارِعُ أبي هريرة قبيل المَحْرَمِ : (الميقات) .

٢ ـ مَزَارِعُ عروة بن الزبير قريباً من بئره المعروفة .

٣ ـ بساتينُ ابْنِ بُكَيْرٍ بقرب قصره الذي يقع بسفح جماءِ تُضَارُعَ .

٤ ـ مَزَارِعُ مروان بن الحكم بقرب قصره بالعرصة الكبرى .

٥ ـ بستانُ سعيد بن العاص بقرب قصره بالعرصة الصغرى .

٦ ـ مَزَارِعُ الجُرْفِ التي منها « الزَيْنُ » : مَزْرَعةُ النبيّ صلى الله عليه وسلم على ما رواه ابن زبالة .

٧ ـ مَزَارِعُ ثَنِيَّةِ الشَّرِيدِ (بعد ذي الحُلَيْفَةِ) .

أمّا اليوم فتوجد بالعقيق مَزَارِع وبساتين متفرقة لا تكاد تذكر بالنسبة لاتساع رقعته وصلاح تربته .. وأهمها ما يقع بقرب ذي الحُلَيْفَة شَمَالاً وجَنُوباً . وتُعْرَفُ بِمزَارِع الأحْسَاء لقرب الماء من ظاهر الأرض في تلك البقاع . كان ذلك القحولُ حين ألّفَ هذا الكتاب وطُبِعَ في سنة ١٣٥٣ هـ وبعد ذلك بسنوات عديدة. وأخيراً بدأ الانتعاش الزراعيّ والعمرانيّ يسري في وادي العقيق فَوُجِدَتْ بأطرافه وفيه دُور ، وظهرت فيه حدائق جديدة بعضها في أماكنه القديمة ، وبعضها في غيرها .. وجدير بالذكر أنّ من الحدائق التي بقيت في عهد اضمحلال العمران بالوادي حَدِيقةَ بئر رومة التابعة للأوقاف بالمدينة ، وحديقة أمّ شجرة التي تملكها السيدان : عُبَيْد وأمين مدنيّ . وتاريخ هذه الحديقة ينبىء بأنها معروفة وعامرة قديماً .. وبجود (الشَرْيُ) [1] في مزارع العقيق . وبالعرصتين والجُرْف حدائق أطيبها ماءً (الرَّبْخِيّةْ) بالجُرْف ، وأطيبها هواء سُلْطَانَة ، وأمتعها تنزهاً العنابس التي قال عنها السمهودي انه يرجح انها مزارع عنبسة بن سعيد صاحب القصر الذي احتفى بروعة بنائه في العقيق الصغير [2] .

وكان بالعقيق عدد غير قليل من الآبار لا تزال آثار بعضها باديةٌ ، ولكنها مطمورة . أمّا بئر رومة وبئر عروة فقد احتفظتا بحياتهما إلى اليوم [3]

---

١ الشري في العرف هنا اسم جامع للبطيخ والحبحب والقثاء والخيار . وبعد الحرب العالمية الثانية وفي العقد السابع من هذا القرن زادت المزارع بالعقيق وأطرافه زيادة ملحوظة بسبب الانتعاش الاقتصادي بعد أن فتح الله باستخراج النفط من المنطقة الشرقية للمملكة. فرأينا بساتين : ابراهيم شاكر وحمزة غوث وحبيب محمود أحمد وعبد العزيز بري رحمه الله وغيرها .

٢ وفاء الوفا ص ١٩٧ م طبع مصر ١٣٢٦ هـ .

٣ كان ذلك فيما يختص ببئر عروة سنة تأليف الكتاب وطبعه الطبعة الأولى . وبعد بناء الجسر المعروف بجسر عروة طمت بئر عروة ببنائه عليها أو على طرف منها أو ما يقارب هذا الطرف .

لمزاياها الخاصة على أنها قد انطمرتا في بعض الحقب الحالية وربما كان ذلك عدة مرات .

جَمَّاوَاتُهُ والآثار بها

هي ثلاث هضبات سود كبار قائمة بطرف العقيق على شفيره الغربيّ . وسُمِّيَتْ جَمَّاوَاتٍ لأنّها دُونَ الجبال أو تشبيهاً لها بالشاة الجَمَّاء أي التي لا قرون لها .

وأقربُها إلى المدينة جَمَّاء تُضَارُعَ وهي التي يشاهدها الإنسانُ عندما يهبطُ من المُدَرَّج إلى بئر عروة وبحذائها غَرْباً بشمال : جَمَّاء أمّ خالد فَجَمَّاء العاقر التي تصب على العرصة الصغرى . وعلى رأس جماء أمّ خالد كان عُمَرُ بن سليم الزّرَقيّ استكشف هو وزميل له قَبْراً قديماً وَوَجَدَا عنده حجرين مكتوبين لا تُقْرأ كتابتهما فحملاهما فلما ثَقُلَ أحدهما عليهما أَلْقَيا به في الجماء نفسها . ولا ندري أهو باق فيها ؟ أم نُقِلَ ؟ أمْ ماذا جرى له ؟ والبحثُ العلميّ الدقيق يظهر الحقيقة إما إيجابياً وإما سلبياً .

فضائله وعُمْرانه وخرابه

في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« أتاني الليلة آتٍ فقال : صَلِّ في هذا الوادي المبارك » .

وفي عَرْصَتِهِ يقول عليه الصلاة والسلام : « نِعْمُ المَنْزِلُ : العَرْصَةُ لولا كَثْرَةُ الهَوَامّ » .

أمّا تاريخُ عُمْرانِهِ فيبدأ من الوقت الذي أقْطَعَ فيه النبيّ العقيقَ كُلّهُ لبلال بن الحارث المُزَنيّ بموجب حجة نبوية نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى محمد رسولُ الله ، بِلالَ

ابن الحارث .. أعطاه من العقيق ما أصلح فيه معتملاً وكتب معاوية » .. فلما لم يعمل بلال هذا شيئاً في العقيق أبقى لديه عمر بن الخطاب في زمن خلافته قِسْماً منه وانتزع الباقي وأقطعه للناس .

وكان مستند عمر رضي الله عنه في هذا الصنيع أمرين :

الأول : ذلك الشرط الوارد في كتاب الإقطاع النبوي إذ إن بلالاً لم يعمل شيئاً في العقيق ، ولذا أصبح غير مالك له .

الثاني : شدة احتياج الناس إليه حينما كَثُرَ المسلمون في المدينة إذ كانت عاصمة الإسلام الأولى في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي زمن خلفائه الثلاثة : أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم . ومن ذلك الوقت أنشئَتْ بالعقيق البساتينُ والقصورُ تدريجياً ، فما كادت دولة بني أمية تستريح من القلاقل الداخلية حتى وجّهَتْ عنايتها إلى عُمْرانه ، فأصبح جنّةً سندسية خضراء .. زهورُها القصور ، ونُوّارُها الدّور ، وأكمامها القُطّان والرّوّاد ، وثمارها البهجة والحبور .

ثم ما كاد دور التوقف يبتدىء في هذه الدولة حتى ابتدأ دور اضمحلال عُمران العقيق ، وازدهاره ، فما هوَتْ دولة بني أمية حتى ذَوَى العقيق ، ثم صار في خبر كان إلى الآن . ولا ندري هل تعود إليه نضارته ؟ ومتى[1] ؟.

إذن فعمران العقيق الفعلي مقرون بحادثة تصرّف عمر فيه . وإنها لمنقبة جليلة تضاف إلى سجل مناقبه ، وهي تبرهن لنا على نظراته الدينية

---

1 كما أشرنا إليه آنفاً بدأت نضارته تعود إليه ، ولكن بشكل جديد فيما بعد تأليف الكتاب وطبعه الطبعة الأولى .

والعمرانية والاجتماعية الثاقبة كما تدل على اهتماماته بازدهار العمران وتحقيق أسبابه وكراهة الخراب وبواعثه ، وتأثيل الحضارة الإسلامية التي تجمع بين الدين والدنيا .

فلو فرضنا أن عمر لم ينتزع العقيق من يد بلال ، وبقي ملكاً لورثته لكان من الجائز أن يظل قَاحِلاً وبذلك تخسر المدينة عُمْرانَ ضاحية من أجمل ضواحيها وأقبَلِهَا للعُمران .

(٣)

وادي رانوناء

على كل واديها جنانٌ من الأرضِ هضابٌ بهذا السدِّ بالصلد كُلُّها
وكُلُّ فتىً سَمْحٍ سجيتُهُ غَضٌّ وإنَّ الغواني لا يَنزَلْنَ يَرِدْنَهُ

عثَرْتُ على هذين البيتين منقورَيْنِ – بخط قديم – في صخرة سوداء مَلْسَاءَ عظيمة جداً بقرب السدود التي بوادي رانوناء على يسار الذاهب إليها من قُباء .. وقد وقفْتُ مع بعض الإخوان أمام تلك الصخرة في منتصف النهار القائظ تحت شُعاع الشمس المحرق زهاء نصف ساعة نحاول قراءة هذا الخط العتيق . وبعد اللّتيّا والتي وُفّقْتُ إلى قراءتها بالصّورة المرقومة آنفاً . ولا أزالُ ألاحظُ اضطراباً لفظياً ومعنوياً في كلمة (كلها) في البيت الأول ، فلعل قراءتها هكذا غير صحيحة .

وأسلوب البيتين الـجزْل يَنمّ عن كونها مما قيل في صدر الإسلام . وإننا لَنُقدرُ لهذا الشاعر ما قام به من تسجيل هذا الصّكّ التاريخي الحافل بذكريات رائعة عن دَوْرِ حياةٍ ناضرةٍ من أدوار هذا الوادي .. ضَرَبَ عنه المؤرخون صَفْحاً ، وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً ...

وهكذا نرى الشعراء في بعض الأحيان يقومون بِدَوْرِ المؤرخين ،

يمثل هذا الأسلوب الشعري الإجمالي الأخاذ الخالد .

يريد الشاعر أن يُطلعَنا — نحن الأجيالَ القادمة بالنسبة لزمنه — على أن هذا الوادي لم يكن كما نراه اليوم . أجردَ قاحلاً كئيباً يملأ مَنْظَرُهُ النفسَ بالكآبة .

لقد كان في عصره زاخراً بالرياض النضرة ، مرتعاً للظباء الأوانس ، ومسرحاً للفتيان الأجواد . يقصده النوعان بكرة وعشياً للتنزه في مُرُوجه الخُضْرِ ، والتمتع بجماله الجذاب ، والتفسح بين جِنَانه الزاهرة .

ويُخَيَّلُ إلينا أن الشاعر حينما ارتسم في ذهنه الصافي المشرق جمالَ مَنْظَرِ هذا الوادي ، ومن يَجُوسُ خلاله — أبَتْ قريحتُه الخصبةُ إلا أن تجود بالبيتين المذكورين . وأبى ذوقُهُ المرهفُ وسُموّ مداركه إلا أن ينقشهما بيده ، على هذه الصخرة الملساء الكبيرة . وقُلْنَا إنّ ناظمهما هو راقمهما استنتاجاً من وجود اسم تحتهما . ولرداءة خَطّهما كخط أغلب الشعراء البارعين .

والشعر الجميل والخط الجميل فنّانِ ليسا بمتلازمين دائماً ، فكم ذي خط جميل لا يجيد قرض بيت من الشعر ، وكم شاعر بارع في شعره لا يحسن الخط .

آثار وادي رانوناء : السد ـ الكتابات

قولنا « السد » بلفظ المفرد لا يخلو من مجاز ، وإلا فالحقيقة أنها سُدود ثلاثة محكمة البناء متقاربة ، وأكبرها الجنوبيّ الذي يلي مصادر السيل ويليه الثاني فالثالث في الضخامة .

وحجارة بناءِ السدود الثلاثة متلاصقة بدون حشْوٍ بينها .

والحكمة في جعل السدّ الجنوبيّ أضخم : تقويته لِتَلَقّي تيار السيل القويّ الذي يصادمه لأول وهلة فإذا امتلأت السدود ، جرى بها السيل في الصفاصف إلى أن يهبط إلى أرض حدائق العُصْبَةِ .. ومجراهِ هناك ظاهر .

هذا وقد عثرنا على كتابات شتى في صخور الهضبة التي تلي السّدّ في غربيّه . وأهم كتابة هذا نصّها :

« جدد هذا السد بإرادة الملك المظفر السلطان عبد العزيز خان سعادتلو شيخ الحرم خالد باشا [1] بنظارة الفاضل محمد صالح حماد سنة ١٢٨٩ هـ بالمدينة المنورة .. عمر ازميريّ غفر الله له آمين » أهـ .

---

١ لعل خالد باشا مجدد هذا السد هو الذي بنى « الخالدية » في المناخة فنسبت إليه . والخالدية مقر مدير البوليس والشرطة – وهما شيء واحد – في زمن الدولة العثمانية والدولة الهاشمية والدولة السعودية إلى أن تم هدمها في عهد الدولة السعودية ، وأقيم بدلها عمارة أكبر وأحدث في العقد الثامن من هذا القرن الهجري .

وهذه الكتابة تدل على أنه كان في موضع هذا السدّ سدّ هو سدّ عبد الله بن عمرو بن عثمان الذي جاء في «وفاء الوفا» أنه يَصُبّ فيه سيل رَانُـوناء .

وتوجد كتابات كثيرة في صخور هذا الوادي وبمصبه إلى العصبة . أما مَصْدَرُ سَيْلِهِ فهو مقمة أو مقمن (جبل جنوبي عير) . ومن هذا الجبل يفيض على قرين صريحة ، فالسد الموصوف آنفاً ، فالعرصة بعده فالصفصاف فالصخور فأرض العصبة ثم يسير صوب الشمال حتى يعترض طريق قباء الحديث حيث له هنالك مجرى فوقه جسر ثم يختلط بوادي بُطْحَان ويدخلان المدينة معاً من تحت باب قباء في شرقيه ويذهبان صوب الشمال ووادي رانوناء في الضاحية الجنوبية الغربية للمدينة . والسدّ الذي صوبه يبعد عن المدينة نحو ساعة بالسير العادي وطريقه منها :

بابُ قباء — طريقُ قُباء — انحرافٌ إلى الجنوب الغربيّ — الطريق غربيّ بستان العُصْبَة — الحَرّةُ — الصخور — الصفصاف — العرصة — السّدُودُ .

(٣)

وادي بطحان

يطلق اسم بُطْحَان اليوم على كل ما هو بغربيّ مسجد المُصَلّى من المدينة إلى الحرّة الغربية . وفي هذا الإطلاق شيء كبير من المجاز .. إذ إن حقيقة المُسَمّى ببطحان لا يعدو هذا المسيل ، ابتداء من قرب حديقة المَاجِشُونيّةِ المعروفة بالمَدْشُونيّةِ إلى غربيّ مسجد الفتح .

فبطحان علم وضع لهذا المسيل في حدوده المذكورة فحسب ، ولا دخل لهذا الاسم فيما جاور المسيل من البقاع .

وربما يكون منشأ هذه التسمية ملاحظة ما في مُسَمّاها من البطحاء . وقد نُزِعَ اسم بطحان عن هذا المسيل في العرف الحاضر ، وخُلِعَ عليه اسْمُ « أبي جِيدَة » . كان ذلك ، منذ زمن غير موغل في القدم . ولا نعرف ما هو أبو جيدة ؟ ولا المغزى منه . اللهم إلا أن يكون أحَدَ من تملكوا حديقة في أعالي الوادي فيما سلف .

وَيَتَتَيَامَنُ سُكّان المدينة بقدوم سيل أبي جيدة . ولعل السبب في ذلك ما رُوِيَ عن عائشة رضي الله عنها من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ بطْحَانَ على تُرْعَةٍ من تُرَعِ الجنّة » .

ويصدر بُطْحَانُ من ذي حدر ، فجفاف ، وهي قرية قربان ، ثم يسيل في فضاء متسع ويستبطن بعده وادي بطحان، ويذهب حتى غربيّ مسجد الفتح . حيث منتهى وادي بطحان ، ثم يسير إلى زُغابة .

(٤)

وادي مذينيب

مَصْدَرُهُ من حلاتيْ صعب (جبلان كبيران بحذاء جبل الأغوات) على نحو سبعة أميال من المدينة . ومَصَبّهُ في زُغَابة . وقد تَتَبّعْنَا مجراه فإذا هو آتٍ من شرقِ حِصْنِ كعبِ بن الأشرف . وبالقرب من الحصن يُشَكّلُ نصف دائرة في وسطها الحصن . ثم يفيض في مسيله شمالي أم أربع فأم عُشَر ، ولا يزال سائراً حتى يختلط بوادي بطحان في مبدئه .

وعلى هذا الوادي كانت منازل بني النضير وهم أول من احتفر به . وبنى . وغرس بعد العمالقة أو عَبِيل . وقد نزل عليهم بعض قبائل العرب فشاركتهم في ذلك . ومن هؤلاء الأشرفُ والدُ كعبٍ صاحب الحصن المشهور باسمه،الباقية أطلاله حتى اليوم ، والذي سبق أن وصفناه في « قسم الحصون والآطام » .

وقد أجْلَى النبيّ صلى الله عليه وسلم بني النضير هؤلاء بسبب غدرهم في غزوة الأحزاب . وبإخلائهم لهذه الجهة أصبحت من ممتلكات المهاجرين . قَسّمها بينهم النبيّ خاصة دون سواهم ، إغْناء لهم ، وكان ذلك برضىً وموافَقَةٍ من إخوانهم الأنصار .

(٥)

وادي مهزور

يصدر وادي مهزور من حَرَّةِ واقمٍ .. قال ابنُ شبَّةَ إنه يأخذ من شرقيّ هذه الحرَّة ومن هكر : (موضع ماء على أربعين ميلاً من المدينة) ومن حرة صفة حتى يأتي أعلى حلاءة بني قريظة ، وهناك ينقسم إلى شعبتين تختلط إحداهما بوادي مذينيب ، وتذهب الأخرى حتى تتصل بمذينيب بفضاء بني خطمة [١] ثم يجتمع مذينيبٌ ومهزورٌ ويدخلان في صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا مَشْرَبَةَ أم إبراهيم ، وينصّ السمهوديّ على أن مهزوراً بعد أن يجتمع بمذينيب هناك يَصُبّان في بطحان .

في أصيل يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٣ هـ . عُنيتُ باستكشاف حقيقة مجرى مهزور هذا الذي كثر اختلاف مؤرّخي المدينة حوله ، فذهبتُ مُشَرِّقاً في الحرَّة رغبة في تَبَيّنِ مجاريه العليا ، وبعد بحثٍ عميقٍ اهتديت إلى مجراه العلويّ في الحرة .

---

١ حقق الأستاذ إبراهيم بن علي العيّاشي أنه هو ما يطلق عليه : « زرب الكتمة » وقد أجريت فيه أحافير كشفت آثاراً مختلفة من حجارة ومبان مطمورة لعلها من آثارهم .

ومما يجدر ذكره أن الاسم الحقيقي لهذا الوادي قد تُنُوسي بين أهل هذه القرية فهم إنما يعرفونه باسم « الغاوي » ومثله في ذلك مثل وادي بطحان الذي أصبح يطلق عليه بالمدينة اسم « أبي جيدة » ويبدو لي أن تسمية وادي مهزور باسم : « الغَاوِي » له صلة معنوية بمجاريه المتشعبة .

ووادي مهزور أو الغاوي يتشعب في الحرة إلى شُعَبٍ عديدة تتقارب وتتجمع كلما اقتربت من أرض العوالي [١] وفي أوائل هذه القرية وأواخر الحَرّة تتحد الشعبتان البارزتان من الوادي فتسيلان في تعاريج حتى تحاذيا مسجد مشربة أم إبراهيم ، فتمران معاً من جانبه الجنوبي غير داخلتين في أرض المسجد ، لاعتلائها ، ثم تعودان في الالتواء مُيَمّمَتَيْنِ شطر الشمال الغربي في مجارٍ ضيقة جداً عانينا المشاق في تتبعها لكثرة التواءاتها ، ولاحتفاف الصِّيَرانِ [٢] بها من كل ناحية حتى إنها لتكاد تختفي من أمامنا لولا شدة التتبع والاستقصاء . وتمضي المجاري في طريقها هكذا حتى تصل إلى صفصف بشمال الماجشونية « المَدْشُونيّةِ » فيجتمع مهزور بمذينيب في هذا الفضاء ، ويذهبان في اتجاه شمالي حتى يصبا معاً في وادي بطحان ، ثم إلى زغابة ، ومن ثم يمضي الجميع إلى الغابة مجمع سيول المدينة المنورة الواقع بضاحيتها الشمالية المنخفضة عن مستواها .

---

١ العوالي هي : مجموعة الحدائق الكثيرة الكبيرة المعروفة في التاريخ باسم (العالية) فلحقها التحريف بأخرة إلى اسم العوالي وسميت باسم العالية أو العوالي لعلو موقعها بالنسبة للمدينة .

٢ الصيران : البعل ، وهو اسم للنخيل الذي ينمو من النوى ولا يعتنى بسقيه ، وإنما يشرب من ماء المطر والسيول .

(٦)

وادي قناة

يجيء هذا الوادي من شرقيّ المدينة . وسُمّيَ بهذا الاسم لقول تُبّعٍ فيه : « هذه قناة الأرض » . والقناة لغةً : الأرض المحفورة ليجري الماء فيها .

وأعلى مصادر وادي قناة من وَجٍ بالطائف . ويشق الحرة الشرقية في قسمها المحترق ويمضي هابطاً حتى يُفْضيَ إلى محاذاة أحُدٍ من ناحيته الجنوبية ، ويستمر حتى يصب في زُغَابة .

ويُطْلَقُ عليه في عرف أهل المدينة الحاضر ، اسم « سَيْلِ سَيّدِنا حمزة » وقد بُنِيَتْ سدود متعددة شرقيّ ضريح سيد الشهداء حمزةَ بنِ عبد المطلب عَمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم . وشَكْلُ هذه السدود يدل على أنها من آثار دولة بني عثمان .

ويحدثنا التاريخ عن طغيان هذا السيل في أواخر القرن السابع الهجريّ عام ٦٩٠ هـ وفي أوائل القرن الثامن : عام ٧٣٤ هـ : أربع مرات بصفة عظيمة هَلَعَ منها الناسُ وخافوا من فيضانه على المدينة وإغراقها ، ولكن الله سلم .

ويبعد عن المدينة في أقرب جهاته بنحو ٣٠ دقيقة بالمشي المتوسط . وهذه الجهة هي الواقعة بين المدينة وضريح حمزة عمّ الرسول وأسد الإسلام وسيد الشهداء رضي الله عنه .

قسم الابار

تمهيد

كان مَدَارُ شُرْبِ أهل المدينة في الجاهلية على الآبار . وقد قَدِمَ الرسولُ عليه الصلاة والسلام إلى المدينة وحالة الشرب جارية على ما ذكرنا واستمر الحال على ذلك أيضاً في حياته ، وفي عهد خلفائه الأربعة .

وفي خلافة معاوية أجْرِيَتْ العينُ الزرقاء أو عين الأزرق على الصحيح ، فتحول إليها الشرب ولكنّ كثيراً من الآبار العذبة احتفظت بمركزها ، إمّا لِعُذُوبَتِها الزائدة أو لعلاقةٍ دينية مع ذلك .

وفيما يلي وصف أكثر الآبار المأثورة المشار إليها آنفاً :

(١)

بئر أريس

تقع هذه البئر غربي مسجد قباء بنحو ٣٨ متراً ، وعُمقُها ١٢ متراً ، وفي أسفلها فتحتان يجري منها الماء إلى قاع البئر ، وفتحة ثالثة توصلها إلى مجرى عين الأزرق (العين الزرقاء) وأريس هو اسم صاحبها .

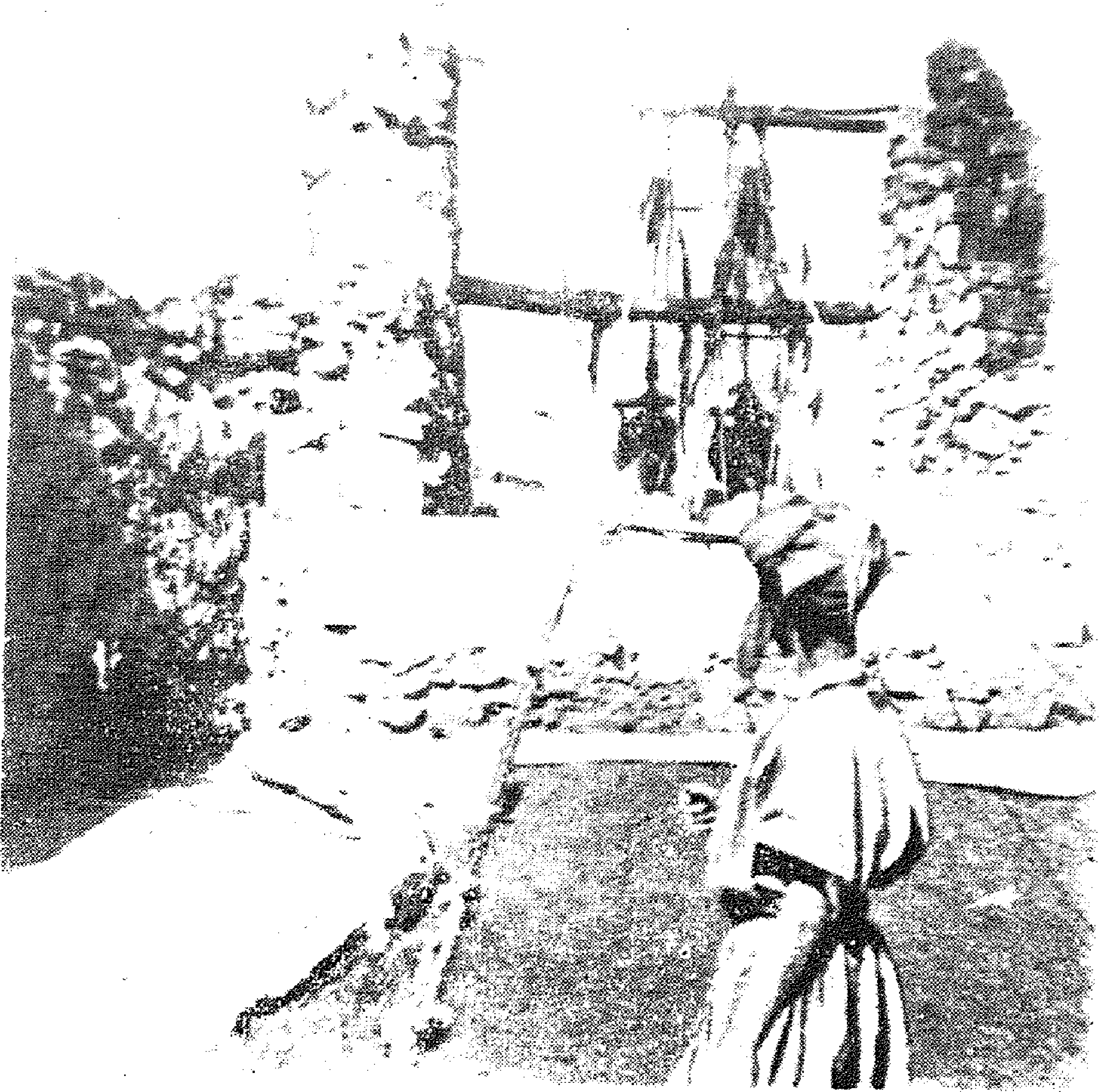
وتاريخ حفرها مجهولٌ لدينا . وكانت مطوية بالحجارة المنحوتة المطابقة ، وكانت تعلوها قبة عالية مُجَصَّصَةٌ داخلاً وخارجاً ، وهذا الشكل يشهد بأنها عمارة عثمانية . وكان بجوارها إلى الجنوب قبة أخرى ذات محراب فوقَهُ كتابة باللغة التركية ولهذه القبة فتحة تُطِلّ على البئر ، ويُسْتَقى منها أيضاً . وبجانب البئر حَمّامٌ وبشرقه بركة كبيرة .

ويُسْتَخْرَجُ الماءُ من البئر بوساطة السّواني [1] وقد جدّدَ السلاميّ

---

١ السواني : جهاز مؤلف من حيوان وحبال غلاظ ودلو كبير (غرب) وإنسان يسوق الحيوان الذي تربط به الحبال التي يربط فيها الدلو ويسير الحيوان في مجرى خاص به ، هابط بالنسبة لفتحة البئر ، فاذا عاد الحيوان مرتفعاً إلى رأس الفتحة سقط الغرب إلى البئر فامتلأ بالماء ، وإذا سار في المجرى منحدراً ارتفع الغرب إلى فم البئر وألقى ما فيه من ماء في قناة مبنية خصيصاً للماء كي يصل إلى البركة ويسقي به البستان . وتسمى اللغة العربية هذا الجهاز المتحرك باسم«السانية»=

سُلّماً لهذه البئر يُهبَط منه إلى قاعها سنة ٧١٤ هـ وكأنها بقيت على ذلك حتى جُدّد طيّها في عهد الدولة العثمانية فَطُمّ السلّمُ لتقادمه وتداعيه



بئر الخاتم والماء يستخرج منه بالسانية فيما مضى

= وقلما استعمل أهل المدينة في لهجتهم العامية المعاصرة ، صيغة « سانية » المفردة . لقد أحلوا مكانها الجمع ، فتراهم يقولون دائماً : (السواني) وهم يقصدون (السانية) المفردة الموصوفة آنفاً وقد استعملنا في متن الكتاب بأعلى هذا الهامش صيغة (السواني) جرياً على العرف ، وأوضحنا الصواب في هذا الهامش تبييناً للفصيح من القول .

وشُيِّدَتْ على البئر هذه القبةُ وبُنيت بجانبها القبة التي تليها .

وماء البئر غزير ، وسواء أصحّ ما رُوِيَ من أن النبيّ صلى الله عليه وسلم تَفَل فيها أم لم يصحّ فإن ماءها عذب خفيف . ولا بدَع فإنه نابع من الصخور .

وبئر أريس مأثورة جلس الرسول على قُفّها ، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان . وتُسمّى « بئر الخاتم » لسقوط خاتم النبيّ من يد عثمان بن عفان فيها .. وذلك بعد ست سنوات من خلافته . وبئر أريس أو بئر الخاتم الآن سنة ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م هي جافة وليس بها ماء ..

(٢)

بئر رومة

تقع هذه البئر في عرصة العقيق الكبرى بقرب مجتمع الأسيال : (زُغابة) بشمالي غربي المدينة ، وتبعد عنها نحو نصف ساعة ، وقطرها ٤ أمتار وعمقها ١٢ متراً وبجوارها أبنية مستحدثة وإيوان أو مسجد لا أدري! به محراب لعل بانيه بعضُ وُلاةِ بني عثمان نظراً لطراز بنائه . وأمام هذا الإيوان أو هذا المسجد بركة مربعة واسعة جميلة :

تَنْصَبّ فِيهَا وُفُودُ المَاءِ جَارِيَةً كالخيلِ مفلتةً مِنْ حبل مجريها

والبئر غزيرة الماء . وماؤها عذب صافٍ خفيف للغاية . وهي مطوية بالحجارة المطابقة المنحوتة طيّاً مُحكَمَاً ، وتسقى مزرعتها بالسانية .

وتوجد بناحيتها الجنوبية بمسافة نحو ٤٠ متراً آثار بنايةٍ ضخمة علَتْهَا الرمال ، وقد كشف عنها أخيراً مُستأجرُ المزرعة المرحوم الأستاذ أحمد عابد ، ليعمر من حجارتها مكاناً بجانب البئر ، فظهرت أسس هذه البناية الهائلة ، وبدت تربيعات غُرَفها العظيمة ، وقد عثر على قبرين فيها ... وفيها هياكل بشرية . وقد رأيت أحد القبرين ، فإذا شكله يدل على أنه

قديم وجاهلي وعن هذا البناء قال السمهودي : « وعندها أي بئر رومة بناء عالٍ بالحجارة والجص وقد تهدم » أ هـ .

وقال عنه المطري : « إنه كان ديراً لليهود » .

وقد اعتور البئر خراب بعد خراب كما عُمِّرَتْ مراراً . روى المطري أنها كانت خربة في زمنه : (القرن الثامن الهجري) وفي هذا القرن نفسه جُدِّدَتْ ثم خربت فأحياها القاضي شهاب الدين الطبري ، ولا نعلم هل عمارتها الحالية هي عمارة هذا القاضي أم كانت بعده ؟

ولعذوبة ماء بئر رومة وغزارته رَغَّبَ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في شرائها وجَعْلِهَا وقفاً على المسلمين .. فأجاب هذه الرغبة العالية صهرُهُ عثمان بن عفان ، واشتراها بعد اللَّتَيَّا والتي من صاحبها اليهودي الحريص على الربح الوفير ، واستغلال الفرصة السانحة بمبلغ (٢٠٠٠٠) درهم ونَفَّذَ فيها رغبة الرسول صلى الله عليه وسلم وجعلها وقفاً للمسلمين .

وهي مع مزرعتها اليوم من جملة أوقاف المسجد النبوي . ومن إدارة الأوقاف تُسْتَأْجَرُ .

وتستأجرها اليوم في سنة ١٣٩٢ هـ وفيما قبلها وزارةُ الزراعة والمياه السعودية ، وجعلتها حديقة عامة تشتمل على مَشَاتِلَ زِرَاعيةٍ ومَدَاجِنَ وحَظَائِرَ لأصائلِ الحيوانات من أبقار وأرانب ودَجَاج وغيرها .

(٣)

بئر غرس

كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يَشْرَبُ من هذه البئر ويُسْتَقَى له منها ، وأوصى بغسله بمائها بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، على قول بعض الرواة . وكانت في حياته لِسَعْدِ بن خيثمة ، ولعله الأنصاريّ الذي اتخذ الرسول داره بقرب مسجد قباءِ مَوْضِعَ حديثه مع الناس حينما قدم مع صاحبه أبي بكر ، مُهَاجِرَيْنِ من مكة إلى المدينة .

وبئر غرس معروفة اليوم ، وقد شاهدناها مراراً في أثناء نُزَهِنا بِقَرْيَةِ (جَفَافِ) : « قربان » في حديقة الغُرْسِ . والبئر المذكورة واقعة في شمال غربَ هذه الحديقة ، ولها سُلَّمٌ حجريّ كان يُنْزَل به إليها ، ومع أنها مأثورة ومع غزارة مائها وقُرْبِهِ من سَطْحِ الأرض فإنها اليوم معطلة .

وقطرها ٤ أمتار وعمقُها ٤ أمتار ، وهي مطوية بالحجارة المطابقة طَيّاً مُحْكَماً . وعليها بنايةُ سَانِيَةٍ مهجورة .

قال المطريّ : إنها خربت في زمنه (القرن الثامن الهجريّ) ثم

جُدِّدَتْ بعد ذلك . وقال السمهوديّ : « إنها خربت بعد ذلك فابتاعها خواجا حسين ابن الجواد المحسن الخواجكيّ شهاب الدين أحمد القاوانيّ ، وحَوَّطَ عليها حديقة وجَعَل لها دَرَجَةً يُنْزَلُ إليها منها من داخل الحديقة وخارجها وأنشأ بجانبها مسجداً لطيفاً وَوَقَفَهَا عام ٨٨٢ » أهـ .

والحديقة المشار إليها موجودة إلى اليوم ، واسْمُها الغُرْسُ ، ولا تزال وقفاً ، والمسجد المذكور لا تزال أطلاله قائمةً وهو متصل بالبئر بِشَمَالِها الشرقيّ ، وبناؤه بالحجارة والطين ، وهو مكشوف ، ولا نعلم هل كان كذلك في أيام حداثة بنائه ، أم حدث له ذلك فيما بعد ؟ وهو مربع طوله ٣ أمتار في عرض مثلها ، وارتفاع الباقي من جُدُرِهِ متران . وله بابان : شرقيٌّ وشَمَاليّ .

وطريقُ بئرِ غُرْسٍ من المدينة هكذا :

بابُ العوالي — طريقُ قُرْبَان — مَيْلٌ إلى الشرق في زقاق ضيق — البئر .

(٤)

بئر حاء

تقع هذه البئر خارج سور المدينة [١] قريبة منه في ناحية المدينة الشمالية الشرقية . وتبعد عن أقرب نقطة إليها من السّور بنحو ١٣ متراً ، وهي في طرف زقاقٍ منحدر ، وفيه فتْحتُها ، وهي مطوية بالحجارة من أسفلُ إلى قربِ الفتحة . ويُخالفُ شكْلُها شكْلَ الآبار بالمدينة ، إذْ هي أيْ (بيرُ حاء) مربعةُ الطيّ . والآبار غيرها مُستَدِيرتُه . وعلى بئر حاء عقْدٌ صغير من الطّوبِ الأحمر .

نقل السمهوديّ عن ابن النجار أنها كانت في عهده وسط حديقة صغيرة جِداً ، فيها نخلاتٌ وعندها بيت مبنيّ على علْوٍ من الأرض ، وهي قريبة من سور المدينة ، وهي لبعض أهلها وماؤها عذب . وقال السمهوديّ : « وهي اليوم على هذا النّعْت » .

ونحن نقول : وهي اليوم أي سنة تأليف هذا الكتاب ١٣٥٣ هـ — « على أغلب هذا الوصف » — لأنّها ليست في وسط حديقة بل في ركن

---

١ كان ذلك قبل هدم سور المدينة .

المنزل التابع لها أو التابعة له ، وبشرقها قطعة صغيرة من الأرض جرْداء ، بها نخلتانِ هرمتان ظامئتان ، ولعلها من بقايا حديقتها المذكورة [1] .

وينزح الماء من البئر بالدلاء . وكانت بئر حاء هذه ملكاً لأبي طلْحَة الخزرجيّ المُثْري الشهير . وكان قد عزم على جعلها وقفاً وفق استحسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك حينما سمع قوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا البِرّ حتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبّونَ » .. لأنّها كانت أحَبّ أمواله إليه ، فقَبِلَ الرسولُ منه أصْلَ رغبته ، وهو جعْلُها وقفاً للمسلمين ، وأشار عليه بأن يجعلها في الأقارب منهم .. وقد آل قِسْمٌ منها إلى حَسّانَ بن ثابت ، واشتراها جميعاً معاويةُ بنُ أبي سفيان ، وبنَى بها « قَصْرَ بَني جَدِيلَةَ » (لوقوعه في منازلهم) وذلك ليأوي اليها بنو أميــة إذا حدثت بهم النوائبُ كما كان مُتَوَقّعاً إذ ذاك .

---

١ أي بطريقة توالد أشجار الحديقة من بعضها ومنها النخل كما هو معروف ومتبع في غرس الأشجار الصغيرة المتوالدة من الكبيرة في الحدائق إذا شاخت هذه ، وهكذا دواليك ..

(٥)

بئر بضاعة

دَخَلْتُ حديقة بئر بُضَاعة فإذا هي فينانةٌ خضراء ودخلتُ الحظيرة التي فيها البئر فإذا البئر غزيرة الماء عميقة قديمة الطيّ واسعة . ويمتاز ماؤها بالعذوبة مع كون ما يجاورها من الآبار مِلْحاً .

وتبعد بئر بُضاعة عن سقيفة بني ساعدة بالسَّحَيْمي بمسافة نحو ٤ دقائق بالمشي العاديّ .

وكانت البئر والسقيفة لبني ساعدة . والطريق من السقيفة إلى البئر : كان زقاقاً ضيقاً يشاهده الإنسان على يساره إذا كان آتياً من السقيفة ، من جهة الباب الشاميّ . وبين رأس الزقاق والسقيفة نحو ٢٠ متراً . وهذا الوصف ينطبق على وضع بئر بُضاعة أيام تأليف هذا الكتاب وطَبْعَتِه الأولى بدمشقَ عام ١٣٥٣ هـ . أما الآن فقد أزيل مبنى سقيفة بني ساعدة قبل سنين .. وأصبح الطريق لاحباً ، إلى بئر بضاعة .

ولبئر بضاعة طريقان : أحدهما طريق من شارع السَّحَيْمي ، والآخر من شارع الباب المجيديّ بين عمارة مدرسة البنات التي كانت فندق آل المدنيّ ، وبين بستان الفيروزية [١] .

---

١ فصول من تاريخ المدينة المنورة للأستاذ علي حافظ ص ١٦٩ ، طبع مطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر بجدة .

(٦)

بئر السقيا

موقع هذه البئر بجنوبيّ بنايةِ محطة السكة الحديدية ، يفصل بينهما طريقُ مكة . وتسمى البقعة التّي فيها البئر بالفُلْجَان ، وكانت منازل الحجاج الزائرين للمدينة عند هذه البئر . ولِتَجْدِيدِها مِنْ قِبَلِ بعض العجم : (الفُرْسِ) عام ٧٧٨ هـ عُرِفَتْ في بعض تواريخ المدينة ببئر الأعجام .

وهي عميقة محفورة في الصخر ، قطرها ٦ أمتار ، وعمقها ١٤ متراً ، وبجنوبها مزرعتها .

وبئر السقيا مَأثُورَةٌ ،شرب الرسول صلى الله عليه وسلم من مائها وتوضأ منه . وعلى أرضها الفُلْجان عَرَض الجَيْشَ الذّاهِبَ إلى بَدْر وكانت مِلْكاً لذكوان الزّرقيّ ، واشتراها منه سعد بن أبي وقّاص .

(٧)

بئر أبي أيوب

الظاهر أن أبا أيوب الذي تُنْسَبُ إليه بئران أو ثلاث بالمدينة ، هو أبو أيوب النّجّاري الخزرجي الأنصاري الذي كان النبي نَزِيلَه في داره حين قدم إلى باطن المدينة .. وإلا فمن هو أبو أيوب هذا الذي يعتني المؤرخون بوصف آباره ؟

والبئر التي نِسْبَتُها لأبي أيوب الأنصاري صحيحة ، هي البئر التي تقع بشرقي محلة الرّوميّة بِشَمالي البقيع ، ولا تزال تُعْرَفُ ببئر أبي أيوب وهي مطوية بالحجارة طيّاً ظاهر القِدَم ، ولها سُلّمٌ حجري يُنْزَلُ منه إليها ، وقد طُمّ أعلاه . . وهذا السّلّمُ .. قد ذكره السمهودي .. إذَنْ فهذا الطي هو القديم الذي كان على عهده (القرن التاسع الهجري) .

وليس ماء بئر أبي أيوب بالملح الأجاج ولا بالحلو العَذْبِ ، طَعْمُهُ بين ذلك مع وقوعها في أرض مَسْبَخَة .

وهي واقعة في حديقة صغيرة من أوقاف الأشراف العلويين من المغاربة . وكانت تُعْرَف بأولاد الصفي في القرن التاسع الهجري .

والطريق من المدينة إلى بئر أبي أيوب : البابُ المجيدي – الرّوميّةُ – محاذاةُ باب الشّكنة المستحدثة بأواخر محلة الرومية [1] – عطفةٌ صغيرة بعد هذه الشّكنة – مَمَرٌ ضيق مرتفع مُشَرّقٌ – فإذا سار المارّ بهذا الزقاق نحو دقيقتين يشاهد باب بستان منحدر قبالته .. فهذا البستان المنحدر هو حديقة بئر أبي أيوب ، وسُورُه من طين متصلب والبئر في غرب الحديقة من الداخل .. كان هذا الوصف للطريق السالك إلى بئر أبي أيوب حين كتابة هذا الكتاب بسنة ١٣٥٣ هـ ..

أما الآن بعد هدم سور المدينة ، وبعد التوسعة السعودية للمسجد النبوي ، وبعد انتشار العُمْرَان بالمدينة فقد تغير كل هذا كما هو مشاهد وملموس .

١ الرومية : هي المحلة التي كانت خارج سور المدينة ، يخرج إليها الإنسان من الباب المجيدي ويذهب إلى الشرق في طريق كان محفوفاً بالحدائق والدور .. وكان ذلك الطريق ملتوياً ومتعرجاً.

(٨)

بئر ذروان

يُطالبنا العلم والتاريخ بوصف هذه البئر التي وقعت فيها حادثة السّحْر المعلومة فما الذنب للبئر وإنما هو على لَبيد بن الأعصم اليهودي الذي سولت له نفسه الشريرة الخبيثة إذاية رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حماه الله منه ، ومثله في هذا الخبث النفسي سائرُ اليهود فهم آفة البشر والبذرة الفاسدة . ولبيد وإن أساء إلى النبي من جهة فقد آذى بني زريق الأنصاريين أهل هذه البئر التي كانت عذبة مرتادة للسقيا فحال بينهم وبين الاستقاء منها بفعلته الشنعاء فاضطروا لتهويرها .

والشائع بين الناس أنها البئر المطمومة الكائنة أمام محلة النخاولة [1] تحت أحد أبراج سور المدينة الجنوبي . وتُلْقَى فيها وحواليها القمائم والأقذار ... وَذَرْوَانُ اسم قديم لهذه المحلة ولا تزال تحمله . وهي من جملة منازل بني زريق أصحاب البئر . وسور المدينة الداخلي اليوم [2] يفصل بين المحلة والبئر . ويقول المطري أنها بداخل السور وكأنه يعني السور الخارجي الذي كان يُطيفُ بمحلة النخاولة المتصل بباب العوالي وذلك قبل هدمه هو أيضاً .

---

١ محلة النخاولة : بجنوبي المدينة . وهي محل سكنى هذه الفئة من سكان المدينة وكانوا يعرفون باسم النخليين نسبة إلى حدائق النخل التي تخصصوا أو خصصوا للعمل فيها . ولهم ذكر في بعض تواريخ المدينة القديمة .

٢ أي سنة ١٣٥٣ هـ . وما بعدها إلى أن هدم ذلك السور في وقت لاحق .

(٩)

بئر عروة بن الزبير

تقع بئر عروة بطرف حرة الوبرة الغربي ّ بالنسبة للمدينة ، عن يمين المسافر في الطريق إلى مكة .

وتبعد بئر عروة عن المدينة بنحو ٣٠ دقيقة من باب العنبرية بالسير المتوسط للانسان . وقطرها وعمقها كبئر رومة تقريباً . وبجوارها مقهى ً مستحدث وأبنية مهدومة . وهي مطوية بالحجارة المنحوتة المطابقة وطيّها مُحكَم ٌ جداً . ولا نعلم من طواها بهذه الكيفية .. فقد كانت مطمومة في القرن التاسع الهجري ّ . وبجنوبها عن يمين سالك ذلك الطريق مسجد ٌ بناه السيد عبد المحسن أسعد .

ويُستَخرَج الماء من البئر بالدلاء تارة وبالسانية تارة أخرى . وهي غزيرة ، وماؤها أرق ّ مياه المدينة وأعذبُها وأخفّها ، وله طعم خاص ّ .. ويقول ابن خلكان : ليس بالمدينة بئر أعذب منها .. وفي وصفها يقول السّري ّ ابن عبد الرحمن الأنصاري ّ :

سَخُنَة ٌ في الشّتاء بَارِدَة ٌ صَ ... يْفاً سِرَاجٌ في اللّيْلَةِ الظّلْمَاءِ

وكان بـَكـّارٌ يقدّمُ مـَاءَهـَا هدية في قوارير لأمير المؤمنين هارون الرشيد ، وهو في الرّقة بالعراق .

وقد احتفرت في أواسط القرن الأول الهجريّ .

هذا ومن المـُسْتَمْلَحِ أن نختم هذا الفصل بنادرةٍ اتفقتْ لي مع صاحب المقهى المشار إليه آنفاً فقد سألته ممازحاً ومُتَنَدّراً :

ــ من هو عروة الذي تُنسب إليه هذه البئر ؟

فأجابني في شيء من الزهو والإعجاب :

ــ عروة التي تُنْسَبُ إليها هذه البئر هي امرأة قديمة من اليهود حفرت هذه البئر قبل الإسلام فنُسِبَتْ إليها ...

وعبثاً حاولت إقناعه بأن عروة هو ابن الزبير بن العوام ، فان الرجل قد سيطرت على جوانب دماغه فكرةُ انتساب البئر وحفرها ، لامرأة يهودية اسمها عروة ... ولرسوخ هذه الفكرة في أبعاد ذهنه أغلق عنه كل باب للاقتناع بما عداها ... ولا غرو فإنه أميّ جاهل . وكم للأمية من آفات وكم للجهل من افتئات !

هذا ويعلو بئر عروة الآن ويلتصق بها الجسرُ الذي أقامته الحكومة السعودية لتسير من فوقه السيارات والمشاة والأنعام فلا يعوق ذلك السير تدفّق سيل العقيق كما كان من قبل . وكان من نتيجة ذلك طمرُ البئر وتعطلها وحرمانُ الناس من مائها الصحّيّ . وعسى أن يوفق الله من يعيدها إلى ما كانت عليه .

قسم العيون

تمهيد

في المدينة اليومَ أيْ سنة ١٣٥٣ هـ – أربع وعشرون عيناً جارية ، منها عين الأزرق المعروفة عامياً باسم « العين الزرقاء » . وهي أعَمّها وأهَمّها . والباقي منها يسقي البساتين . ومصدر كل هذه العيون عالية المدينة . وقد علمت فيما بعد أن عيون المدينة الأربع والعشرين قد توقفت عن الجريان فجَفَّتْ حدائقها التي لا تُسقى بمياه الآبار الأرتوازية الجوفية العميقة .

وقد كانت عينُ الشّهداء التي احتفرها معاوية جارية إلى ما قبل ٥٤ عاماً ثم توقفت .

ولأنها هي وعين الأزرق هما العينان الأثريتان فقد وصفناهما فيما يلي :

(١)

الكظامة أو عين الشهداء

أجرى هذه العين معاويةُ في خلافته . وتُسمى عين الشهداء لمرورها على قبورهم ساعة إجرائها . قال السمهودي : إنها تأتي من العالية .. ويعني العالية الشرقية ... وتُرى فتحاتها مُسَامِتَة لسفح أحُدٍ الجنوبي : وهي أقرب العيون إليه . فاذا وصلت إلى جنوب القبة المعروفة بقبة الثنايا كان لها منهل هناك ويبعد عن القبة المذكورة نحو ٣٨ متراً . وتسير العين مُغَرِّبَة مارّة على قبور الشهداء — شهداء أحد — التي هي الرَّضْمُ الواقعة بغربي ضريح حمزة رضي الله عنه بنحو ٥٠٠ ذراع حتى تبلغ إلى البساتين المعروفة بخيف الثنايا وخيفِ معاوية . وهناك مغيضها . وهذا الخيف أقربُ الخيوف إلى الضريح المذكور ، وكانت عين الشهداء جارية . ومنذ ٥٤ عاماً توقفت . ويدل فحوى حديث جابر بن عبد الله الصحابي على أن تاريخ حفرها كان عام ٤٣ هـ .. فهي إذن أقدم من عين الأزرق ببضعة عشر عاماً ، أو ما دون ذلك .

---

* الكظامة — بكسر الكاف وفتح الظاء وهي لغة : بئر بجنب بئر بينهما مجرى في بطن الأرض كالكظيمة (القاموس مادة كظم) وقد سميت بهذا الاسم العين التي أجراها معاوية فمرت بقبر حمزة رضي الله عنه وبعض شهداء أحد فأخرجوا من مقابرهم ودفنوا في الربوة التي فيها الآن ضريح سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . وتسمية هذه العين باسم الكظامة مطابق للمعنى اللغوي والفني للعين .

(٢)

عين الأزرق أو العين الزرقاء

في رأيي أن هذه العين تُعَدّ فاتحة عصرٍ جديدٍ في حياة سكان المدينة .. فقد نَقَلَتْهُمْ من طور الاسْتِقَاءِ من الآبار وما يلزم لهذا الاستقاء من دلاءٍ وبَكَرَاتٍ وَرَفْعٍ وخَفْضٍ إلى طَوْرِ الاستقاء من مناهلها الفياضة مباشرة وبدون نزح ولا كلفة .

* * *

لم تزل الآبارُ عُمْدَةَ شُربِ أهلِ المدينة حتى جاءت خلافة معاوية ، وكانت المدينة قد زخرت بالسكّان .

وكأنّي بهذا الخليفة الذي حَنَّكَتْهُ التجارُب قد لاحظ ذلك ففكّر في القيام بمشروع يُبْقي له أحسنَ أحدوثةٍ وأطيب ذِكْرى ألا وهو إرْوَاءُ أهل هذا البلد من ماءٍ مَعِينٍ دائمِ الانسكاب .

فكّر في ذلك حينما شاهد أنهار الشام تُرْوي أهلها بهذه الصفة . ومَنْ أحقّ بهذه الرفاهية من سُكّان مَهْدِ الإسلام ؟ خُصُوصاً مع ملاحظة حالتهم السياسية في ذلك العهد مع الدولة القائمة ، وما ينبغي لهم

من الاستمالة إلى كِفتِها لتكون الرّاجِحَةَ دِينياً وسياسياً على غيرها من الدّعَاةِ الدّهاة .

كأنّي بهذا كُلّه قد جال في ذهن معاوية رضي الله عنه فحانت منه التفاتة إلى خزائنه المالية فرآها عامرة تفيض بالأبيض والأصفر .. فكتب في الحال بإنفاذ المشروع إلى عامله على المدينة ابن عمه مَرْوَانَ بنِ الحكم . فصدع هذا بالأمر واختار من فطنته أو خبرة من استحضره من المهندسين أن يكون منبع العين المُزْمَعِ حَفْرُها من بئر الأزرق بقُباء ، فحفرها من هناك وأجراها في هذا النّفَق الأرضيّ (الدّبْلِ) فسالت فيه ، متطلبةً للمنحدرات ، ولَمّا بلغت المدينة بنَى لها المَنَاهِلَ ففاضت منها ، وجاء أهلُ المدينة يَسْتَقون ويَشْكُرُونَ . لم يذكر مؤرّخو المدينة الذين بين أيدينا تواريخهم تاريخ إجراءِ هذه العين ، ولا كيفية وضع تصميمها .. إكْتَفَوْا عن بيان هاتين النقطتين المهمتين بقولهم مثلاً : « وسُمّيَت العينَ الزرقاء نسبة إلى مروان بن الحكم الذي أجراها بأمر معاوية ، لأنّ مروان كان أزرق العينين » .

وبناءً على ما تجمع لدينا من المعلومات التاريخية نقول : إن تاريخ إجرائها كان في مبادىء النصف الثاني من القرن الأول الهجريّ حيث إن إمارة مروان على المدينة كانت في أوائل النصف المذكور . وأما المواصفات فلا نعلم عنها شيئاً ما .

وأصلُ هذه العين أيام إجرائها الأولى من بئر الأزرق في بستان الجعفرية غربيّ مسجد قُبَاء وقد أضيفت إليها آبارٌ في أوقاتٍ متفاوتة ، كبئر أريس . وبئر الرّبَاط ، وبئر بُوَيْرَةَ . كما أنها أُمِدّتْ بينابيع حُفِرَتْ في جنوبيّ بئر الأزرق أيضاً . وهي تجري من مصادرها المذكورة إلى بئر الشّلاّلَيْنِ ، وتفيض فيه ، ثم إلى بئر الغِرْبَالِ ، فبئر جَدِيلَة ، وهنا تُمِدّها بئر السّرّارَةِ وبئرُ القلْعَجِيّةِ وبئر السيد عبد الرحيم السّقّاف

ومن هنا تأتي إلى المدينة ، ولها بها عدة مناهل وتخرج من المدينة إلى الشمال ، وتنقطع بحذاء بستان داود باشا . ويسير فائضُها مع الماء المِلْح الآتي معها من بئر جَدِيلَة إلى البِرْكَةِ شَمَالِيّ الجُرُف . وهناك مَغِيضُها .

وقد اهتم الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله بأمر هذه العين كاهتمامه بالمياه والعيون في جُدّة ومكة فجعل للعين الزرقاء هيئة رسمية تُسَمّى « لَجْنَة العين الزرقاء » [1] كالسابق وبنَى لهيئة إدارتها عمارة مُشَاهَدَة في باب السلام وذلك عام ١٣٤٩ ﻫ وهي بجانب منهل من مناهل العين ، وقد أزيل المنهل والعمارة معاً في مشروعات التوسعة والتنظيم .

عمرانها وإصلاحاتها

كما ساق الملك الأشرف قايتباي أبو النصر بن عبد الله الجركسيّ الظاهريّ ، ماء عين زُبيدة من عرفات إلى مكة فجرى ماءُ العين بالمسعى قرب باب السلام كذلك ساق ماء العين الزرقاء إلى المدينة المنورة [2] وكان ذلك في أواخر القرن التاسع الهجريّ .

وفي أوائل حكم الدولة العثمانية ذكر التاريخ أن هذه العين توقفت ، فضاق أهلُ المدينة ذَرْعاً بذلك ، فَعَمّرها السلطان سُليمان سنة ٩٣٢ ﻫ ثم عمرها مُراد سنة ٩٩٩ ﻫ . وفي سنة ١١١١ ﻫ أضاف إليها السلطان مصطفى بئر عِذْق ، وفي عام ١٢١٢ ﻫ بَنَى مجراها السلطانُ سَلِيم . وفي القرن المذكور أصلحها محمد عليّ باشا. وفي القرن الرابع عشر جَدّدها

---

١ كان رئيس هذه الهيئة هو السيد زين العابدين مدني في سنة ١٣٥٣ ﻫ أي حين تأليف هذا الكتاب ومكث في رئاسته لها حتى توفي رحمه الله ثم توالى تعيين الرؤساء إلى اليوم . ورئيسها بالإنابة في الوقت الحاضر ، علي قمقمجي .

٢ الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ، لنجم الدين الغزي ص ٢٩٩ ج ١ طبع بيروت .

السلطان عبد الحميد الثاني وهو الذي أضاف إليها بئر بُوَيْرة . وفي عام ١٣٤٩ هـ عمّرت الحكومة العربية السعودية مجاريها .

وهذا عدّا الإصلاحات المستمرة التي كانت تُجرَى فيها في عهد الحكومات المتوالية .

وفي عام ١٣٤٩ هـ اقترحت مديرية الصحة بمكة المكرمة مدّ أنابيب حديدية في طول مجاري العين وقاية لها من التلوّث . ولما يلزم لهذا المشروع من نفقات باهظة ثم لِما فيه من صد الإمدادات المائية التي تتسرب إلى العين من ينابيعها المعروفة بالمرّاوي .. لذلك كله طُويَ المشروعُ ولم يُبرَ إنفاذُهُ . وأخيراً مُدّت الأنابيب الضخام في مجاري العين من منابعها القديمة والجديدة وأُدْخِلَتْ إلى المنازل بوساطة الأنابيب الفرعية ، فكان ذلك بداية نهاية المطاف ، لرحلة طويلة من الإصلاحات التي بدأت منذ خلافة معاوية والتي كانت تستهدف إراحة السكّان من مُعَاناة السَقْي بالدِّلاءِ ، بإدخال الماء حسب الإمكان إلى منازل السكان .

مناهلها

هذه المناهل[1] مبنية وذات قباب ولها سَلالِمَ حَجَرية يُنْزَلُ منها إليها . وهذا بيانها :

١ – المنهل الواقع شَمَالَ مسجد المُصَلّى : (ذو شعبتين : الشرقية للرجال ، والغربيةُ للنساء) .

٢ – منهلُ باب السلام (ذو شُعبةٍ واحدة) .

---

١ أبطلت هذه المناهل أخيراً وحل محلها « الكباسات » .

٣ – المنهلُ بوادي بُطحان بين باب قباء والجسر الممدود عليه الشارع : (هذا المنهل يتكون من ستّ آبار مرتفعة عن مجرى السيل يُستَخرَجُ منها الماء بالدلاءِ والبكَرَات) .

٤ – منهلُ الساحة قرب بستان السّلطانية : (ذو شعبة واحدة) .

٥ – منهلُ حارة الأغوات : (ذو شعبة واحدة) .

٦ – منهل الزّكيّ قُرب مشهد النفس الزكية : (ذو شعبتين) .

٧ – منهلُ باب بَصْري : (آبارٌ يستقي منها بالدلاء والبكرات) .

٨ – منهلُ الباب المصري : (من داخل الباب وهو بئر صغيرة الفتحة يُنْزَحُ منها الماء بالدّلو) .

٩ – منهلٌ بداخل قلعة الباب الشاميّ عليه مكِينَةٌ رافعة للمياه توصلها إلى الكباسات في أنابيب حديدية .

١٠ – منهلُ العَطَنِ : (لا يُسْتَعمَلُ للشرب بل للغسل لأنه من فائض العين) .

ونحن نكتب هذه السطور في سنة ١٣٥٣ هـ . والعمل جار في فتح منهل جديد خارج باب الحمّام ، فإذا تم فتحه فتكون عدة مناهل عين الأزرق اليوم ١١ منهلاً . سبعة منها منخفضة يُهْبَطُ إليها من سلالمَ حجَريّةٍ ، وثلاثة مرتفعة يؤخذ منها الماءُ بالدلاء . وواحد ، عليه مكِنة الكَبّاسات .

الكباسات

لِكَوْنِ هذه الكباسات على ظاهر الأرض ، ولأنها عبارة عن صنابير (حنَفِيّاتٍ) بمجرد فتحها تفيض منها المياه – لذلك ولهذا

تُعَدّ بحقٍّ فَتْحاً جديداً في أسلوب الاستقاءِ بالمدينة في هذا العصر ، كما كانت عينِ الأزرق في القرن الأول الهجريّ فتحاً جديداً في عالم السّقيا بمُدُنِ الحجاز .

ومنذ أواخر عهد الحكومة العثمانية بـُوشِرَ إنشاءُ الكَبَاسات بالمدينة ولا تزال عمليةُ إنشائها [1] مستمرة وهذا بيانها الآن :

موقع الكباس	منطقته
أمَامَ حوش سِنَان	محلة العنبرية
أمام التكية المصرية (المبرة المصرية حالياً)	محلة العنبرية
أمام مسجد بَهْرَام آغا .	محلة العنبرية
داخل حوش الجَوْهَرَيّ	محلة العنبرية
بالمستشفى المعروف بالخَاسِكِيَةِ	محلة العنبرية
بدار الإمارة .	محلة العنبرية
بداخل الثكنة العسكرية	محلة العنبرية
بحوش خير الله .	محلة زقاق الطيّار
أمام زقاق الطيار .	محلة المناخة
بحوش خميس .	محلة المناخة
في رأس زقاق جعفر .	محلة المناخة
بدائرة الشرطة .	محلة المناخة
بمركز الهجانة (مبنى السبيل الذي أزيل)	محلة المناخة
بداخل السجن .	محلة المناخة

---

١ شملت الكباسات في زماننا ، جميع شوارع المدينة وأحواشها وبعض ضواحيها ، وأدخلت الأنابيب بعض دور المدينة ، والحمد لله على ذلك .

منطقته	موقع الكباس
محلة المناخة	في دائرة الطّحن والكهرباء .
محلة المناخة	في داخل القلعة للبستان
محلة المحمودية	أمام دار أبناء عليّ حسين .
محلة الجُدَيّدَة	أمام الحَجّارية (بستان آل الحجّار العُمرين)
درب الجنائز	أمام باب القاسمية .
درب الجنائز	أمام باب الحَمّام .
درب الجنائز	أمام باب العوالي .
محلة ذَرَوَان	بداخل دار السيد زين العابدين مدنيّ
محلة ذَرَوَان	أمام دار الأرْكُوبيّ
محلة ذَرَوَان	أمام بيت أبي عِشرين .
دار الضيافة	أمام بناية كهرباء الحرم النبويّ .
دار الضيافة	بداخل بناية كهرباء الحرم النبويّ
محلة الساحة	بجانب دار السيد محمود أحمد .
محلة الساحة	أمام حوش فَوّاز .
محلة الساحة	أمام حوش بَابَيْن .
محلة الباب المجيديّ	أمام مدرسة العلوم الشرعية
محلة الباب المجيديّ	بداخل فندق آل المدنيّ .
محلة الباب المجيديّ	بداخل المدرسة الأميرية .
محلة الباب المجيديّ	أمام فندق آل المدنيّ .
محلة الباب المجيديّ	أمام دار الشيخ حسن الشاعر .
محلة الباب الشاميّ	أمام الباب الشاميّ من الخارج .

موقع الكباس	منطقته
أمام البِساطيّة .	محلة الباب الشاميّ
أمام ثنية الوداع .	محلة الباب الشاميّ
في بُطَيْنِ جبل سَلْع .	محلة الباب الشاميّ
بداخل دائرة اللاسلكيّ .	محلة الباب الشاميّ
أمام المخفر الأول .	بطريق سيد الشهداء
أمام المستراح .	بطريق سيد الشهداء
أمام بستان المَصْرَع .	بطريق سيد الشهداء
أمام الصهريج .	بطريق سيد الشهداء
جنوب بستان المُفْتيّة .	قرية العُيون
أمام منهل باب السلام .	غربيّ باب السلام
في داخل المستشفى .	غربيّ باب السلام
بجانب المستشفى .	غربيّ باب السلام
بالشارع العينيّ .	غربيّ باب السلام
بخارج باب البرابيخ .	محلة السَيْح

فهذه (٤٩) كباساً موجودة في الوقت الحاضر (سنة ١٣٥٣ هـ) وسيأتي يوم تَعُمّ الكباسات فيه المدينة حتى تُمَدّ الأنابيب داخل البيوت وفي ذلك من الرفاهية والراحة الشيء الكثير .

هذا وقد أصبح ما تفرستُ به حينما كتبتُ هذا الفصل الختاميّ للكتاب ما بين سنتي ١٣٥٠ و ١٣٥٣ هـ حقيقة واقعة، فقد عمت الكباسات أخيراً سائر شوارع المدينة وأحوشتها وبعض ضواحيها ، كما أدْخِلَتْ أنابيبُ الماء العذب الجاري من العين الزرقاء مباشرة إلى أكثر منازل المدينة ..

وأقول : « الآن » ونحن في أواخر سنة ١٣٩٢ هـ – ١٩٧٣ م إنه سيأتي يوم يَعُمُّ فيه دخولُ هذه الأنابيب الجاري فيها ماء العين العذب إلى داخل بيوت المدينة جميعها إن شاء الله . وواضح ذلك من اهتمامات حكومة جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز بمشروعات الإصلاح في بلد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي مقدمتها مشروع الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي .

مصادر الكتاب ومراجعه

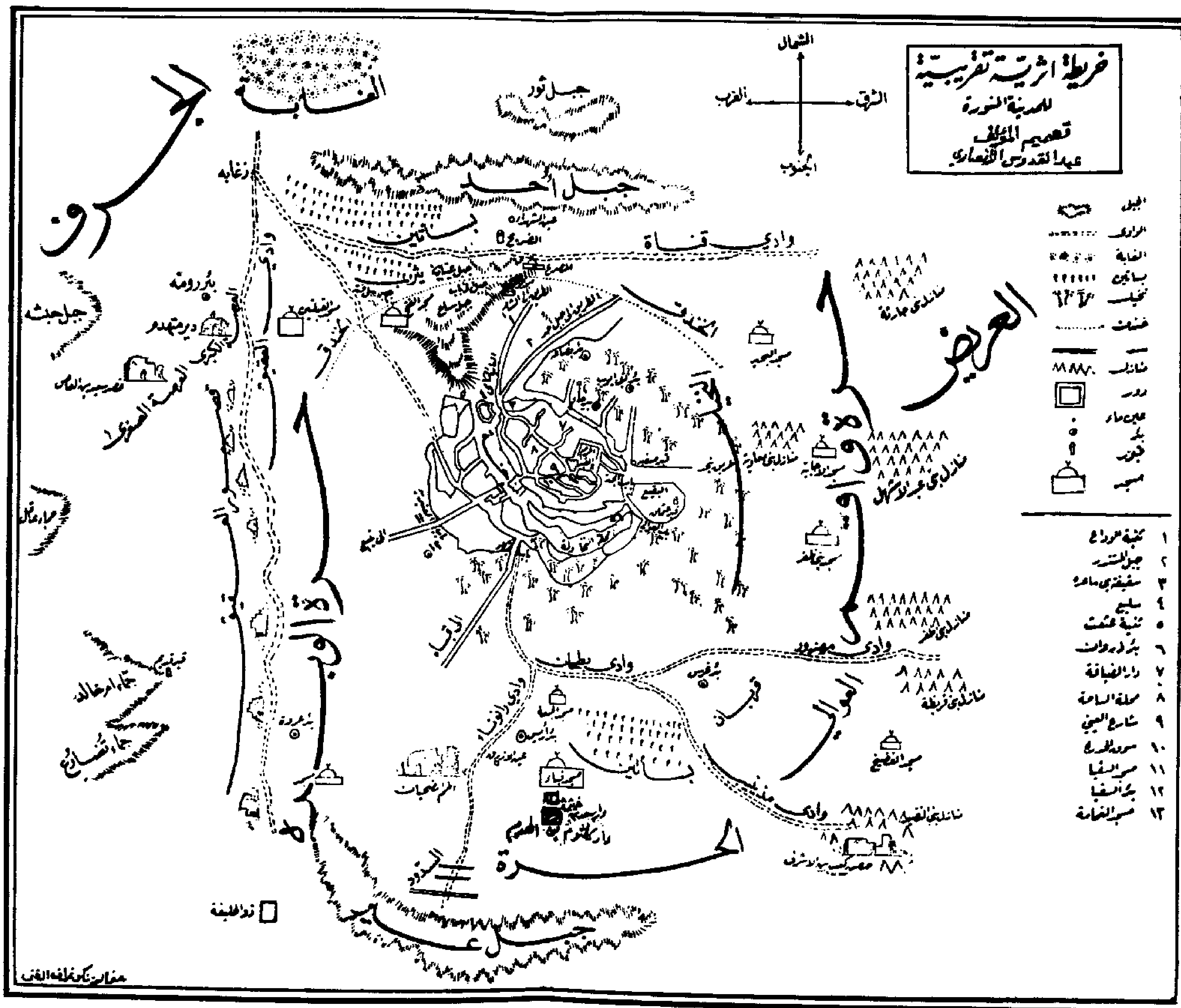
القرآن الكريم
تفسير الطبري : لابن جرير الطبري
صحيح البخاري : لمحمد بن إسماعيل البخاري
صحيح مسلم : لمسلم القشيري
سنن أبي داود : لأبي داود السجستاني
السيرة النبوية : لابن هشام
التيجان : رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام
الروض الأنف : للسهيلي
التعريف بما أنست الهجرة من معالم دار الهجرة : للمطري
وفاء الوفا : للسيد نورالدين علي بن أحمد السمهودي
خلاصة الوفا : للسيد نور الدين علي بن أحمد السمهودي
عمدة الأخبار في مدينة المختار : لأحمد بن عبد الحميد العباسي
الأغاني : لأبي الفرج الأصفهاني
نزهة الناظرين : للسيد جعفر برزنجي
مرآة الحرمين : لإبراهيم رفعت
الرحلة الحجازية : لمحمد لبيب البتنوني

رحلة ابن جبير : لمحمد بن جبير
الكامل : لابن الأثير
معجم البلدان : لياقوت الحموي
وفيات الأعيان : لابن خلكان
تاريخ الدولة العليّة العثمانية : لمحمد فريد
صبح الأعشى : للقلقشندي
لسان العرب : لابن منظور الأنصاري
الكواكب السائرة لمناقب أعيان المائة العاشرة : لنجم الدين الغزّي
مرآت الحرمين (باللغة التركية) : لأيوب صبري
القاموس المحيط : للفيروزآبادي
المصباح المنير : للفيومي
قلب جزيرة العرب : لفؤاد حمزة
مجلة الزهراء (م ٣) : لمحب الدين الخطيب
تعليقات خطية على خلاصة الوفاء : لإبراهيم فقيه
مشاهدات ومعلومات خاصة : للمؤلف
فصول من تاريخ المدينة المنورة : للسيد علي حافظ
معجم ما استعجم : للبكري
بين التاريخ والآثار : للمؤلف
السيد عبيد مدني
السيد حبيب محمود أحمد
الغزوات النبوية (باللغة الأردية) : للدكتور محمد حميد الله

فهرس موضوعات الكتاب

خريطة للمدينة المنورة

في ما يلي خريطة (أثرية تقريبية) وُضعت خصيصاً للتعريف بآثار المدينة ومواضع وجودها في أنحائها . . وهذه الخريطة هي من تصميم المؤلف وتنفيذه .


خريطة اثرية تقريبية
للمدينة المنورة
تصميم المؤلف
عبد القدوس الأنصاري
الشمال
الجنوب
الشرق
الغرب
الجبل
الوادي
الغابة
بساتين
نخيل
خندق
منازل
دور
عين ماء
بئر
قبور
مسجد
١ ثنية الوداع
٣ سقيفة بني ساعدة
٤ سليع
٥ ثنية عثعث
٦ بئر ذروان
٧ دار الضيافة
٨ محلة الساحة
٩ شارع العيني
١٣ مسجد الغمامة
الغابة
جبل ثور
جبل احد
وادي قناة
بساتين
الجرف
العريض
البقيع
الخندق
وادي بطحان
وادي مهزور
العوالي
قباء
بساتين
الحرة
جبل عير
ذو الحليفة

هذا الكتاب

اعتبر العلماء والمؤرخون المعاصرون هذا الكتاب (آثار المدينة المنورة) أصح كتاب وأدقه وأوجزه، مع وضوح العبارات، وناهيك بما يقول عنه المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل: «فلما حضرتُ الى المدينة أهدانى الأستاذ عبد القدوس الأنصارى كتابه (آثار المدينة المنورة) وما لبثتُ حين اطلعتُ على محتوياته أن رأيت مهاجر النبي الكريم انفتحت أمامى مغالق آثارها وأصبح من اليسير تتبعها في أماكن وجودها وتتبع تاريخها والأطوار التى مرت بها من خلال هذا الكتاب الوجيز الجامع».

وتقول عنه مجلة (نور الإسلام) بالقاهرة: «فهذا الكتاب بمثابة دليل مفصل لها (للمدينة) وقد وضع بعناية وتدقيق عظيمين، وقد حلِّي بالصور الفوتوغرافية مما زاد في قيمته العلمية».

ويقول عنه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي في مقال نشره في مجلة الأزهر بمصر ما نصه: «وقد ارشدنى الدكتور هيكل إلى كتاب (آثار المدينة المنورة) لمؤلفه الأستاذ عبد القدوس الأنصارى الذى اتصل به منذ نزل بالمدينة وقد ذكر له فضله وشكره أجمل شكر على إرشاده ومعاونته».

ويقول عنه الأستاذ أحمد عبيد بدمشق في قصيدة له منشورة في مطلع الكتاب في ذكريات هجرة المصطفى [صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة:

ذكريات ما تنقضي وشعور
ما عفته عوامل النسيان
أيقظتها صحائف من كتاب
لأديب ذى خبرة وبيان
ولكم فيه من صحائف تورى
كذبيات الاحساس والوجدان
كل سطر به يطالعه التا
ريخ بالسر منه والإعلان
حف (عبد القدوس) بالخير من
أولاه منه هدى وصدق بيان

